القرآن

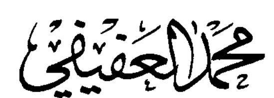
القول الفصل
بين كلام الله
وكلام البشر




بسم الله الرحمن الرحيم



القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر




http://kotob.has.it

تقديم

للأستاذ الشيخ

عطية صقر

الأمين لمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد ، فإن القرآن الكريم كلام الله سبحانه ، يحمل فيما يحمل من الخواص خاصيتين أساسيتين هما : الإعجاز الذي أثبت صدق الرسالة للنبي الأمي ، والهداية التي أثبتت صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان .

وعلوم القرآن ليست كعلوم البشر تنتهي إلى حد ، أو تعطي على قلة ، فالقرآن لا تفنى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد،وهو في كل من خاصيتيه ذو عطاء مستمر ومتجدد ، يمكن أن يعطي في كل لحظة من لحظات وجودنا وجها من وجوه الحقيقة فلكل حادثة حكما ، ولكل مشكلة حلا ، لأنه آخر الكتب التي أنزلها الله لهداية البشرية ، يسايرها في كل مراحل تطورها المستمرة إلى يوم القيامة .

وبقدر الرقي العقلي والتقدم العلمي ، وتعدد وسائل المعرفة ، وبقدر ما عند الباحث من حب للحقيقة وعمق في الفهم وقوة في الاستنباط تنكشف له نواحي الإعجاز أكثر وأكثر ، ويعمق إيمانه أشد وأشد ، كما قال سبحانه « **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** » .

٥٣ : فصلت

إن القرآن ، في مثل قريب ، أشبه بالبحر المحيط ، يروع الناظر إليه مظهره ، ويبهره مخبره ، فكلما نظر إليه وتأمل ، وغاص فيه وتعمق،عرف أكثر وأروع .

والأستاذ محمد العفيفي له صلة قوية بالقرآن الكريم إيمانا به كمسلم ، وتلاوة له كمتعبد ، وتدبرا له كمفكر ، وله في التعبير عما اكتشفه من أسرار الإعجاز

ذوق خاص ، امتزج فيه وجدان الصوفي المؤمن بفكر الفيلسوف المتعمق . والأسلوب المحتوي على هذا المزيج يطرب له كل قارئ يعيش تحت شعاع هذا الوجدان ، ويتعامل مع هذا الفكر .

وعندما كنت أقرأ كُتُبَ الأستاذ محمد العفيفي ، وأسمع أحاديثه الإذاعية . وأتابع ندواته الفكرية ، أشعر بخيالي يسرح معه ، ويشدني بقوة إلى متابعة خطه الفكري لأستشف منه الهدف الذي يهدف إليه !

ومن خلال كتبه التي ألفها في القرآن تفصيلا وهداية وإعجازا ، راعني أسلوبه المسترسل ، وإيمانه العميق ، ومعرفته الواسعة ، وسرني تعقبه ، من خلال هذه الدراسات ، للأفكار والآراء الملتوية ، التي تمس قداسة الدين ، فينفض خبثها ، ويصحح معوجها ، بميزان الحق وعلى هدى القرآن الكريم .

وأقر –كما يقر الأستاذ الكاتب – أنه لا يزال واقفا على شاطئ البحر الزخار ، يتأمل في القرآن ويسجل تأملاته ، وقد يسلمه طول التأمل إلى غيبوبة لا يفيق منها إلا وهو في أعماق البحر ، حيث ينعقد لسانه وينطق جنانه ، وكفى بذلك خيرا ونعمة ، فتلك غاية الفكر المتبصر والإيمان العميق . والوجدان الحي ، والحب الصحيح .

وفي هذا الكتاب الذي يضيفه « العفيفي » إلى كتبه السابقة ، في تدبره للقرآن ، بحث في علم من علوم القرآن ، سماه بعض العلماء القدامى (علم الارتباط) .

وموضوع هذا العلم هو بيان الارتباط المعجز بين أي قدر من القرآن ، وبين القرآن كله في جملته الواحدة .

وسنرى أن هذا الارتباط يجدد رؤيتنا البشرية تجديدا متواصلا ، ويصلها وصلا دائما بالهداية الإلهية ، لا بالمعاني المتداعية على نفسها كما هو الشأن في كلام البشر ، ولكن بارتباط كل حرف وكل كلمة وكل جملة بكل موضع نجد به أياً من ذلك ، بكل آية كما هي في سياقها من القرآن كله .

وسنرى أن « العفيفي » يربط في إيجاز يتوخى فيه السهولة ما استطاع ، بين هذا العلم ، وبين قوله تعالى :

الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . ١ : هود

ثم يشير إلى أن هذا العلم من علوم القرآن ، هو علم الإحكام والتفصيل ، نزولا على ما جاء في هذه الآية الكريمة .

لذلك فهو في الفصل الثاني يقدم لنا فاتحة السورة (آلر) في مواضعها الخمسة بالقرآن كله ، ثم يبين لنا أن لها في كل موضع من هذه المواضع ارتباطا بوجه جديد من وجوه العلم ، تحمل معْه الفارق بينه ، وبين وجوه العلم التي نجدها ، عند نظرنا في أي ارتباط ، بين أي مفردة قرآنية أخرى وبين القرآن كله في جملته الواحدة ، وأن هذه الوجوه جميعا وثيقة الصلة ، بإحكام القرآن وتفصيله .

أما هدفه من بيان هذا العلم ، وهذا الإعجاز ، فهو وضع حد للجدل العقيم ، الذي يتشبث به الإلحاد والملحدون ، في فترتنا التاريخية المعاصرة ، وغيرها من فترات التاريخ ، وهم يعلمون أن جدلهم بالباطل ليدحضوا به الحق ، جدل فارغ لا قيمة له ، ولا خير فيه ، ولكنهم يتشبثون به ، ليظن من ينخدع بهم أنهم على شيئ ، بينما هم يعلمون أنهم لا يملكون غير اللغو الذي لا يؤدي إلى نتيجة أبدا ، وهذا كل أملهم في الحياة !

والإحْكامُ في نظره ، هو الشُّمول ، الذي يَدُلُّ على تقْدير الله لجملة الكلام ، الذي نزَّلَهُ على عبده ورسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن في هذا القدْر من الكلام ، كُلَّ ما يحتاجُ إليه الناس جميعا ، من الهداية إلى يوم الدين .

والتَّفْصيلُ هو التَّخْصيصُ الذي يَرْبِطُ كُلَّ إنسان بكل زمان ومكان ، بموضعِ حاجته من أيِّ مفردة قرآنية ، وهي مرتبطةٌ بأي موضعٍ نجدها به ، في القرآن كله ، فإذا هي تقدِّمُ لنا حُكْماً نهائيا ، يَعْمَلُ فيه الْمَوْضعُ ، والارتباطُ بين أي مفردة ، وما يحيط بها من المفردات في سياقها ، عَمَلاً موحَّداً هَدَفُهُ سَبْقُ الفكر البشرى سبْقاً دائبا ، بكل وجْه من وجوه الحقيقة ، مفتاحُه الحرْفُ أو الكلمة أو الجملة ، التي نحتاج إليها من القرآن كله .

فإذا كان بعض العلماء القدامى كما سنجد ذلك بهذه الصفحات قد اختلفوا في القدْر المعجز من القرآن وقالوا إنه آيةٌ بتمامها ، أو سورةٌ بتمامها ، ولو كانت من قصار السُّور ، فإن هذه الصفحات في إحكام القرآن وتفصيله ، تبيِّنُ لنا الإعجاز القرآني القائم على الوحدة والتنوُّع ، اللذين لا مثيل لهما في كلام البشر ،

كما تبين أن أى حرف أو كلمة أو جملة قصيرة في القرآن ، يتذكَّرها العقل الإنساني ، هي معجزة لا يستطيع أحد من الناس أن يأتي بمثلها ، أو يبدِّل أى موضع لها في القرآن كله . وانظر إليه إذ يقول :

إن كل قول قرآني نركِّز نظرنا عليه ، يؤدي عملين عظيمين .

أولهما : هو وجوده في سياقه ، واشتراكه في أداء المعاني .

وثانيهما : هو أنه مصباح متفرِّدٌ بنوره ، من مصابيح القرآن جميعا وهو كله « نور على نور » .

إن ثبات جملة الكلمات القرآنية ثم تخصيص مفرداتها ، من حيث النصُّ ومن حيث موضعُ كل منها في جملة هذه الكلمات ، وهي جملة معلومة ، بينما جملة الكلام البشرى غير معلومة للبشر أنفسهم ، هو الذى يقدِّمُ لنا الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر .

ذلك أن كلام البشر ، مختلف بحكم ما نكتشف فيه بين حين وآخر ، من مواطن الخطأ ، التي تحملنا على الحذف منه والإضافة إليه .

وهذا كله ينتهي إلى سبب أساسي هو جهل البشر بجملة كلامهم ، وفقدانهم تبعا لذلك الارتباط الثابت بين كل مفردة من مفردات كلامهم ، وبين موضعها الخاص بها بين مواضع كلماتهم جميعا .

ولقد جعل الله الصدق والعدل والثبات قيما عليا يلجأ إليها كلام البشر لينجو من عوامل التمزق التي تعصف به .

فلئن عجز البشر عن تحقيق الشكل المعجز في كلامهم ، فإن كلام الله يقدم لهم من خلال هذه القيم المضمون الذى يكسب كلامهم يقينه وثباته .

وسنجد في هذه الصفحات أن مفردات القرآن من حيث نصوصها وهى الحرف والكلمة والجملة ، ميسرة للذكر ، ومن ذلك أنها ساطعة النور تنطلق بنا إلى كل لمحة من لمحات مسارها ، لنهتدى بالنور إلى النور .

ومن الأمثال الهامة في ذلك أن « **واو العطف** » في سورة الفاتحة تعمل

بموضعين :

أحدهما : في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

٦ : الفاتحة

وثانيهما : في قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَ الضَّالِّينَ﴾

٧ : الفاتحة

فهذان الموضعان تَسْطَعُ في كل منهما « **واو العطف** » حتى نرى جديدا من العلم ، في كل جديد من موضعيها .

فالموضع الأول فيه العبادة والاستعانة ، والثاني فيه البراءة من المغضوب عليهم ومن الضالين .

وكذلك نجد أن « **واو العطف** » بمواضعها القرآنية جميعا ، تربطنا بجديد من المقاصد مع كل جديد من المواضع .

وكذلك الأمر في أى كلمة قرآنية تتذكرها عقولنا ، فتنطلق بنا إلى مواضعها لتصلنا بجديد من العلم مع كل جديد من المواضع ، ولتكن هذه الكلمة مثلا هى كلمة (تَبْدِيلَ) ، كما نجدها بقوله تعالى :

١- **لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ**

٦٤ : يونس

وكلمة **تَبْدِيل** تَصِلُنَا هنا ، بموضع فيه نَفْيُ التَّبْدِيل عن كلمات الله ، فكلُّ كلمة منها تَصِلُنا مع ارتباطها بموضعها وسياقها بحكم نهائي لا رادَّ له .

ثم ننظر في هذا الموضع الآخر للكلمة ذاتها كما هي في قوله تعالى :

٢- **لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**

٣٠ : الروم

وهكذا نجد كلمة « **تَبْدِيلَ** » تصلنا هنا بموضع جديد ، فيه علم جديد هو نفي التبديل عن خلق الله ، وهذا ظاهر في ثبات خصائص كل شيءٍ .

فكل شيءٍ من خلق الله لا تبديلَ له ، حتى التغيُّر نفسه لا تبديل له ، لأنه

تحقيق لخطة ثابتة محكمة ، هى فطرة الله التي فطر الناس عليها ! !

وكذلك الأمر في أى جملة قرآنية .

ومن ذلك قوله تعالى :

١- **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**

٨٢ : النساء

وهذه الجملة لا تتذكرها عقولنا ، حتى تصلنا بموضعها هذا ، وفيه نفْيُ الاختلاف عن كلمات الله ، فلو كان القرآن من عند غير الله لكثر فيه الخطأ والصواب ، كما هو الشأن في كلام البشر ، ولكن القرآن في « **شكله ومضمونه معا** » يقين خالص لا اختلاف فيه ! !

ونمضي مع الجملة ذاتها إلى موضعها الثاني والأخير .

٢- **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** .

٢٤ : محمد

وهنا يتَّصل النور بالنورِ ، فنجد الموضع الجديد يبيِّنُ لنا ، أن الانقطاع عن تدبُّر القرآن ، فيه الجهلُ المرير ، الناتجُ من انغلاق النفوس البشرية ، على ذواتها ! !

وقد قسَّم الأستاذ « العفيفي » فصول هذا الكتاب ، أربعة أقسام .

فالفصل الثاني يحتوي على مدخل يتقدَّمُه مَثَلٌ رائعٌ للأعمال التي تحقِّقُها مُفْرَدَةٌ قرآنية ، هى فاتحة السورة « **آلر** » حيث نراها تَرْبطُنا بكل موضع جديد من مواضعها ، بهدف جديد .

وهذا هو الجانبُ الشكليُّ الذى يقوم عليه علم « **الإحكام والتفصيل** » .

ولكن الشَّكْلَ مفتاحٌ للمضمون ، وطريقٌ إليه .

وفي القرآن كما سنرى بهذه الصفحات ، يتحقَّقُ المضمون من ارتباطنا بأي مفردة قرآنية نتذكَّرها سواء كانت حَرْفاً أو كلمةً أو جملةً قصيرةً ، ثم

بارتباط هذه المفردة بكل موضع ، تتصل فيه بما يكون في سياقها ، من مفردات القرآن !

وقدكان المضمون الخاص بمواضع « آلر » في كل آية من الآيات الخمس ، التي جاءت في بداية كل آية منها ، مضموناً خاصا بالإعجاز والعلم معا ، في إحكام القرآن وتفصيله .

وهذا هو الموضوع الأساسي للفصل الثاني ، وقد بدأت بالإشارة إليه لأن فيه التعريف بعلم الإحكام والتفصيل .

أما الفصل الأول فنجد فيه تطبيقا عملياً ، واستخلاصا واضحا لمفردات القرآن ، وهي الحرف والكلمة والجملة ، وربطاً بينها وبين المواضع القرآنية ، ومنها ما هو متعدِّدٌ ومنها ما هو غير متعدِّدٍ ، ولكنَّ المضمون الذى نحصل عليه من الارتباط بين كل مفردة وبين موضعها وسياقها ، مضمونٌ جديد أبدا ، متفرِّدٌ دائما ، سابق بالحقيقة المطلقة إلى يوم الدين .

وقد أحسن الكاتب إذ بدأ بالناحية العملية ثم ثنَّى بالتعريف بالعلم وبيان آفاقه ونتائجه .

ويأتي الفصل الثالث فيقدم فيه « **الأستاذ العفيفي** » دراسة عميقة شاملة ، لمصادر الإحكام والتفصيل ، في القرآن وفي السنة ، وفي أقوال الصحابة وأعمالهم ، حتى يصل بنا إلى أكثر العلماء القدامي الذين كتبوا في علوم القرآن ، ومـا أشاروا إليه من علم الارتباط وعلم المناسبة ، وهما الاسمان اللذان غلبا قديما عـلى الإحكام والتَّفصيل ، ثم ينتهي إلى العصر الحديث حيث يذكـر بعض الإشارات الهامة ، التي تحتوى على بعض تطبيقات هذا العلم ، وهذا الإعجاز

وأخيرا نجد الفصل الرابع خاصا بنتيجة كبرى من نتائج هذا العلم القرآنى ، هى الدعوة إلى العمل به في مجالات الدعوة الإسلامية ، وتيسير المنهج الإعلامي ، الذي يربط بين الدعاة وبين إحكام القرآن وتفصيله .

ثم بعد ذلك ، تُلَخَّصُ الفكرةُ الأساسيةُ للكتاب ، بخاتمة ذات أهمية عِلْمِيةٍ كبيرة ، يربط بها المؤلف من وجهة نظره ، بين المصْطلحات القرآنية ، الخاصة

بالإحكام والتفصيل والتشابه وأحوال نظرنا في القرآن ، وأنواع احتياجنا إليه !

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن الأستاذ محمد العفيفي أحد رجال الصحافة والإعلام ، الذين عملوا ما يقرب من خمسة وعشرين عاما ، بين الصحافة اليومية بمصر ، والإعلام الكويتي في التلفزيون والإذاعة ، واهتم من خلال ذلك بالدعوة الإسلامية ، حتى وصل إلى هذه المكانة المرموقة ، في استخلاص هذا العلم من بين علوم القرآن ، راجيا أن يأخذ مكانه في مجالات الفعل والتأثير .

لذلك كله يقول الأستاذ ، العفيفي في هذا الصدد : إن الملحدين في فترات التاريخ جميعا ، أَمْكَنَهُم أن يَتَمَارَوْا في الإعجاز القرآني ، الذى تجلوه معاني القرآن ، وتسمو به البلاغة القرآنية على أساس أن هذين النوعين من من أنواع الإعجاز يقومان على التسليم بضرورة الإيمان بالغيب .

فماذا يقولون اليوم وقد جاءهم الإعجاز في شكل القرآن وبنائه ، بما يرونه بأبصارهم ، ويلمسونه بأيديهم ؟ .

وفقه الله إلى مزيد من هذه الجهود المباركة
والله الهادى إلى سواء السبيل

عطية صقر
الأمين بمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

الكويت في رمضان ١٣٩٧ هـ
أغسطس ١٩٧٧ م

الفصل الأول

مفردات القرآن
نصوصها ومواضعها



سُوْرَةُ الْفَاتِحَةِ مَكِّيَّةٌ وَهِيَ سَبْعُ اٰيَاتٍ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ○

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴿١﴾ الرَّحْمٰنِ
الرَّحِيْمِ ﴿٢﴾ مٰلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ﴿٣﴾ اِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴿٤﴾ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيْمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِيْنَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّيْنَ ﴿٧﴾

« إِحْكَامُ القرآن وتَفْصِيلُه » عِلْمٌ من علوم القرآن ، يقدِّمُ لنا الحدودَ الفاصلة بين الإعجاز في كلام الله ، والعجْز في كلام البشر .

والمقصودُ بالإحكام والتفصيل ، هو « الوحْدة والتَّنَوُّع » .

« الْوَحْدَةُ » التي تجمع مفردات القرآن جميعاً ، من الحروف والكلمات والْجُمَل فإذا هذه المفرداتُ مرتبطةٌ بالقرآن كله ، ارتباطا لا ينبغي معه ، أن يختلط كلام البشر ، بكلام الله .

و « التَّنَوُّعُ » الذى يخْتَصُّ كلَّ موضع ، نجد به أيَّ حرف أو كلمة أو جملة في القرآن كله ، بوجهٍ مُتَفَرِّد من وجوه العلم .

وهكذا يمكننا أن نتصوَّر ، أن حاجة كل إنسان ، إلى النظر في كل موضع لكل حرف أو كلمة أو جُمْلَة ، في القرآن كله ، إنما هي ارتباطٌ بين هذه الحاجة ، وبين نافذة مفتوحة ، على أُفُقٍ متفردٍ وقائم بذاته ، بين آفاق الحقيقة المطلقة ، التي يقدِّمُها لنا كلام الله ، في الكثيرِ والقليل من حروفه وكلماته وآياته وسوره ، فإذا الكثير والقليل من القرآن ، نافع على سواء ، للقليل والكثير من الناس ، بكل مكان وزمان .

فالإحكام والتفصيل أو الوحدة والتنوع ، علم قرآني ، نجده في القرآن بمصطلحاته التي سنتحدث عنها – معا – بعد ذلك ، كما نجده الآن بتطبيقاته العملية ، التي تقوم على مفردات القرآن .

ومفردات القرآن من حيث نصوصها هي الحرف ثم الكلمة – ثم الجملة –

ثم نجد كل مفردة من هذه المفردات ذات موضع واحد خاص بها بين مواضع المفردات القرآنية جميعا ، كما هي مرتبطة بالقرآن كله ، في جملته الواحدة .

ولا يمنع هذه الحقيقة في واقعها العملي أن نجد مفردة قرآنية بذاتها ، في مواضع قرآنية متعددة . *

---

* سنرى في الفصل المقبل أن كلام البشر مجهول الجملة بالنسبة للبشر ، لذلك فهم لا يستطيعون أن يقدروا جملة المواضع الخاصة بكل مفردة من مفرداته بحيث يخصوا كل موضع منها بحكم نهائي يرجعون إليه جميعا في فترات التاريخ جميعا .

ذلك أن القرآن مُتَّصِلَةٌ مفرداتُهُ جميعا ، من حَرْفٍ أو كلمة أو جُمْلة ، اتصالا معجزا يجعله كالكلمة الواحدة ، لا يمكننا أن نحذف حرفا من حروفها ، أو نغيِّر موضعه فيها ، أو نزيد عدد حروفها أو ننقُص منه .

فإذا تعدَّدتْ المواضع في القرآن كله ، بآية أو جملة أصغر من آية أو كلمة أو حرف ، كان كل من ذلك ثابتا في نصه بلا تبديل ، وإنما لكل مفردة منه عمل جديد ، بكل موضع جديد .

حتى إذا احتاج أي إنسان منّا بأي زمان أو مكان ، إلى النظر في ما تصلنا به كل مفردة من هذه المفردات ، في سياقها من أي موضع ، وجدنا لها حسابا ، فيه تعميمٌ إلهي معجز ، من حيث تقديرُ جملة مواضع كل مفردة ، ومن حيث جملة ما تربطنا به من المقاصد .

كما أن في هذا الحساب ، تخصيصا معجزا من حيث ربط كل مفردة في سياقها من كل موضع نحتاج إليها به ، بالمقصد المتَفرِّد ، الذي يحمل معه الفارق بينه ، وبين أي مقصد آخر نحتاج إليه في القرآن كله ، فننظر بكل موضع لكل مفردة تتَّفقُ مع نوع حاجتنا إلى القرآن ، كأن ننظر بمواضع كلمة « الْغَيْب » لنعرف المقاصد القرآنية ، المرتبطة بالغيب !

وهكذا يكون الأمر مع كل حرف أو كلمة أو جملة ، نحتاج إليها في القرآن كله ، فنحصل على مقاصدها القرآنية التي لا مثيل لها في كلام البشر .

وهذا من أعظم الحدود الفاصلة ، بين كلام الخالق ، وكلام المخلوقين .

إذ البشر عاجزون عن التعميم حتى يستطيعوا تثْبيت القدر المطلوب من الكلام ، بلا زيادة ولا نقصان .

كما أنهم عاجزون ، عن تخصيص عدد مواضع أي مفردة من مفردات كلامهم كله أو بعضه ، على نحو ثابت لا زيادة فيه ولا نقصان ، فضلا عن عجزهم عن تقدير جملة المقاصد ، التي يحتاجون إليها في كلامهم ، أو علمهم بذلك ! !

ونحن إذا أنعمنا النظر في سورة الفاتحة ، كما نجدها في مستهلّ هذا الفصل من فصول صفحاتنا هذه ، فإننا نجد أن هناك خطين اثنين ، تحت عدد من مفرداتها .

وهذان الخطّان إشارةٌ إلى أن هذه المفرداتِ القرآنية ، **متعدِّدَةُ المواضع** في القرآن كله .

وكذلك نعود فنمعن في النظر إلى سورة الفاتحة ، فنجد بها مفردات ، قد وُضعَ تحتَها خطٌّ واحدٌ للدلالة على أن هذه المفردات ، من النوع الذي نجد كلا منه **بموضع واحد** في القرآن كله .

١- أنواع المفردات في القرآن :

وواضحٌ أن مفردات القرآن لا تخرج من حيث **نصوصها** عن الحرف والكلمة والجملة .

أما ما ترتبط به المفردات من **تعدُّد** المواضع أو **عدم تعددها فهو** أصل من أصول هذه المفردات ، كما نحاول أن نستخلص أنواعها جميعا ، من سورة الفاتحة .

وسورة الفاتحة جملة من جمل القرآن .

والقرآن كله جملة من الحروف والكلمات والجمل القصيرة ، التي قد تكون أقل من آية بتمامها ، أو تكون آية من الآيات ، أو سورة من السور .

ولكن الإحكام والتفصيل أو الوحدة والتنوع في القرآن ، يقدم لنا الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، حيث يقدم لنا القدرة المطلقة في الْفِعْلِ الإلهي ، فيظهر لنا العجز والتفاوت والتناقض في أي فعل بشرى .

وكلام البشر ، كما سنطيل الحديث عنه في صفحاتنا هذه ، يصدر من الناس جميعا على كثرة أعدادهم ، واختلاف أحوال وصولهم إلى الحقيقة أو نكوصهم عنها ، وتفاوت الناس جميعا وفرادى في قدرتهم على بيان المعلومات التي يقدمها لنا الكلام البشرى .

وجهْلُ البشر بجملة كلامهم ، يكشف لنا عَجْزَهُم جميعا وفرادى ، عن

تخصيص جملة ثابتة من الكلام ، تختص كل مفردة من مفرداتها ، بعدد ثابت من المواضع ، حتى إذا احتاج أى انسان ، إلى النظر في مواضعها ، وجدها تفتح له بكل موضع منها ، نافذة مخصوصة ومتفرِّدة ، من ارتباطها بموضعها الخاصِّ بها ، بين الكلام كله في جملته الواحدة .

ولقد أظْهر الله لنا الحدودَ الفاصلة ، بين الإعجاز في الفعْلِ الإلهي ، والعجْز في الفعْلِ البشرى ، حيث جعل القدرة على الإحكام والتفصيل ، في كلام الله ، دليلاً على أنَّ الوحْدة والتَنوُّع في خلقه ، هما التَّخصيصُ الإلهيُّ ، الذى لا يترُكُ صغيرةً ولا كبيرةً ، في المنافع البشرية ، إلا اختَصَّها بما يتفقُ الناس جميعا وفرادى ، على ثبات الانتفاع بالقليل والكثير منه ، **على سواء** ، مهما تتقدم مسيرة الحياة من الدنيا إلى الآخرة * .

فإذا كان الناس لا يستطيعون ، أن يعلموا ، كيف يضعون كلَّ مفردة من مفردات كلامهم ، بموضعها الصحيح ، بين مواضعها في كلامهم كله ، لأنهم عاجزون عن التَّخْصيصِ أو البتِّ النهائي ، في أى شئ ، فهم يستطيعون في حدود حاجاتهم العملية ، أن ينتفعوا بالوحدة والتنوُّع في آيات الله الكونية ، كما ينتفعون بالإحكام والتفصيل ، في آيات الله القرآنية * .

يقول الله تعالى :

الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ .

١ــ٥ الرحمن

فإذا نحن نظرنا في المعاني التي تقدمها لنا هذه الآيات ، وجدناها معاني معجزة ، حيث أخبرتنا بحقيقة الله ، وحقيقة خلْقه للإنسان ، وأن الله علَّمنا البيان ، ثم بينت لنا أن الكون الذى نعيش فيه ، ونتحدَّث عنه ، ونبيِّن بمصطلحاتنا العلمية والرِّياضية ، مدى تقدّمنا أو تأخرنا في معرفته والانتفاع به ، إنما هو كون قائم على حساب إجمالى ، ثم على تخصيص يضمن لكل مفردة من

* معنى ذلك أن أي مفردة قرآنية سواء كانت حرفا أو كلمة أو جملة تجمع بين خصائص الحساب وخصائص اللغة ، فهي تتضمن إحصاء لجملة المباني والمعاني ، التي تتصل بها في مواضعها القرآنية جميعا ، فيؤدي ذلك إلى تخصيص كل موضع نجدها به ، بحكم نهائي ، ومعلومة متفردة ، وثابتة على تفردها أبدا .

مفردات كل نوع من أنواعه ، موضعها الخاص بها تماما ، بين جملة المواضع التي تخص مفردات نوعها جميعا ، بين آيات الله الكونية ، في وحدتها وتنوعها .

كل هذه المعلومات ، أجملها لنا القرآن العظيم ، في عشر كلمات ! ! .

وواضح أن هذه المعلومات في حقيقتها ، أكبر من أن يحيط بها العقل البشرى ، ولو حاول **الناس بيانها** ، ما وسعتها المجلدات الكثيرة ، فضلا عن اختلافهم فيها ، مع ما يكثر في كلامهم من الخطأ أو الصواب !

ولكن إحكام القرآن وتفصيله ، لا يربط عقولنا بمعاني القرآن ابتداء ، وإنما يربطنا بإعجاز في شكل القرآن وبنائه ، حيث نحتاج إلى أى حرف أو كلمة أو جملة في القرآن كله ، فنجد في وحدة القرآن وتنوُّعه ، حيث يختص الله كل صلة بيننا وبين أي موضع لأي مفردة ، بعلم جديد أبداً ، ومتفرد دائما ، فإذا هذا هو أعظم دليل على أن القرآن هو كلام الله ، كما أن الله هو خالق هذا الكون الذي نعيش فيه ! ! .

وأقْرَبُ نقطة ننظر من خلالها إلى عجزنا البشرى ، عن تحقيق الإحكام والتفصيل في كلامنا ، هو أننا كما يدلنا قوله تعالى « **الشَّمْسُ والْقَمَرُ بحُسْبَان** » نخضع في حسابنا للوحدة والتنوُّع ، في آيات الله الكونية ، على أساس أننا حين نعُدَّ أو نحسب بالأرقام ، لا يكون هناك مجال لأى كذب أو خطأ أو اختلاف في الاتفاق على الحقيقة ، كما هو الشأن في كلام البشر الذى تختلف أحواله بين الكذب والصدق ، أو الصواب والخطأ .

فلو أننا أردنا أن نبني غرفة صغيرة ، فوق قطعة أرض مربعة ، مساحتها ٢٥ متراً ، ورقَّمْنَا هذه الأمتار ، فكان الشكل الآتي كما نراه الآن ، فإننا لن نختلف على الحقائق الثابتة في هذا الشكل .

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥
٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠
١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥
١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠
٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

ومن هذه الحقائق ، أن أى رقم ، له موضعه الذى يتفرَّد به في هذه المساحة كلها ، في جملتها الواحده .

فالرقم «١» له موضع واحد ، إذا نظرْنا إليه في ذاته ، كما هو في أول هذه الأرقام ، وكذلك كل رقم آخر ، فنحن طالما كنَّا نَعُدُّ عدّاً متواصلا ، فلا يمكن أن نجد رقما واحدا مرتين ، لأننا نعدُّ داخل كون واحد ، في جملته ، وهذه هي الوحدة كما وَصَلَهـا الله تعالى ، بينما نجدُ تَشَابُهـاً بين مواضع بعض الأرقام ، كما نجد الآن الرقم «١» بموضعه الأول ، ثم نجده مرة ثانية بالرقم «١١» حيث الرقم «١١» ما هو إلا «١٠» وفوقها «١» . وكذلك الأمر في الرقم «٢١» .

فما هذا ! ! إنه هو التشابه بين كثرة مواضع العمل ، للرقم «١» بينما هو في ذاته «١» بلا زيادة ولا نقصان .

فالوحدة والتنوع في مخلوقات الله ، ظاهرة بكل إعجازها في الحساب ، لأن الحساب متصل بالضرورة طالما كنا في حالة الْعَدِّ ، وطالما نحن نعلم أن المعدودات التي نعدُّهـا متَّصلَةٌ كذلك ، بموضعهـا الخاص بها من الكون كله *

فإذا جئنا نتحدث – مثلا – عن الغرفة السابقة الذكر ، فربما ادعى انسان – كذبا – أنه هو صاحبها ، وإن كان صاحبُها في الحقيقة ، شخصا آخر ! !

هكذا يتجلَّى لنا الاختلاف في كلام البشر ، ويقترن هذا الاختلاف بالتمزق بين أوصال الكلام البشرى ، شكلا ومضمونا ، بحيث نفقد نحن البشر ، الإحكام والتفصيل ، أو الوحدة والتنوع في كلامنا ، بينما نجد الوحدة والتنوع ، في خلق الله ، ونجد الإحكام والتفصيل في كلام الله ، فتتصل معرفتنا ووجودنا

---

* انظر ص ٦ وما بعدها من كتاب « زاد المعاد في هدى خير العباد » للعلامة ابن قيِّم الجوزية حيث يقول وإذا تأمَّلْتَ أحوال هذا الخلْق ، رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه ، دالا على ربوبيته تعالى ، ووحدانيته ، وكمال حكمته وعلْمه .

ونقول – معا – والحقيقة إن « الإحكام » هو التعميم الإلهي للجملة الواحدة من مفردات القرآن جميعا ، بينما التفصيل هو تخصيص موضع جديد ، فيه علم جديد ، يسبق كل حاجة جديدة ، من حاجات البشر جميعا وفرادى ، بما خص الله به الصلة بين كل مفردة قرآنية وبين أى موضع نجدها به ، في القرآن كله ! !

وهذا هو جوهر الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر .

بين الإعجاز في كلام الله والإعجاز في خلق الله ، في نور هذا الاتصال ، وهذا التخصيص الذي لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ، وحـده لا شريك له ، ونعرف بذلك أهم الحدود الفاصلة بين كلام الله ، وكلام البشر ! !

ثم إننا حين نعود إلى الأرقام الخمسة والعشرين ، كما سبقت في ترتيبها على المساحة السابقة الذكر ، فإننا نجد لها ترتيبا أفقيا ، ثم نجد لها - كذلك - ترتيبا رأسيا .

فالترتيب الأفقي نجده في العلاقة المتواصلة بين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ وهى علاقة تدلُّنا على الوحدة والتنوع ، من حيث صفاتُ الأرقام ، واطرادُ تقدمها في المساحة الأفقية.

أما الترتيب الرأسي ، فإننا نجده في العلاقة المتواصلة ، بين الرقم «١» مثلا كما هو في السطر الأول ، من الأرقام السابقة ، ثم كما نجده بأول السطر الثالث حيث الرقم «١١» ، أو كما نجده بأول السطر الخامس حيث الرقم «٢١» .

وسنجد في هذه الصفحات كلها ، ولا سيما مع مفردات سورة الفاتحة أن إحكام القرآن وتفصيله ، هو العلم والإعجاز ، الذى يقدِّمُ لنا الحدود الفاصلة ، بين كلام الله وكلام البشر ، حيث تجمع أىُّ مفردة قرآنية ، بين قدرتها المطلقة على الوصف ، وعلى بيان المعاني ، وقدرتها على أن تعمل على تخصيص كـل موضع من مواضعها ، مهما تكثر المواضع ، بما يخصُّه تماماً ، كما رأينا ، هذه الخطوة المتفردة الثابتة الحاسمة ، التي يقدِّمُها لنا أى رقم في كل موضـع نجده به ، بين جملة الأرقام التي تحيط به ، وكأنَّهُ شخص واحد بذاته ، بين البشر جميعا ، ولولا « **الوحدة والتنوع** » في خلق الله ، ما عرْفنَا شخصا واحدا بذاته بين الناس ، على تكاثرهم الدائب ، وحركتهم المختلفة في دروب الحياة ، ولا عرفنا أى حقيقة علمية بذاتها ، بحال من الأحوال ! ! *

---

* كما لا يستطيع أحد أن يقدم أي رقم أو يؤخره ذات اليمين وذات الشمال إذا نظرنا إلى الأرقام في سياقها ونحن نعد عدا متواصلا ، فإذا أخذت الأرقام شكل مساحة من مساحات الأرض ، لم نستطع كذلك أن نغير مواضع الأرقام إلى أعلى ولا إلى أسفل ، فكذلك الأمر في حاجاتنا إلى كل مفردة قرآنية ننظر إلى موضعها الثابت من سياقها الأفقي ، أو ننظر إلى ارتباطها الرأسي إذا تعددت مواضع أي مفردة فارتبطت بكل موضع جديد بمقصد جديد .

وهكذا يحتاج أى انسان إلى أى حرف أو كلمة أو جملة في القرآن ، فيجد لأى من ذلك تخصيصا من حيث عمله في كل موضع من مواضعه ، مع تفرُّدٍ في المعلومات ، التي نستخلص أيًّا منها من كل موضع بذاته ، فإذا نحن نحصل إذا واصلنا التلاوة ، على معان ثابتة ، فلا ينبغي أن يتغير موضع أى كلمة قرآنية ، من حيث الاتصال الأفقي ، بين مفردات القرآن جميعا ، فمهما تتجدَّدْ حاجاتنا إلى تلاوة القرآن ، فهو ثابت لا تبديل له .

وكذلك لا ينبغي أن يتغيَّر عدد مواضع أى مفردة قرآنية ، إذا نحن نظرنا إلى مفردات القرآن ، هذه النظرة الرأسية ، التي تبحث في عدد المواضع لكل مفردة ، فإذا هي مواضع ثابتة مهما تتقدَّمْ حاجاتنا إليها ، وتتنوعْ هذه الحاجات ، في كل زمان ومكان . ولننظر إلى هذا الشكل .

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥

إننا نرى أن هذه الأرقام جميعا آحاد من حيث ذواتها فأى رقم منها يأتي مرة واحدة ، ولا يمكن تقديمه أو تأخيره عن ارتباطه بما قبله وما بعده ، هذا هو الارتباط الأفقي .

ثم نجد الارتباط الرأسي كذلك لا يمكننا تغييره لأن الرقم «٤» مثلاً لـه موضعان ، الموضع الأول هو موضعه في الأعداد من «١» إلى عشرة والموضع الثاني هو موضعه مع الرقم ١٤ ، فالرقم «٤» يعمل عملين أحدهما استقلاله بذاته وثانيهما ارتباطه بالرقم (١٠) حتى نحصل على الرقم «١٤» .

وهذا هو الارتباط الرأسي في الأرقام الذي نعرفه كلما تعدَّدت مواضع مفردة بذاتها أو كلما توزعت الأرقام على أضلاع رأسية في مساحة من المساحات .

فإذا وجدنا القرآن يقوم على حساب شامل لا ينبغي معه تغيير عدد مواضع كل مفردة ، مع تخصيص كل موضع لكل مفردة بما هو له من المقاصد فمعنى ذلك أن الكلمة القرآنية تجمع مع صفة البيان والوصف وتقدير المعاني ، **إذا نحن احتجنا إلى تلاوة القرآن تلاوة متصلة ، تمضي مع الترتيب الأفقي لمفرداته** ، صفةً أخرى هي صفة التقدير الإلهي لعدَدِ مواضع كُلِّ مفردة قرآنية بلا زيادة ولا نقصان .

فلْنَجْعَلْ سورةَ الفاتحة مرآةً بين أعيننا ، ونحن نستخلص منها المفرداتِ القرآنيةَ بأنواعها الكثيرة .

أولا : الآياتُ المفْردةُ المواضع

سورة الفاتحة تقوم على سبع آيات . نجد كل آية منها ، ذاتَ موضعٍ خاصٍّ بها تماما ، وذاتَ عملٍ خاصٍ بها تماما ، بين آيات الفاتحة جميعا ، وبين الآيات القرآنية في سورها كلها .

فكلُّ آية من آيات الفاتحة ، وكلُّ آية في القرآن كله ، بوجه عام ، هي آيةٌ ذات موضع واحد في حقيقة الأمر ! وهذا هو النوع الأول من مفردات القرآن .

وقد نجد آياتٍ متعددةَ المواضع ، كما هو الشأن في قوله تعالى : (**فَبأَيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان**) بسورة الرحمن .

ولكن الحقيقة أن هذه الآيات ، تؤدِّي عملا عظيما في تجديد المعرفة الإنسانية ، وربطها بأهداف كثيرة ، من حيث تنير هذه الآيات في كل موضع من مواضعها ، الطريق أمامنا لنرى جديدا من العلم ، ومزيداً من النور .

وذلك فضلا عن أن مفرداتِ هذه الآيات ، مثل الحروف والكلمات والجمل القصيرة ، التي تكون أقل من آية بتمامها ، لها هي الأخرى أعمال جديدة ، موزَّعة على مواضعها القرآنية الكثيرة .

فالأمر – إذن – متعلِّقٌ بتنمية المعرفة الإنسانية تنميةً مطَّردة ، لا ينبغي أن يحقِّقها مصدرٌ من مصادر الكلام البشري .

ولذلك فآيات القرآن جميعا ، **آحادٌ** في مواضعها ، **وآحاد** في كلِّ فعْلٍ يختصُّ

---

* معنى ذلك أن أي حرف أو كلمة أو جملة نحتاج إلى دراسة صلات كل منها بكل موضع قرآني نجدها به فهي تصلنا في سياقه من الكلام بوجه متفرد وثابت من وجوه العلم ، وسواء في ذلك أن تكون المفردة التي ندرسها قد اخترناها من آية متعدِّدة المواضع ، كأن ندرس كلمة (**آلاَء**) في مواضعها القرآنية جميعا ، وسواء كذلك أن تكون المفردة التي اخترناها للدراسة من مفردات آية غير متعدِّدة المواضع

به كلُّ موضع من مواضعها ، وإن كنَّا نرى طائفةً منها **متعدِّدَةَ المواضع**

ولكنَّ هناك حقيقتين تدعونا كل منهما إلى التساؤل

كيْفَ ترتبطُ الآياتُ بمواضعها من السُّور ، التي تحتوي عليها جميعا !

وكيْفَ يمُكننا – كذلك – أن نرى ارتباط كلِّ سُورةٍ من سُوَرِ القرآن ، بسُوَره كلِّها ! !

الجواب عن هاتين الحقيقتين ، يكْمُن في معرفتنا ، حُدودَ المفردات ، من حيثُ نصوصُها ومواضعُها في القرآن كله .

ذلك أن هذه المفردات ، وهي – كما علمنا من قبل – لا تخرج نصوصُها عن الحرف أو الكلمة أو الجملة ، تعمل في الوصل بين آيات السُّور جميعا ، عن طريق المسارات التي تخص أى قول قرآني ، نحتاج إلى البحث في مساره في القرآن كله ، ليزيدنا كلُّ مسارٍ علما ، مع زيادة انطلاقنا معه إلى مواضعه *

وحُدودُ المفردات ، يتَّفقُ كلٌّ منهـا مع كلِّ مُفْرَدَةٍ من حيثُ نصُّها فالحرف له بدايتُهُ ونهايَتُهُ في النطق والرسـم وكذلك الكلمة ، والْجمْلَةُ ! !

وهكذا نجد لكل آية أو سورةٍ بداية ونهاية .

والقرآن كله له بدايةٌ ونهايةٌ ، من حيث رسمه ونصه الذى يسره الله للذكر .

فإذا نظرنا إلى البدايات والنهايات الخاصة ، بكل مفردة من مفردات كل آية ، وهى الحرف والكلمة والجملة ، انطلق بنا التفكير إلى مواضع كل مفردة في آيات القرآن كله .

وهذا أهمُّ ما يَرْبِطُ القرآنَ في جملته الواحدة ، حتى يكون كلُّه كالكلمة الواحدة في قوَّة ارتباطها ، وعظمة بنائها فلا يدخل فيها ما ليس منها ، ولا ينزع منها ما هو منها .

ومع هذه النقطة بالذات ، ننطلق معا إلى النوع الثاني من أنواع المفردات القرآنية.

---

* المقصود بالمسار جملة مواضع كل مفردة سواء كانت حرفا أو كلمة أو جملة ، نحتاج إلى دراسة كل موضع نجدها به في القرآن كله .

ثانيا : الآياتُ المتعدِّدَةُ المواضع

في الموضع الأوَّل لقوله تعالى :

(**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) وهو بسورة الفاتحة ، تتألَّق هذه الآية ، بمصابيح كلماتها الأربع ، بين البسملة والآية الثالثة من السورة ، وهي تدُلُّ على رحمة الله ، ثم تتْبَعُها الآية الرابعة من السورة ، وهي تدُلُّ على هيمنة الله على مخلوقاته في يوم الدين .

فهكذا نُحسُّ باتصال المسيرة من الدنيا إلى الآخرة ، وأن الله هو المهيمن على هذه المسيرة .

١ – **بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**

١–٤ : الفاتحة

وبذلك فإن لنا أن نعتبر كل آية قرآنية ، آيةً واحدةً ، حتى لو رأيناها بمواضع متعدِّدَةً ، كما يذهب أحدنا إلى بلاد كثيرة وهو لا يزال شخصا واحدا ، وإنما تتعَدَّدُ أعماله ولم يتعَّددْ هو في ذاته .

وكذلك الشأن في كل حرف وكل كلمة وكل جملة ، بكل آية من آيات القرآن ، إذ هي أشبه ما تكون بإشارات ينطلق نورها إلى عمل جديد ، بكل موضع جديد ، من مواضعها في الآيات والسور ! !

وهكذا يظهر لنا « **التفرُّدُ** » الذى تمتاز به كل مفردة قرآنية ، بكلِ موضع قرآني مهما نجد من كثرة المواضع الخاصة بمفردات القرآن جميعا ، وتنوُّع هذه المواضع ، بين أن تكون مواضع متعدِّدة ، أو غير متعدِّدة ! ! *

ثم يتَّصل الخطُّ البيانيُّ لمواضع هذه الآية ، وهي قوله تعالى : (**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ، ليربطنا بمواضعها ، في أعماق القرآن ، ولكل منها المقصد الذي ينفرد به .

* المقصود بالتفرد هو اختصاص المعنى الذي نحصل عليه من النظر في ارتباط أي مفردة قرآنية بأي موضع من مواضعها ، بأنه حكم نهائي وليس مجرد ظن بين ظنون مختلفة كما هو الشأن في كلام البشر .

وهنا . ترتبط هذه الآية في موضعها الجديد ، الذي نجده بسورة الأنعام بما يبيِّنُ لنا حتمية انتصار المؤمنين على الكافرين .

٢ - [**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**] .

[**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**]

٤٥ : الأنعام

أما الموضع القادم الذي نجده بسورة يونس ففيه بيانٌ لأحوال المؤمنين في الجنة .

٣ -[**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**] .

٩-١٠ : يونس

ثم نجد في الموضع المقبل بسورة الزُّمَر بيانَ القضاء الإلهي بين الناس يوم القيامة ، بما يقتضي حمد الله على ذلك .

٤ -[**وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**]

٧٥ : الزُّمَر

ثم نجدُ بالموضع المقبل بسورة غافر بيانَ موت المخلوقين ، بعد انقضاء أجل كل منهم ، وأنَّ الله وحده هو الحيُّ فهوالحقيق وحده ، بإخلاص الدين له .

٥ -[**هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**]

٦٥ : غافر

ثم نجدُ في الموضع القادم ، بسورة الصَّافَّات الثناء على المرسلين ، والحمد لله ، على فعلهم المحمود في الحياة .

٦ - [وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ] [وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ]

١٨١-١٨٢ : الصَّافَّات

إن « **المقاصد** » التي يَسَّرها الله لنا بتعدُّد مواضع هذه الآية القرآنية ، وهي قوله تعالى (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ، مقاصدُ كثيرة ، لا يستطيع أحدٌ من الناس أن يحصُرها في بيانٍ بشري ولا تستطيع عقولنا البشرية المحدودة الآفاق أن تعلمها جملة واحدة .

ومع ذلك فإننا يمكننا أن نتبيَّن الفرْق بين المقاصدِ في كل موضع من مواضعها ، والمقاصدِ في غيره من المواضع ، على النحو الذي يبيِّن لنا المسار القرآني الواحد ، الذي انطلقت بنا هذه المواضع في آفاق نوره .

١ - ففي سورة الفاتحة كان (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) على المسيرة المتصلة من الدنيا إلى الآخرة .

٢ - وفي سورة الأنعام كان (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) على حتمية انتصار أهل الحق ، على أهل الباطل .

٣- وفي سورة يونس كان (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين**) على ما وعد الله به المؤمنين من فوزهم بالجنة ، بعد انقضاء حياتهم الدنيا .

٤ - وفي سورة الزمر كان (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) على حكمه بين النـاس في الآخرة ، بعد أن اختبرهم بالتكليف في الدنيا .

٥ - وفي سورة غافر كان (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) على أن الله تعالى هو الحي

---

* ليزداد الأمر وضوحا انظر كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الإسكافي من منشورات دار الآفاق الحديثة ببيروت .

ومما جاء به في بيان اختصاص كل مفردة قرآنية بجديد من العلم ، في كل موضع جديد من مواضعها ، قوله في الصفحة ٥١٦ من هذا الكتاب إن قوله تعالى في سورة النبأ « **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** »

٤-٥ : النبأ

يدل على اختصاص الآية الرابعة من سورة النبأ بالعلم في الدنيا ، تم اختصاص الآية الخامسة من هذه السورة بالعلم في الآخرة فهو - إذن - ليس بتكرار ! ويقول الخطيب الإسكافي عن ذلك إنه لم يرد بالثاني ما أراد بالأول .

لا إله إلا هو،أما المخلوقات جميعا فما بهم من حياة فمن نعمة الله عليهم ، وهو الذي يُميتهم ثم يُحييهم . فهكذا يتبقى علينا أن نخلص الدين لله تعالى وحده ،

٦ - وفي سورة الصَّافَّات كان (**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) على تنْزيه الله تعالى عن أقوال الكافرين ، وعلى نعمةِ الله على المرسلين .

وهكذا يتبيَّن لنا أن الآيات القرآنية ، تجمع بين التفرُّد في ذات كل منها ، وبين الكثرة في العطاء ، والزيادة في المعاني ، والاتساع في آفاق النور ، الذي يجدد لنا العلم ، كلما تجددت به المواضع ، كما يبين لنا الهدف من إفراد المواضع ، أو تعددها ، ويؤدي - كذلك - إلى ظهور كل نوع من النوعين السابقين ، من مفردات القرآن ، بمجرد أن ننظر إلى النوع الآخر منهما معا !

ثالثا : الجملة المتعددة المواضع :

نصل الآن إلى الجملة القرآنية التي تكون أقلَّ من آية بتمامها .

فلا شك في أننا سنجد الإعجاز نفسه لو أننا احتجنا إلى أن ننظر في مواضع جملة داخلة في حدود قوله تعالى (**الحمد لله رب العالمين**) سواء كانت هذه الجملة هي (**الحمد لله**) أو كانت هي (**رب العالمين**) .

ولننظر في قوله تعالى :

١ - **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا**

٩٣ : النمل

وهنا يربطُنا قولُه تعالى « الْحَمْدُ لِلَّهِ » بمعلومةٍ مُتَفَرِدة عن أن الله سيرينا آياته فنعرفها .

وكذلك يتضح لنا ذلك في قوله تعالى :

٢- **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**

٣٤ : فاطر

وهنا تربطنا الجملة ذاتها وهى « الحمد لله » بمعلومة جديدة عن إذهاب الله

الحزنَ عن عباده الصالحين .

٣- **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ** ٧٤ : الزمر

وهنا نجد المعلومة الجديدة ، عن تحقيق الله وعده للصالحين من عباده .

ثم ننظر في بعض مواضع الجملة الأخرى في قوله تعالى :

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ، وهي قوله تعالى (رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

١- **مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**

٢٨ : المائدة

وهكذا نجد هذه الجملة وهي (رب الْعَالَمِينَ) تعمل في كل موضع نجدها به ، على تجديد معلوماتنا ، على ما سبق بيانه .

والمعلومة الجديدة هنا عن خوف هابيل أن يَقْتُلَ قابيل لأنه يَخاف الله رب العالمين .

ثم ننظر في قوله تعالى :

٢- **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين** **٥٤ : الأعراف**

والمعلومة الجديدة هنا عن خلق الله وأمره .

٣- **وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** **٣٧ : يونس**

وهذه المعلومة الجديدة ، التي نحصل عليها من ارتباط الجملة السابقة ، وهي قوله تعالى (رب العالمين) بموضعها الجديد ، معلومة خاصة ، بتفْصيل الكتاب وبأنه لا ريب فيه ، لأن التَّفْصيل يَفْصلُ القول في كل قضيَّةٍ من القضايا الـتي تتضمنها كل مفردة فور نظرنا في ارتباطها بالكلام كله ، وهذاً هو اليقين في أعلى آفاقه . *

ذلك أنَّنا حين نتذكَّر ما تلوناهُ أو تدبَّرْناه من القرآن ، لا نستطيعُ أن نَتَذَكَّر سورةً بتمامها جملةً واحدة ، أو عدداً من السور جملةً واحدة ، وإنما نحن قد

* (رب العالمين) لا تعتبر جملة إذا قصرنا الأمر على قواعد النحو أو غيره من علوم اللغة ولكنها في علم الإحكام والتفصيل تعتبر جملة لأن فيها تركيبا يتضمن أكثر من كلمة واحدة .

نَتَذَكَّرُ آيةً بتمامها ، أو نتذكر جملة من الجمل في آية من الآيات ، فهكذا جعلَ الله أي جملة أصغر من آية بتمامها ، مهما تتعدَّدْ مواضعها ، لا بد أن ترتبط في سياقها بجديد تنفرد به من وجوه العلم ، حتى يكون لكل جملة نتذكَّرها في القرآن كله ، تمامها في ذاتها ، وفي عملها ، وفي موضعها في القرآن كله !

ومواضعُ الجمل التي تكون أصغر من آية بتمامها ، مواضع كثيرة بحيث لا نستطيع أن نرى موضعا بذاته ، لمثل هذه الجمل ، وإنما جعل الله كثْرةَ المواضع الخاصة بهذه الجمل ، هي مناطَ قدرتنا على رؤية الأعمال التي تؤديها كل جملة منها ، بكل موضع من مواضعها .

ذلك أن القرآن كلَّهُ جملةٌ من السور والآيات والجمل والكلمات والحروف . ولكننا لا نستطيع رُؤْيَةَ القرآن كله جملةً واحدة ! !

فكذلك الأمر في السورة بين السور ، والآية بين الآيات ، والجملة بين الجمل ، والكلمة بين الكلمات ، والحرف بين الحروف ، لا نستطيع أن نتبين معالمه الخاصة به ، إلا إذا نظرنا بكل موضع وحده ، وقارنَّا بين وجوه العلم في المواضع ، ونحن ننظر بها موضعا بعد آخر .

ولقد جعل الله الكلمة ذات الموضع الواحد ، عَلَماً مرفوعا ، نعرفُ به الكلمة المتعدِّدَةَ المواضع ! ! وكذلك الأمر في الآية والسورة وإن كنا نعجز عن التذكّر إلا في حدودنا البشرية التي وضعنا الله فيها

وقد تضمنت فاتحة الكتاب هذا النوع من مفردات القرآن كما نجده بقوله تعالى :

١- **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

١ : الفاتحة

وقوله :

٢- **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

٣ : الفاتحة

١- وواضح أن « **الرحمن الرحيم** » في ارتباطها بالبسملة تعلمنا وجها خاصا

بها من وجوه العلم ، منه أن الله له الأسماء الحسنى ، وهو رب العالمين وحده لا شريك له .

٢- وواضح أن « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » في ارتباطها بموضعها من الآية الثالثة من سورة الفاتحة ، تبين لنا مما يمكننا أن نصل إليه من معانيها ، أن « الرحمن الرحيم» هو رب العالمين ، الذى لا يخرج – شئ أبدا – من ربوبيته وألوهيته ، في أى مكان ولا أى زمان . لذلك كان قوله تعالى :

(**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) هو الآية التالية لقوله تعالى « **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » كما هو في موضعه من الآية الثالثة .

أما قوله تعالى (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بالبسملة فقد تبعه قوله تعالى :

(**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)

وفي هذا من المقاصد ، ما هو جديد ، إذا قارنًا بينه ، وبين غيره من المقاصد هنا وهناك ، وفي القرآن كله .

رابعا : الكلمة غير المتعددة المواضع

من المفردات القرآنية الكلمة في الآية ، كما رأينا الآية في السورة .

والكلمة قد تكون بموضع قرآني واحد كقوله تعالى (**نسْتَعِينُ**) بالآية الخامسة من سورة الفاتحة ، وهى كلمة ذات موضع واحد بالقران كله .

وهذا كثير في القرآن مثل كلمة « **أُحْكِمَتْ** » وكلمة « **الصَّمَدُ** » .

خامسا : الكلمة المتعددة المواضع

من كلمات القرآن ، ما تجده بمواضع متعدِّدَةً ، كما سنرى الآن في كلمات الآية السابقة ، وهى قوله تعالى « **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** » .

وسنجد أن وجود الكلمات ، التي يكون كل منها بموضع قرآنيٍّ واحد ، مع الكلمات التي يكون كل منها بمواضع متعددة ، مما يبيِّن لنا حقيقة كل منهما من حقيقة غيره .

فنحن عندما نقرأ قوله تعالى (نَعْبُدُ) ونجدُه في مواضع متعددة في كثير من السور ، نعلم وحدة العبادة ، وخصائصها .

أما حين تقرأ قوله تعالى (نَسْتَعينُ) ونجدهُ بموضع واحد في القرآن كله ، فهذا مما يُبيِّن لنا أن الله تعالى ، إلهٌ واحد لا شريك له ، وإنما تكثُرُ حاجاتنا إلى طلب العون منه ، بحكم وقوعنا في حدودنا البشرية التي تتجدد بها حاجاتنا إلى الله وحده .

فالعون الإلهي عون واحد ، وإن كثرت حقائقه في نعم الله علينا وعلى العالمين .

وحتى يتبيَّن لنا أن أى **جُمْلَة قرآنية** سواء كانت آيةً أو أكثر من آية ، أو أقل من آية ، تحتوى على خصائص القرآن جميعا ، من حيث قيام كل حرف فما هو أكثر منه ، بعمل حاسم ، يفصل لنا بين الحق والباطل .

فلننظر في مواضع الكلمات بقوله تعالى (**الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمين**) بعد أن رأينا هذه الآية وهى تعمل في جملتها الواحدة .

١- لَهُ الْحَمْدُ في الأُولَى وَالآخرَةِ ولَهُ الحكْمُ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ

٧٠ : القصص

والعمل الذى تحققه لنا كلمة الحمد في موضعها هذا من سورة القَصص ، مبيِّن لنا أن الحمد لله في الأولى والآخرة بلا انقطاع لذلك ، لأن الله له الحكم بلا انقطاع أبدا

فلما تم بيان استحقاق الله للحمد في كل زمان ، جاء في الموضع التالى بيان استحقاق الله للحمد في كل مكان .

٢- وَلَهُ الْحَمْدُ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشيًّا وَحينَ تُظْهِرُونَ

١٨ : الروم

ثم تجد الموضع التالى ترتبط كلمة الحمد في سياقها منه بما يبيِّن لنا أن الله له كل شئ ، فعاقبة الأشياء جميعا ، أن تحمد الله تعالى وحده لا شريك له .

٣- لَهُ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ في الآخرةِ وَهُوَ الْحَكيمُ الْخَبِيرُ

١ : سبأ

وإذا كان الموضع السابق ، قد وصلنا ببيان أن الحركاتِ منظومة في عقد **الْحَمْدُ** ، ففي الموضع التالى يتَّفتح لنا أن حمد الله تعالى ، هو الذى يجمع الأشياء ، في معرفتنا ووجودنا ، مهما تتباعد مسافاتها .

٤- فَللهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

٣٦ : الجاثية

وفي الموضع التالى لكلمة الحمد ، نجدها تربطنا بالوحدة الجامعة لمُلكِ الله ، مهما تتنوَّعْ المشاهد بآيات الله الكونية ، في معرفتنا ووجودنا ولولا قُدْرَةُ الله على كل شىءٍ ما تمّ هذا الرَّبطُ الإلهيُّ المحكم ، بين الأشياء جميعا وفُرادى .

٥- لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

١ : التغابن

ثم ننظر في بعض مواضع كلمة (لِلَّهِ) في القرآن كله .

إن كلمة (لله) في موضعها من قوله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين) تصلُنا ببيان أنَّ اللّه ربُّ العالمين ، فهو سبحانه يحمدُهُ كلُّ شئ ، لأنه هو ربُّ كلِّ شيءٍ .

١- الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

١ : الفاتحة

فإذا انطلقنا مع كلمة (لِلَّهِ) إلى موضع جديد من مواضعها وجدنا معلومة جديدة ، فيها النهي عن اتخاذ أنداد لله رب العالمين .

٢- فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُون

٢٢ : البقرة

---

* ليزداد الأمر وضوحا انظر كذلك كتاب « أسرار التكرار في القرآن » لتاج القراء الكرمانى .

والكتاب من منشورات دار الاعتصام بالقاهرة . وقد حققه وقدم له الأستاذ عبد القادر أحمد عطا .

وفي الصفحة ٢١ من هذا الكتاب تجد قول الكرماني ما معناه إن قوله تعالى بسورة الفاتحة (عليهم) في موضعين بهذه الآية « **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » لا تكرار فيه لأن المراد بالأول الارتباط بمعنى الإنعام ، أما المراد بالثاني فهو الارتباط بمعنى الغضب .

والمعلومة الجديدة في الموضع الجديد لكلمة (للَّهِ) نجدها مرتبطة بفريضة الحــج .

٣- وَللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً

٩٧ : آل عمران

والمعلومةُ الجديدةُ القادمةُ نجدها مرتبطة ببيان أنَّ الإسلام هو أحسن دين !

٤- وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ .

١٢٥ : النساء

والمعلومةُ الجديدةُ القادمةُ ، عن أسماء الله الحسنى ، والأمر بأن ندعوَ الله بها .

٥- وَللَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا

١٨٠ : الأعراف

وكذلكَ الأمر في كلمة رب

وهذا الموضع المقبل من مواضعها ، يختص ببيان أن الله هو القادر وحده على أن يُذهب الأحزان ويشرح الصدور .

١- قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي

٢٥ : طه

والموضع المقبل ، يختصُّ ببيان أن الله هو القادر وحده على المغفرة في تمامها .

٢- وَقُل رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

١١٨ : المؤمنون

والموضع المقبل ، يختصُّ ببيان أن الله هو القادر وحده على أن يرزقنا الأبناء الصالحين .

٣- رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ

١٠٠ : الصافّات

والجديد في الموضع المقبل ، هو طلب الملك من الله تعالى

٤- **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لى وَهَبْ لى مُلْكًا لاَ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى**

٣٥ : ص

والجديد في الموضع المقبل هو الدعاء على الكافرين أن يهلكهم الله .

٥- **وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**

٢٦ : نوح

وكذلك الأمر في كلمة (الْعَالَمينَ)

وتبدأ مع موضع ترتبط به هذه الكلمة ببيان فَضْل الله .

١- **وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**

٢٥١ : البقرة

وهنا نصل إلى معلومة جديدة ، في هذا الموضع الجديد ، حيث نعلم أن البيت الحرام أول بيت وضع للناس .

٢- **إنَّ أَوَلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**

٩٦ : آل عمران

والمعلومة الجديدةُ هنا عن هدى الله تعالى ، وعن الأمر بالإسلام لرب العالمين .

٣- **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**

٧١ : الأنعام

والمعلومة الجديدة القادمة عن الفرقان وأن الله نَزَّلَهُ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لينذر العالمين .

٤- **تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً .**

١ : الفرقان

والمعلومة الجديدة القادمة عن يوم القيامة .

٥- **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**

٦ : المطففين

لقد رأينا كيف يَسْطَعُ قوله تعالى (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) باجتماع كلماته الأربع ، في ستة مواضع قرآنية ، فنراه ينفرد في كل موضع منها بمعلومة جديدة لا تتكرر بعد ذلك في أى موضع منها .

وكذلك الأمر في كل كلمةٍ من الكلماتِ الأربع التي يتكونُ منها قوله تعالى (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) حيثُ يسْطع مصباحُ كل كلمة منها فيظهر نورُهُ على نور الكلمات التي تحيط به في كل موضع ، وإذا نحن في زيادة من النور ، وجديد من العلم ، مع كل كثير أو يسير من القرآن .

سادساً : الحروف غير المتعددة المواضع

من مفرداتِ القرآنِ ، الحروفُ .

والحروفُ منها ما هو بموضعٍ قرآنيٌّ واحد ، وإن تعدَّدت مواضع الآية ، التي نجدُهُ بها .

وذلك مثل « باء الجر » بالبسملة ، وقد اتصلت بآية البسملة رَسْماً ، واختصَّت بذلك في القرآن كله ، معنىً ، ليتبينَّ لنا ما فيها منَ الإفراد والتَّخْصيص ، في الوضع والعمل معا ، وإن كانت « الْبَسْمَلَةُ » **متعدِّدَةَ المواضع** بجملتها كما نجدها هى الآية الأولى بالفاتحة ، ثم نجدها بمفتتح كل سورة ما عدا سورة التوبة ، وكما نجدها بسورة النمل !

ومن الحروف التي نجد كلا منها بموضع واحد (**ص**) بأول سورة **ص** ثم (**ق**) بأول سورة (**ق**) ثم (**ن**) بأول سورة القلم .

وسنرى عند حديثنا عن فواتح السور ، ما يختص به كل حرف من هذه الحروف من وجوه العلم في حدود قدرتنا على الفهم .

وقد اختص وتفرَّدَ كلٌّ منها بوجه خاص به وبموضعه من وجوه العلم ، في القرآن كله .

سابعا : الحروف المتعددة المواضع

الحروف منها ما تتعدد مواضعه كما نجد حرف الواو بسورة الفاتحة ، وله موضعان يتفرد فيهما بارتباط الواو بجديد من العلم ، ناتج من نظَرنا في سياقه

من كل آية من الآيتين الخامسة والسابعة بالفاتحة .

فهناك قوله تعالى :

١- **وَ إِيَاكَ نستعينُ**

٥ : الفاتحة

وهناك قوله تعالى :

٢- **وَ لاَ الضَّالِّين**

٧ : الفاتحة

وواضح أن الموضع الأوَّلَ ، يربطنا بطلب العون من الله تعالى .

وواضح أن الموضع الآخر ، يربطنا بالبراءة من الضالين .

فلو أننا انطلقنا مع حرف الواو في القرآن كله ، لوجدناه مصباحا واحدا ، ينطلق بنا نوره ، ليربطنا في كل موضع جديد ، بمقصد علمي جديد .

ومن أمثال ذلك قوله تعالى :

١- **وَكَذَّبَ بهِ قَوْمُكَ**

٢- **وَهُوَ الْحَقُّ**

٦٦ : الأنعام

٣- **وَتَمَّتْ كَلمةُ رَبِّكَ**

١١٥ : الأنعام

٤- **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً**

٥- **وَهُمْ رُقُودٌ**

١٨ : الكهف

٦- **وَنُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ**

٧- **وَنجْعَلَهُمْ أئمَّةً**

٨- وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِينَ

٥ : القصص

ومما نلحظه عدا ما سبق بيانه ، في أن لكل حرف بكل موضع جديد ، عملا جديداً ، أننا حين ينصَبُّ بحثنا على حرف مثلِ حرف الواو ، ويرتبط في عـدد من مواضعه بكلمة ذات مواضع متعددة مثل « نَجْعَلَهُمْ » في قوله تعالى « وَنَجْعَلَهُمْ أَئمةً » ، « وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ » فإن البحث في ما يخص « نَجْعَلَهُمْ » من حيث عملها بمواضعها يبدأ عند حاجتنا إليه .

ولو بحثنا عددَ مواضعِ الفعل المضارع « نَجْعَلَهُمْ » في القرآن كله ، لوجدناها ثلاثة مواضع **أولها** في قوله تعالى :

١- وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئمةً

وثانيها : في قوله تعالى :

٢- وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِينَ

٥ : القصص

وثالثها : في قوله تعالى :

٣- أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

٢١ : الجاثية

وهكذا يتبيَّن لنا أن التَّكْرَارَ ، لا يكون بكثرة مواضع الكلمة ، وإنما يكون إذا زاد وجود المفردات ، عن وجود العمل الجديد ، الذى وجدت المفردة من أجله بموضع جديد ! ! وهذا لا مكان له في القرآن ، لأن التكرار يكون في كلام البشر ، لعجزهم عن تخصيص الهدف المتفرد لكل مفـردة من مفردات كلامهم ، مع زيادة كل موضع من مواضعها بين كلماتهم جميعا .

أما المفردات القرآنية فهي ثابتة النصوص ، مرتبطة كل زيادة في مواضعها

---

* قوله تعالى « **ونجعلهم** » جملة متعددة المواضع .

بزيادة مخصوصة من المقاصد ، متفردة ، جديدة أبداً .

ومفردات القرآن كما رأينا ، تعود جميعا ، من حيث نصوصها ، إلى الحروف ثم الكلمات ، ثم الجمل .

ومفردات القرآن ، من حيث مواضعها تعود جميعا إلى ما هو بموضع واحد في القرآن كله ، ثم إلى ما هو بمواضع متعددة بين الآيات والسور . فإذا نظرنا في نصوص المفردات ومواضعها معا عدنا إلى الأنواع السبعة السابقة التي تتضمن كل مفردات القرآن .

وهذا هو موجزها بعد أن توسعنا – معا – من قبل في بيانها .

١- الآية في الموضع الواحد .
٢- الآية في المواضع المتعددة .
٣- الجُملة في المواضع المتعددة .
٤- الكلمةُ في الموضع الواحد .
٥- الكلمةُ في المواضع المتعددة .
٦- الحرف في الموضع الواحد .
٧- الحرف في المواضع المتعددة .

هذا هو الواقع العملى الذى نستخلص منه المفردات القرآنيةَ السبع كما وجدناها في فاتحة الكتاب ، وفي القرآن كله !

٢- من آفاق الحكمة في مفردات القرآن :

ولكنْ لماذا استخلصنا هذه المفردات كلها من سورة الفاتحة بصفة خاصة ! !

ولماذا كانت **الآيةُ** هي واسطة العقْدِ ، التي رأيناها تربِطُ بين مفرداتِ سورة الفاتحة ، وبينَ المفرداتِ في سورِ القرآن جميعا ! !

يقول الله تعالى :

الَرَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ

١ : هود

فإذا أخذنا نبحث عن الحقيقة التي تم من أجلها اختصاص الآيات بأنها مناط الإحكام والتفصيل في القرآن كله ، مع أن القرآن يتكون من الحروف ، ومن الكلمات ومن الآيات والسور ، علمنا أن اختصاص الآيات بذلك ، إنما هو لحكمة إلهية كبرى .

وقد يتبين لنا الكثير من وجوه هذه الحكمة إذا تأملنا – معا – هذه الأمور التي تظهر لنا ونحن ننطلق مع الخط البياني لكلمة (**آياته**)

أولاً : تدلنا كلمة **آياته** في مواضع قرآنية كثيرة ، على أنها تختص بآيات الله الكونية كما تختص بآياته القرآنية .

ومن ذلك قوله تعالى :

١- **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ**

٢٩ : الشورى

٢- **وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ**

٣٢ : الشورى

ثانيا : تدلُّنا كلمة **آيات** في مواضع قرآنية أخرى على أن الرؤية الإنسانية ، كما وضعها الله في حدودها هى مناط ارتباطنا بآيات الله الكونية ، وآياته القرآنية .
ومن ذلك قوله تعالى :

١- **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**

٧٣ : البقرة

والأمر نفسه يصدق على عملية التَّذَكُّر في عقول الناس .

ومن ذلك قوله تعالى :

وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

٢٢١ : البقرة

ولْنَعُدْ إلى ما سبق بيانه – من قبل – في صفحاتنا هذه ، من أن إحْكَامَ القرآن وتفصيلَهُ ، يقومُ على علم الله تعالى بجُمْلَةِ الكلام الذى أنزله على رسولنا

صلى الله عليه وسلم ، ثم يقوم كذلك ، على ربْط كل مفردة من مفردات هذا الكلام ، بموضع ارتباطها بالقرآن كله ، في جملته الواحدة . *

وهنا نتساءل – معا – ما المقدارُ الذى يستطيع العقْلُ البشرىُّ أن يتذَكَّرَهُ من القرآن !

وما المقدارُ الذى تستطيع الرؤيةُ البشرية أن تُلمَّ به من القرآن !

إن العقل البشرى يذكُرُ الشئَ بالشئْ ، فهو يَذْكُرُ القمر إذا تذكَّر نورَهُ ، ويذكر كلمةَ الْقَمَرِ إذا تذكَّر حرْفاً أساسيا من حروفها مثلَ القاف أو الميم أو الراء .

وكذلك الرؤية البشرية ، تقع على جزء من المرئيَّاتِ ثم تَرْبِطُ بينه وبين مساحات أوسع منه ، فيما تستطيع أبصارنا أن تراه .

لذلك جاءت كلمة الْمَثَاني وكلمةُ مَثَاني لتدلَّنا كلٌّ منهما على حدود رؤيتنا ، وحدود تذكُّرنا لما نستطيع أن نراه أو نتذكره من القرآن .

وكلمة الْمَثَاني نجدها بموضعٍ قرآنيٍّ واحد هو قولُه تعالى :

١– وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

٨٧ : الحجر

ويبيِّن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن السَّبْع المثاني هى الفاتحة حيث يقول : الفاتحةُ هى السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذى أوتيتهُ **

فهل نستطيع أن نرى الفاتحة كلَّها في جملتها الواحدة بلمحة واحدة من لمحات الرؤية !

وهل نستطيع أن نتذكَّر الفاتحة كلها في جملتها الواحدة ، بومضة واحدة من ومضات التّذَكُّر !

الحقيقة أن حدود رؤيتنا – نحن البشرَ – أو حدودَ تَذكُّرنا لا تستطيع ذلك ! فلماذا جاءت كلمة المثاني بموضعها الوحيد في القرآن كله ، لتدلنا على

---

* في الفصل القادم ، سنتوسع معا في تعريف هذا العلم ، وبيان آفاق العمل به .

** روى هذا الحديث البخاري وأحمد ومالك وأبو داود والنسائي وغيرهم .

أن السورة مفردة من مفردات القرآن مع أننا لا نستطيع أن نرى الارتباط الذى يجمع بين أى سورة ، وبين سور القرآن جميعا ، فضلا عن عجزنا أن نتذكَّرها بتمامها في ومضة من ومضات الفكر ، لنتذكَّر معها سور القرآن في جملتها الواحدة ! ! ؟

الجوابُ على هذا السؤال نجده في عبارة واحدة هي : « **أنَّنا بحاجةٍ إلى معرفة حدود قدرتنا البشرية ، على الرؤية وعلى التذكُّر** » .

والفاتحة مُفْرَدَةٌ من مفردات القرآن ، ترتبط بسوره ارتباطا محكما لا ينبغي معه أن يتخلل هذه السور ما ليس منها .

والفاتحة كذلك جملة من جُمَل القرآن ، والقرآن كله جملة واحدة .

ولكننا لا نستطيع أن نرى هذا الارتباط الذى ترتبط به كل السوَر القرآنية ، ونحن ننظر إلى هذه السور أو نتذكر كُلاًّ منها بتمامها !

فهذه – إذن – هى حدودنا البشرية التي تبيِّنُ لنا ضرورةَ إيماننا بالغيب *

ثم تأتي كلمة **مَثَاني** وهي في قوله تعالى :

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي ٢٣ : الزمر

لتبيِّن لنا أن الارتباط المعجز بكل إحكامه يكون بين كل آية واحدة من آيات القرآن ، وبين آياته جميعاً وهذا الارتباط يشمل الآيات بتمامها ، كما يشمل مفردات كل آية ، سواء كانت هذه المفردات هى الجملة من الكلمات ، في إطار كل آية ، أو كانت كلمةً من كلمات الآية ، أو حرفاً من حروفها.

وتزداد الكثرة من نصوص هذه المفردات التي تتكَّونُ منها الآيات ، اذا امتد بنا الفكر إلى ما تتعدَّدُ به مواضعها أو تتفرَّدُ في آيات القرآن جميعا ، وكل مفردة منها قد ارتبطت كما رأينا من قبل . . بجديد من المعلومات ، مع كل جديد من المواضع . فلذلك جاءت كلمة **مثاني** مسبوقة بكلمة (مُتَشَابهاً) .

---

* ومع ذلك فهناك أنواع من الارتباط في آيات الله الكونية تقوم على النظام كارتباط الأرض بالشمس ، وكذلك جعل الله الارتباط بين سور القرآن .

وكلمة الحديث تشمل الحرْفَ ، والكلمةَ ، والجُمْلَةَ ، والآيَةَ ، والسورةَ !

ولذلك كله جاء في أول آية من سورة هود ، ربْطُ الآيات بصفة خاصة ، بالكلام عن « **إِحْكَامِ الْقُرْآنِ وَتَفْصِيلِه** » .

ذلك أننا قد نتذكَّرُ حرفا أو كلمة أو جملة ، في إطار آية بتمامها ، فنستطيع أن نتذكَّرَ الآيةَ كُلها وربما تذكَّرنا ما قبلها وما بعدها من الآيات .

وكذلك الأمـر في الرؤيـة البشرية حيث جعَلَنا الله تعالى نـرى في حدود مواضعَ ، يرتبط ما فيها من المفردات بسياقه من الآيات الكونية والقرآنية ، مع ضرورة التنبُّه دائما إلى أنَّ القرآن هو حُكْمُ الله على الأشياء المادية ، وليس داخلا في حدودها وأحوالها .

فنحن البشر لا نستطيع أن نرى أو نتذكر المفردات التي تفوق حدودنا البشرية ، حيث تجتمع الكثْرَةُ من المفردات القرآنية ، في سورة بتمامها ، كما سبق بيان ذلك من قبل .

ونحـن البشر لا نستطيع أن ننظر حتـى في مفردات يسيرة ، كالحروف والكلمات والجمل القصيرة ، أو نتذكّرها جملة واحدة ، إذا كانت في مواضع كثيرة .

ويتَّضح لنا ذلك حين نجدُ ذكْرَ التشَابُهِ مع كلمة **مَثَاني** يدُلُّ على كثرة المفردات في داخل السُّوَرِ ، كالحروف والكلمات ثم « الجُمَلِ » التي تكون أقلَّ من آية بتمامها ، ثم « الآيات » ، إذ تعمل كلُّ مفردة منها أعمالا كثيرة ، في مواضعها القرآنية الكثيرة ، في السور الكثيرة .

ومع ذلك كله ، فكل مفردة منها ، جديدة العمل ، في كلِّ جديدٍ ، نجدها به ، من مواضعها في القرآن كله ! !

وبذلك فالتَّشَابُهُ يكون في معرفتنا البشرية ، حين نعجز عن رؤية الكثْرة من المفردات ، في الكثرة من المواضع ، ونحن ننظر اليها جميعها ، نظـرةً واحـدة .

ويقول الرسول الأعظم ، صلىّ الله عليه وسلم :

« إن هذا القرآنَ لم يَنْزِلْ ليكذِّبَ بعضُهُ بعْضا فما عرَفْتُم منه فاعملوابه ، وما تَشَابَهَ فآمنوا به » *

هذا هو الرَّبْطُ الإلهيُّ المحكم بين المفردات القرآنية وهي في مواضعها القرآنية ، جملةً وتفصيلاً ، وبيْنَ معرفتنا ووجودنا مهما تتقدَّمْ بالناس جميعا وفرادى ، فترات التاريخ من الدنيا إلى الآخرة .

وهذا الربط الإلهى المعجز ، يبين لنا بالواقع العملى في إحكام القرآن وتفصيله ، حدودَ قدرتنا البشرية التي تعجز عن رؤية المفردات الكبيرة كالسورة بين السور الكثيرة ، أو تَذَكُّرها جملةً واحدةً ، كما يبيِّن عجزنا كذلك عن رؤية المفردات الصغيرة أو تذكُّرها إذا كانت في مواضعَ كثيرة ، كما سبق ذلك من قبل .

لذلك فقد بيَّن الله تعالى أن رؤيتنا وتذكُّرنا لآياته الكونية ، يقوم على هذه الحدود ذاتها ، التي وضع الله فيها عباده جميعاً وفرادى .

وتَبيَّنُ لنا هذه الحقيقة ، كلمةٌ ذاتُ موضعٍ واحد في القران كله .

هذه الكلمة هي كلمة «كَرَّتَيْنِ» كما نجدها بقوله تعالى :

٦- **ثمّ ارْجعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**
٤ : الملك

إن كلمة كَرَّتَيْنِ تعلِّمنا بموضعها القرآني الواحد ، أن رؤيتنا البشرية للمسيرة الكونية كما نظَمها الله في كرَّةٍ واحدةٍ ، رؤيةٌ لا قُدْرَةَ لها على الإحاطة بالمرائى جميعاً ، والمشاهد كلها . لذلك قال الله تعالى : (**ثُمَّ ارْجعِ الْبَصَرَ كَرَّتينِ**) .

أى كرة واحدة لأى جزء من أجزاء وجودنا الكوني ، فهنا لا تستَوْعِبُ هذه النظرة البشريةُ كلَّ شيْءٍ .

---

* جاء هذا الحديث الخاص بالتشابه بكتاب الإتقان للسيوطي ص ٣ جـ ٢ ، وقد بين السيوطي أن الذي أخرجه هو ابن مردويه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا وسَّعْنا دائرة رؤيتنا في كَرَّة أخرى تترك التفصيل والإفراد ، وتحاولُ رؤية الشمول والإجمال ، تبيَّن لنا أن بَصَرَنا يَرْتَدُّ إلينا وهو حَسِيرٌ .

والنتيجة أن لمعرفتنا – نحن البشر – ولوجودنا ، حدوداً لن نتعدَّاها .

فلا مَفَرَّ لنا – إذن – من **الإيمان** بالله تعالى ، وبكل ما جاء به دينُ الله ، ولا بُدَّ من **الإحسان** ، الذي يحقِّقُ لنا أداءَ ما علينا من العبادة الخالصة ، **لله** وحده لا شريك له .

ونحن **نجد** هذا كله في مسار قرآني ، يبين لنا أن ارتباط رؤيتنا وتذكرنا بآيات **الله** الكونية ، يتم ونحن البشر داخلون في حدود هذه الآيات المادية التي وضعنا **الله في** حدودنا بينها .

أما آيات **الله** القرآنية ، **فهي** المثانى التي يرتبط إفرادها بإجمالها إرتباطا **مهيمنا** على **معرفتنا نحن** البشر ووجودنا .

ولننظر في هذا المسار الذى تنطلق به كلمة (كَرَّة) في القرآن كله .

١– **وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**

١٦٧ : البقرة

وهذه هي نهايةُ الحوار في الآخرة ، بيْن الذين اتَّبَعُوا الضالين ، وبين الضالين أنفسهم ، حيث يتبرَّأ كلُّ فريقٍ منهما ، من الفريق الآخر !

٢– **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**

٦ : الإسراء

وهذا هو شأنُ الصِّراع ، بين الحضارات الإنسانية في الدنيا ، وظاهرٌ أنه لا قيمةَ **لأى** منها في ذاته ، ما لمْ يكُنْ خاضعا لدين الله ، حتى يكون له منه حسابٌ شاملٌ ، **يحقِّق** الخيْرَ والعدْلَ ، للناس جميعا وفرادى .

٣– **فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**

١٠٢ : الشعراء

وهذه هي نهاية ، الذين فاتهم موكب الإيمان ، بعد أن انتهت الدنيا ، وبدأت الآخرة .

٤- لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

٥٨ : الزمر

إنه صوتُ الفرد من الناس – حينذاك – بين أصوات الذين لم يؤمنوا .

ولكن ربْط الإحسان بكلام الفرْد ، مُتَّفِقٌ مع أن الإحسانَ فرعٌ من فروع الإيمان ، أما الإيمان فهو الأصْلُ الشامل ، الذى يشْمل الإحسانَ وغيرَه من أعمال المؤمنين .

إن الإيمان اعتقادٌ راسخ ، بينما الإحسان تطبيقٌ شامل ، يسع فروع العمل القائمة على الإيمان ، بكل آفاقها .

فهكذا رَبَطَ الله بين الإيمان وبين الاعتقاد القويم الواحد للجموع البشرية ، وَرَبَطَ بين الإحسان ، وبين صوت الفرد الواحد منهم ، وإن دل ذلك كله ، على أن الناس جميعا وفرادى ، محتاجون إلى الإيمان في العقيدة الجامعة بينهم جميعا ، كما أنهم محتاجون إلى الانطلاق من الإيمان إلى إحسان كل منهم في عمله .

٥- قَالُوا تِلْكَ إِذن كَرَّةٌ خاسِرَةٌ

١٢ : النازعات

هذا هو القوْلُ الفصْلُ ، في الذين انطلقت بهم المسيرة من الدنيا إلى الآخرة ، فلم يُؤمنوا ولم يُحْسنُوا .

والكرَّة – هنا – تشمل أزمنة التاريخ الإنساني كله ، فوق الأرض وتحت السماء ، حتى يَرِثَ الله الأرض وَمَنْ عليها .

ولأهمية النهاية المترتبة على ذلك ، جعل الله المسار الخاصَّ بكلمة كَرَّة في القرآن كله ، مَسَاراً يعود بنا من النهاية إلى البداية ، في هذا البيان الذى يحرِّكُ الفكر ، ونحن لَمَّا نَزَلْ في الدنيا ، لتفْهَمَ عقُولُنا حقيقة الآخرة !

وواضح أمامنا أن كلمة كَرَّة دالةٌ على مسيرة واحدة تحتوى على جملة التغيرُّات ، وتردُّها جميعا إلى أصل واحد لا اختلاف فيه ، فهى الكلمة التي تختص بعقد الصِّلات بين الإفرَادِ والإِجْمَالِ ، في الكون والحياة كما فطرهما الله تعالى ،

وَوَصَلَ حياتنا الإنسانية بهما .

أما القرآن فهو المثاني التي ربط الله إفرادها بإجمالها ، ربطا يضَعُنا في ما وَضَعَنَا الله به من الغيب والشهادة ، ليدلَّنا ذلك كلُّه على أن القرآن هو كلام الله ، كما أن الله هُوَ رَبُّ الْعَالَمينَ .

٣- من النتائج العملية لمفردات القرآن

١- إن مفردات القرآن بأنواعها السبعة السابقة ، أنهارٌ من النور تَصُبُّ في مَصَبٍّ واحدٍ ، هو القرآن كلُّه في جملته الواحدة .

وحسْبُنا أن نعلم أن أنهار النور ، لا ينْفَصلُ نور إفْرَادِها ، عن نور إجْمَالها ، مهما نجدْها متعدِّدَةَ المواضع .

إن حاجتنا إلى أى مفردة من هذه المفردات القرآنية ، هي التي تربطنا بمواضع نورها فنحس أن كل مفردة منها مصباحٌ واحد في ذاته ، مهما ينطلقْ بنا نوره إلى كل موضع من مواضعه ، فإذا هو يصعد بنا إلى كل أفق جديد ، في سموات لا انقطاع لمشاهدها وأنوارها ، فنزداد علما مع كل زيادة في الصعود ، ولكلٍّ مفردة مسارها ، والمسارات كلها نور على نور ، كما هو القرآن في جملته الواحدة !

وفي آيات الله الكونية ، جعل الله مفردات كل شئ ، من حيث حركةُ الوصْلِ والْفَصْلِ بين الأشياء جميعا وفرادى ، سَبْعَ مُفْرَداتٍ .

فالسموات سبْعُ سموات ، والسلم الموسيقي سبعُ مفردات .

وطبقات الأرض سبعُ طبقات هي مفرداتها التي تربط بين ما يشبه الحرف والكلمة والجملة في تكوينها .

وألوان الطيف سبعةُ ألوان بمثابة المفردات السبع ، التي تصل إفرادَ الطيف بإجماله . وفي السُّنَّةِ المطَّهَرةِ يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مُتَّفَقٍ عليه :

« أمرت أن أسجد على سبْعَةِ أعْظُم ، على الجبهة (وأشار بيده إلى أنْفهِ)

والْيَدَيْنِ ، والرُّكْبَتَيْنِ ، وأطْرافِ الْقَدَمَيْنِ » .

فلننظر كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصْلَ بين الجبهة والأنف على أساس أن الوجه يجمع بينهما . *

ثم أخذ يبيِّن لنا الأعْظُمَ السِّتَّ الأخرى وهي اليدان ثم الركبتان ثم أطراف القدمين !

ونحن نعلم أن جسم الإنسان متصلةٌ كلُّ مفردة من مفرداته بجملته الواحدة .

ولكن الله علّم رسوله صلى الله عليه وسلم ، كيف يثير فينا هذا التأمل الرائع !

٢- وإننا في آيات الله الكونية وبينها وجودنا البشرى نفسه ، لنبحث في ظواهر الأشياء لنعلم خصائصها ، ثم نحتاج إلى البحث في بواطنها ليجتمع لنا من علمنا بظواهرها وبواطنها علمُنا بمقاديرها .

فلو أننا نظرنا إلى بئرين أحدهما من ماء والآخر من زيت ، فإننا نعلم خواص كل منهما بالبحث في سطحه الخارجي .

حتى إذا كان علينا أن نعرف مقدار كل من الماء والزيت ، بحثنا في أعماق كل منهما مع اتصال أبعاده جميعا .

ولنعد إلى سورة الفاتحة كما هي في بداية هذا الفصل من صفحاتنا هذه ، لننظر في أى مفردة من مفردات هذه السورة ، وسنجد أننا – أولا –

نحتاج إلى العلم بخصائص هذه المفردات من حيث نصوصها ومعانيها ، وهذا يتحقّق بالقراءة الدقيقة المتصلة كما نقرأ قوله تعالى :

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ : الفاتحة

---

* الجبهة والأنف اعتبرهما الرسول صلى الله عليه وسلم أمرا واحدا لأن ارتباطهما كالارتباط بالنظام بين السورة والسور في القرآن ، وبين الشمس والقمر في آيات الله الكونية .

أما كل عضو من الأعضاء الستة فله ارتباط مباشر بين كل عضو وموضعه المتفرد بالجسم وهذا من نوع الارتباط بين كل مفردة بموضع واحد في القرآن .

والقراءة الأفقية هي القراءة التي تتحقق حين نتلو القرآن أو مفردة من مفرداته تلاوة متصلة بما قبلها وما بعدها .

ثم نحتاج – ثانيا – إلى العلم بعدد مواضع كل مفردة في القرآن كله ، وهذا يتحقق بالقراءة الرأسية كما ننظر في عدد مواضع كلمة إياك ، فنجدها بموضعين اثنين بالقرآن كله ، هما هذان الموضعان الظاهران بالآية الخامسة من فاتحة الكتاب .

والعلم بعدد المواضع يردُّنا في كل موضع من القراءة الرأسية حيث البحث في عدد المواضع ، إلى البحث في وجوه العلم التي نحصل عليها من القراءة الأفقية .

فلننظر في هذا التوحيد المعجز للهداية الإلهية ، حيث جعل الله القرآن مهيمنا على معرفتنا ووجودنا ، ونحن ننظر في آفاق الكون المادى ، وفي أنفسنا ، نظرا ظاهرا أو باطنا .

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً **٢٠ : لقمان**

ويا له من وجه بين وجوه الإعجاز القرآني ، يوضِّح لنا لمحةً من ملامح علم الإحكام والتفصيل ، وحدا من الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر .

لهذا كله قال الله تعالى ، عن سورة الفاتحة (سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي) ، حتى نستخلص هذا القانون الذي يربط كل سورة بالسور جميعاً ، فهي كلها ذات حقيقة واحدة ، مع أننا حين نحتاج إلى النظر في كل سورة بذاتها ، فإننا نجدها تامة في **إفْرَادها** ، كما هي تامة في **إجْمَالها** الذي يربطها بالسور جميعا .

فالمثاني – إذن – صفة تشمل كل ارتباط بين الإفراد والإجمال * .

٣- ولقد سَبَقَ أن قلنا معا من قبل إن الارتباط المعجز بين الإفراد والإجمال في آيات الله الكونية ، يجمع بين الوحدة والتنوع ، وبين الآحاد والكثرة ، ليظهر

---

* لا ينبغي أن يفوتنا هنا أن السورة محتوية على الآيات والآيات محتوية على الحروف والكلمات والجمل وتعدد المواضع أو تفردها بأي حرف أو كلمة أو جملة في القرآن كله يحقق معنى كلمة المثاني بأنه هو الصلة المتفردة دائما بين كل إفراد وإجمال في القرآن ، إذ عدد الارتباطات بين كل مفردة وبين القرآن كله ، هو عدد المقاصد القرآنية ، وكل منها له تفرُّده بين المقاصد جميعا .

لنا الربط الإلهي المعجز بين كل شيء واحد من أشياء الحياة الدنيا ، وبين مجتمعه الكوني كله في جملته الواحدة .

ومن النتائج العامة لهذا الربط الإلهي المعجز ، هذا الاستقطاب لأحوال المعرفة الإنسانية جميعا ، وربطها بموضوعاتها في آيات الله الكونية إجمالا وتفصيلا .

ومن نتائج هذا الربط الإلهي المعجز بين المعرفة الإنسانية وبين آيات الله الكونية ، تحقيقُ العدالة بين ما يبْذُل كلٌّ واحد من آحاد الناس ، في طلب المعرفة ، وبين النتيجة المترتِّبة على ذلك ، فيكون القدْر من العطاء متفقاً مع القدر المناسب له من بذل الجهد .

٤- ومن نتائج هذا الربط الإلهي المعجز بين وجودنا ومعرفتنا نحن البشر ، في إفرادنا وإجمالنا ، وبين آيات الله الكونية في إفرادها وإجمالها ، أن يجتمع الناس على المعرفة إذا احتاجوا إلى ذلك ، فيتفقوا على الحقيقة ولا يختلفوا فيها ، في الوقت نفسه الذي يمكن لآحادهم أن ينظر كل منهم وحده ، ويبحث عن الحقيقة كل منهم وحده ، فإذا الغيب والشهادة ، أساسان راسخان ، لتلقي العلم ، والتواصل بين الناس جميعا وفرادى .

فقد يرصُدُ أحدُ الراصدين نجما من النجوم أو كوكبا من الكواكب ، ولم يسبقْهُ أحدٌ من الناس إلى ذلك من قبل !

فهنا يكون الناس في العالم كله ، قد غاب عنهم هذا العلم ، حتى اكتشفَهُ

هكذا جعل الله الغيبَ والشهادَةَ أساسين راسخيْن للمعرفة والوجود الإنسانيين ، ومسافتيْن للعمل والسعي ، والتلاقي بين الناس جميعا وأشتاتا .

ولقد سبق في كلامنا – معا – من قبل ، أن آيات الله القرآنيةَ قائمةٌ على هذا النِّظام المُحْكم ، الذي أقام الله عليه آياته الكونية .

فإذا أخذْنا ننْظُرُ في بعض وجوه الحكمة الإلهية في ذلك ، تَبيَّن لنا أن الله

* سنرى في الفصل التالي بإذن الله كيف أن البشر لا يستطيعون أن يعرفوا الهدف الحقيقي لموضع أي كلمة بشرية بين كلام البشر كله ، لعجزهم عن العلم بجملة كلامهم ، وعجزهم عن العلم بجملة المواضع الخاصة بأي كلمة بذاتها وبذلك يفقدون القدرة على المقارنة الدقيقة بين الصواب والخطأ في كلامهم .. أما القرآن فله وحدة ثابتة في جملته ، وفيه تخصيص لهدف كل مفردة بكل موضع نجدها به .

قد أقام الحجَّةَ على الإلحاد والملحدين ، وعلى سائر الكافرين ، بهذا التَّوْحيدِ بين مصدر الهداية ، في كلامه ، ومصدرِ الهداية في خلْقه ، كما يظهر فيما نُعجز عن إحصائه من نتائج علم الإحكام والتفصيل .

أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٥٤ : الأعراف

وقد جعل الله القرآن سُوَراً في سُوَرٍ ، وآياتٍ في آياتٍ ، وجملاً في جُملٍ ، وكلماتٍ في كلماتٍ ، وحروفاً في حروفٍ !

ذلك أن كل سورة في تمامها ، فهي قائمة على الآيات والكلمات والحروف .

فإذا أخذنا ننظر في حقيقة الحروف في كلامنا البشرى وجدناها أنواعا ، ووجدنا كل نوع منها قد خلق الله له موضعا خاصّا به في أفواه المتكلمين وآذان السامعين ، ثم في موضوعاته في أنفسنا وفي الكون المادي بإجماله وإفراده .

والله تعالى ، لم يحرم الإنسان ، من أدوات المعرفة ، التي خلقه خلْقاً متفقا معها ، كالحروف والكلمات والجمل ، ولكنه شاء أن يَضَع الإنسان في حدود من حيث العلم والقدرة ، حتى يعرف نعمةَ الله عليه ، ويدركَ أنه لا ملجأ لَه من الله إلا إليه ، ويكشفَ الحدودَ الفاصلةَ بين كلام الله وكلام البشر ، فلا يتطاول الإنسان ، ويحاول أن يبتكر الشرائع بكلامه البشرى العاجز عن الإحاطة بكل شئ ، وبيان كل حقيقة .

٥- إن كلام الله ، على ما جعل الله في القرآن من الإيجاز ، كثير في معانيه كثرة معجزة ، مُتَحرِّكٌ في ثباته ، تحرُّكا معجزا ، من شأنه أن يحرِّك كوامن النفس الإنسانية ، تحريكا دائبا ، كما يحرك الله ماء البحار فلا يفسد ولا يأسن ، وذلك كله وكلمات الله ثابتةٌ ، وإن حقق الله بها هذه الحركة العظمى كلها . وكذلك جعل الله آياته الكونية ظاهرة الثبات ، ولكنها باطنة الحركة .

فالقرآن هو دليل المسيرة ، وقائدها ، كما شاء الله ذلك ، وحققه في الواقع العملى الذى لا ريب فيه .

وفي الكون المادى جعل الله الجزئ الذري ، في الذرة أو في الخلية ، كالحرف في الكلام ثم جعل الذرة أو الخلية في جملتها الواحدة ، كالكلمة بين الكلمات

على تعدُّد أنواعها .

ثم جعل الله الذرة في مجتمعات متنوعة ، فإذا الماء في جملته الواحدة ، قائم على ارتباط الأوكسجين بالأيدروجين . ثم جعل الله المجتمعاتِ التي تتألَّف منها الأشياء جميعا ، **مجالا لتحقيق الغيب والشهادة** في وجودنا – نحن البشر – وفي معرفتنا كما هما متحققان بين آيات الله الكونية ، وآياته القرآنية

ولقد رفض الإلحاد والملحدون « الإيمان بالغيب » .

وها نحن نرى الماء مرتبطا بحركة الماء بين السحاب في السماء ، والبحار في الأرض !

فهل نستطيع نحن البشر أن نشهد هذه الحركة بتمامها ، بين ما يتبخر من الماء في أقداحه بأيدي الظامئين ، وبين ما يحدث من ذلك في البحار والآبار والأنهار والمحيطات !

إن الغيب والشهادة ، ضرب للأمثال ، لا يقدر عليه أحد إلا الله وحده لا شريك له ، حيث نجد للأشياء جميعا ظواهر خارجية ، وبواطن خفيَّة .

وما أقربَ الغيبَ من بواطن الأشياء .

وما أقرب الشهادةَ من ظواهرها .

والمثانى في إحكام القرآن وتفصيله ، تَرْبطُ بين السورة الواحدة ، وبين السُّور جميعا في جملتها الواحدة ، ربطا محكما لا رَيْبَ فيه ، ولكنه غيْبُ لا نَراهُ !

فهل يصدُق كذبُ الإلحاد والملحدين ، في رفضهم الإيمان بالغيب لأنهم لا يروْنَهُ !

لا ريب في أن الكذبَ لا يَصْدُقُ ، كما أن الصِّدقَ لا يَكْذِبُ ! !

والدليل على ذلك أن الله تعالى ، جعل في هذا الغيب شهادةً تتَّفق مع قدرتنا على الرؤية ، حيث يسَّر الله القرآن للذكر ، فجعل للحروف مواضعها في القرآن ، وموضوعاتها في معرفتنا ووجودنا – نحن البشر – ونحن نحيا بين نور القرآن ، ووقائع آيات الله ، الكونية !

والْحَمْد للَّهِ رَبِّ الْعَالَمينَ .

الفصل الثاني

إحكام القرآن وتفصيله وسقوط الإلحاد والملحدين

بسم الله الرحمن الرحيم

١- آلَرَ تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ الْحَكيمِ

١ : يونس

٢- آلَرَ كتَابٌ أُحْكمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُن حَكيمٍ خَبيرٍ

١ : هود

٣- آلَرَ تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ الْمُبينِ

١ : يوسف

٤- آلَرَ كتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لتُخْرِجَ النَّاسَ منَ الظُّلُمَات إلَى النُّور

١ : إبراهيم

٥- آلَرَ تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ وَقُرْآن مُبينٍ

١ : الحجر

تعريف الإحكام والتفصيل :

لو أن أحد الملحدين ، الذين لا يؤمنون بدين الله ، أمعن في النظر في هذه الآيات الخمس السابقة ، لأصابه مما يرى هوْلٌ عظيم ! !

والسَّبَبُ في ذلك ، أن هذه الآياتِ الخمْسَ تحدِّثنا كلٌّ آية منها ، عن هذا العلم من علوم القرآن ، وهو « **إحْكَامُ الْقُرْآن وَتفْصِيلُهُ** » .

ولقد سبق أن قلنا – معا – في الصفحات السابقة :

* مفردات القرآن التي تدبرنا نصوصها ومواضعها في الفصل السابق هي الأسس العملية لهذا العلم .

إن « **إحكام القرآن وتفصيله** » هو العلم الذي يضمن لنا أننا كلما احتجنا إلى أي مفردة قرآنية ، وجدناها بأي موضع من مواضعها كالحرف الواحد في الكلمة التي تجمع حروفها جميعا في جملتها ، فإذا كل حرف بموضعه الخاص به تفصيلا ، وإذا الحروف جميعا تامة الارتباط بها كلها إجمالا .

وليس كذلك كلام البشر الذي سنرى بعد ذلك كيف أننا لا نعلم له جملة كما سبق هذا الوصفُ في كلام القاضي أبي بكر ابن العربي حيث يقول :

« **إن ارتباطَ آي القرآن ، بعضها ببعضٍ ، حتى تكون كالكلمة الواحدة ، علمٌ عظيم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حَمَلَةً ، ووجدْنَا الخلْق بأوصاف البطَلَة ، ختمنا عليه ، وجعلْنَاهُ بيننا وبينَ الله ، ورددْنَاهُ إليه** » ! !

كما كثرت الإشارات ، إلى هذا العلم في الكتب القديمة كقول الغزاليّ في « إحياء علوم الدين » * *

« يقول بعض العارفينَ إنَّ القرآن يحوي سبعمائة وسبعينَ ألفَ علمٍ ، ومائتي علم ، إذ كُلُّ كلمة علْمٌ » .

ولقد سمى الفخر الرازي هذا العلم علم مناسبات الآيات والسور ، وارتباط بعضها ببعض حتى تصير شيئا واحدا ، وبناء متينا لا خلل بين أجزائه ، حتى لقد قال : « ان الإعجاز يكاد ينحصر في هذا المعنى الذى لا يوجد أبدا في كلام البشر » . * * *

ولكننا نرى أن البحث في هذا العلم العظيم ، مهما يكن محفوفا بالمصاعب ، فهو ضرورة لا بد من اجتيازها لمواجهة الإلحاد والملحدين بما لم يكن في حسبانهم أبداً ! ! .

وهكذا ينطلق بنا هذا التمهيدُ الموجز ، إلى الحقائق التالية ، التي تعود بنا إلى نُقْطَةِ البدايةَ مع المواضع الخمْسَةِ لفاتحة السورة (آلر) كما قرأْنَاهَا الآن .

---

* انظر كتاب البيان في علوم القرآن للزركشي ص ٣٦ جـ ١ طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة .

* * انظر ص ٥٢٣ من إحياء علوم الدين للغزالى المجلد الأول طبعة دار الشعب بالقاهرة .

* * * انظر كذلك التفسير الكبير للفخر الرازي وإشاراته إلى هذا العلم أكثر من أن تحصر .

ومواضع « آلر » تَزيدُنا ارتباطا بما سبق أن علمْنَاهُ عن مواضع المفردات القرآنية ، كما تصلنا – مع ذلك – بمقاصدَ وثيقة الصلة بإحكام القرآن وتفصيله

فلننظر إلى الهدف العملى الذى يجعلنا نجد فاتحة السورة (آلر) بكل موضع من هذه المواضع المتعددة .

١- آلَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

١ : يونس

إن لوجود (آلَرَ) هنا ، هدفاً ظاهراً هو ارتباطها بموضعها في هذه الآية القرآنية ، .بمعلومة خاصة بهذا الموضع ، على وجه التخصيص .

وهذه المعلومة هى أن القرآن هو الكتابُ الحكيم ، أى المرتبطُ في جُمْلَتهِ الواحدة ارتباطاً لا ينبغى معه أن يختلط به – من الكلام – ما ليس منه ! !

ثم ننطلق إلى موضع جديد لفاتحة السورة (آلر) .

٢ – (آلَرَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

١ : هود

أما المعلومة المتفردة التي نجدها نتيجة لارتباط (آلر) بهذا الموضع الجديد من مواضعها ، فهي أن كل آية قرآنية مرتبطة في جملتها الواحدة ارتباطا محكما يمنع أن يختلط بها من الكلام ما ليس منها .

كما أن مفردات كل آية قرآنية سواء كانت هذه المفردات ، حرفا أو كلمة أو جملة ، قد فُصِّلَتْ بمواضعها ، بين آيات القرآن ، بحيث ترتبط كل مفردة منها ، بمعلومات جديدة تنفرد بها في كل موضع جديد .

وفاتحة السورة (آلر) أقرب مثل لذلك ، كما نجدهـا ، في القرآن كله ! !

وإلى موضع جديد من مواضع (آلَرَ) .

٣- آلَر تلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين

١ : يوسف

والمعلومة الجديدة التي تَنْتُج من ارتباط (آلر) بهذا الموضع القرآني الجديد ، هى أن القرآن هو الكتاب المبين ، وأن الارتباط بين مفرداته ، هو هذا الارتباط الذى تبينه لنا (آلَر) كما هو ظاهر في هذا السياق .

ونحن حين نعلم – هنا – أن القرآن هو الكتابُ المبين ، فإن ذلك ناتجٌ ممَّا علمْنَاهُ من قبل حيث علمنا أن القرآن هو « الكتابُ الحَكيمُ » .

ذلك أن الارتباط المحكم مؤدٍّ بالضرورة ، إلى البيان .

فلو تمزَّقَتْ أجزاءُ العيون التي ترى ، لمـا رأى الناس بها شيئا .

ولو تمزقت المشاهد الكونية ، لما استطاعت عيونُنا أن تراها ، أينما تتجه نحوها في أى مكان أو زمان !

وإلى موضع جديد نجد به (آلَر) .

٤- آلَر كتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّور

١ : ابراهيم

والمعلومةُ الجديدةُ الناتجةُ من ارتباط (آلَر) بموضعها الجديد هنا ، هى أن القرآن هو الكتابُ الذى يَتِمُّ انتفاعُنا به ، بإحْكَامه ثم بتَفْصيله ، وبكونه كتاباً مُبينا ، وبدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، حيث يخرج به الناس مـن الظلمات إلى النور بإذْن ربهم .

فهكذا تتصل الدعوةُ بالداعى ، والرسالةُ بالرسول ، صلى الله عليه وسلم .

وتختتم مواضع (آلَر) بهذا الموضع في الآية التالية .

٥- آلَر تلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ

١ : الحجر

إن (آلر) ترتبط هنا بالمعلومة الشاملة التي تنتظم اللآلئ السابقة كلها في عقْد واحد .

ذلك أن المعلومات الأربعَ السابقةِ ، قد بيَّنت لنا وجوه العلم الخاصة بإحكام القرآن وتفْصيله ، وهو علْمٌ وإعجاز معا ، سنفيض في الحديث عنه بعد ذلك بإذن الله .

وقد نجد بعض الصعوبة في فهم المقصود بالإحكام والتفصيل ، ولكننا سنبين – معا – بأمثال كثيرة أن الأحكام هو الربْط المحكم الذى جمع به الله تعالى مفردات القرآن جميعا ، فهي كالكلمة الواحدة في ارتباطها الشامل .

وبذلك لا يختلط بالقرآن ما ليس منه أبداً .

أما التفصيل فهو الإعجاز الظاهر في أن الله جعل كل حرف أو كلمة أو جملة في القرآن كله ، مرتبطا كل منها في كل موضع جديد ، بعمل جديد ، ومتفرِّد في ذاته ، بين وجوه العلم في القرآن كله .

فقوله تعالى :

الَر تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ

يبين لنا أن (الَر) قد ارتبطت في كل موضع من مواضعها ، في الآيات السابقة ، بجديدٍ من العلم ، ومزيدٍ من النور .

فقوله تعالى :

« **الَر تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ** » يبيِّنُ لنا فيما يبيِّنُ من العلْم أن ارتباط (الَر) بمواضعها – على نحو ما سبق – هو الواقعُ العمليُّ لتجديد المعلومات ، بتجديد مواضع المفرداتْ *

ولما كانت كل مفردة قرآنية ، مع اختصاصها بما ترتبط به وتنفرد به من وجوه العلم ، إلا أنها مرتبطةٌ بالقرآن كله في جملته الواحدة ، فقد جاء قوله تعالى (**وقرآنٍ مُبينٍ**) لبيان **الإحكام** في شموله وإحاطته بالمفردات جميعا كما

---

* لا يتضح لنا الهدف من وجود كل مفردة قرآنية بكل موضع نجدها به إلا عند حاجتنا إلى أي مفردة ودراستنا لها من حيث تعدد مواضعها أو عدم تعددها مع نظرنا فيما يختص به كل موضع من وجوه العلم .

سبق أن قوله تعالى (آلَرَ تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب) يُبيِّنُ لَنا الْوَاقعَ الْعَمَلىَّ لارتباط الإفْرادَ بالإجمال .

هكذا يتبين لنا أن تعدد المواضع بأى مفردة قرآنية ، هو واقع قرآنىٌّ عملى ، يذكِّرنا بالنظام في آيات الله الكونيَّة ، ونحن نتدبَّر آيات الله القرآنية ، حتى ندرك أن الله هو خالقُ كل شيئ ، كما أنَّ القرآنَ هو كلامُ الله ! !

وهذا هو الإعجاز الذى سيصيب الملحدين عند اكتشافهم له هول عظيم !

أما العلْم فمنه أن نصوصَ المفردات القرآنيةَ تقومُ على الحروف كما تقوم على الكلمات ثم على الجُمَل .

وهذه الآيات الخمس السابقة قد تضمنت من المفردات المتعددة المواضع ، جملةً قرآنية متعدِّدَةَ المواضع ، هى قوله تعالى : (تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب) .

ونحن نجدها تفعل نفس الفعل الذى رأيناه في مواضع (آلر) من حيث تجديدها ، لمعرفتنا وزيادتها لعلمنا ، بازدياد تدبُّرنا لها ، ونظرنا فيها ! !

١- **تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب الْحَكيم**

١ : **يونس**

٢- **تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب الْمُبين**

١ : **يوسف**

٣- **تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب وَقُرْآنٍ مُبينٍ**

١ : **الحجر**

ولا شك في أن هذه المعلومات ، التي نجدها في ارتباط هذه الجملة القرآنية ، بكل موضع من مواضعها الثلاثة السابقة ، تدخل في معاني الآيات الخمس ، التي سبق أن تدبرناها ، ونحن ننظر في ارتباط (آلَرَ) بكل آية منها .

فقد يقول قائل :

فما الفائدة التي نحصل عليها من عودتنا إلى هذه المواضع الثلاثة والمعلومات المرتبطة بها قد سبقت من قبل عند نظرنا بمواضع (آلَرَ) .

الجواب على ذلك أننا حينَ ننظر في المواضع ، نزداد علماً ، بازديـاد نظرنا ، في جملة المواضع ، الخاصة بكل مفردة بذاتها .

فنظرُنا في مواضع قوله تعالى (**تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب**) وهى ثلاثة مواضع ، يعلِّمنا أن الجملة التي تكون أصغر من آية بتمامها ، ونجدُها متعددةَ المواضع تَعْمَلُ عَمَلَ الْحَرْفِ وَعَمَلَ الكلمة ، في زيادة معلوماتنا بزيادة نظرنا بمواضعها .

وهذا علم جديد في ذاته !

ثم إنَّ تركيز نظرنا على ثلاثة مواضع ، يؤثِّر فينا تأثيراً جديداً ، بالنسبة إلى التأثير الذى يتحقَّقُ حين نَنْظُرُ في خمْسَةِ مواضع ! !

والمواضع المتعددة بأى مفردة ، تبيِّنُ لنا بالواقع العملى أن هناك وجوهاً من العلم ، لا يمكننا – نحن الْبَشَرَ – أن نراها إلا بتعدُّد مواضع المفردات ، التي تصلنا بها .

ثم إن أحوال العقول تختلف من حيث النشاط والقوة فقد يستمع نفر من الناس إلى آية قرآنية واحدة ويتذكر كل منهم مفردة غير التي تذكرها سواه من الناس ، كأن يتذكر أحدهم حَرْفاً والآخر كلمة والثالث جملة .

فلهذا جعل الله المسارات الخاصة بمفردات كل آية في القرآن كله ، مسارات متعددة ومتنوعة تهدف جميعا وفرادى إلى الإحاطة بكل أحوال التذكر في عقول الناس على تجدد أحوالهم ! !

وكذلك جاءت كلمة واحدة متعددة المواضع ، في هذه الآيات الخمس السابقة ، لتتم بذلك كل نصوص المفردات القرآنية التي تتعدد مواضعها ، وهى الحروف ثم الكلمات ثم الجمل .

وهذه الكلمة هى كلمة **كتَابٌ** ، وقد جاءت بهذين الموضعين من الآيات الخمس السابقة .

١– **كتَابٌ أُحْكمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ** .

١ : هود

٢- **كتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إلَيْكَ لتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلىَ النُّور .**

١ : ابراهيم

ونحن حين ننظر في هذين الموضعين ، لكلمة **كتَابٌ** لا نخرج من معالم الآيات الخمس السابقة ، ولا ينبغي لنا أن نخرج من معالمها .

ولكن الجديد هنا ، أن المقارنة بين الموضعين السابقين ، تزيدُ أبصارَنا وبصائرنا تركيزاً على معلومتين عظيمتين ، تأخذ كل منهما موضعها الخاص بها ، في آياتها القرآنية .

والمعلومة الأولى عن إحْكامِ القرآنِ وتفْصيلهِ .

أما المعلومة الثانية : فهي أن القرآن يُخْرِجُ الناس جميعا وفرادى ، وفي كل زمان ومكان من الظلمات إلى النور ، إذا اتبعوا سنة رسولنا الأعظم صلىَّ الله عليه وسلم ، في العمل بالقرآن والدعوة اليه .

والقرآن حوارٌ دائبٌ بين الكثرة والتفرُّد ، في حاجاتنا البشرية ، التي قد تظهر في حاجة**شخصٍ واحدٍ** ، إلى تلاوة القرآن وتدبُّره ، كما قد تظهر في حاجات **عدد كثير أو قليل** ، من الناس ، في أماكن وأزمنة كثيرة أو قليلة ، إلى تلاوة القرآن وتدبره .

لهذا وغيره من الحِكَم التي لا نحيط بها ، قد جعل الله تعالى ، **الإفْرَادَ في مواضع** المفردات القرآنية ، متحققا في القرآن كما رأينا من قبل،**التعدُّدَ** في المواضع ، وتدبَّرْناه وفهمنا بعض مقاصده .

إنَّ أيَّ مُفْردة قرآنية ، نجدها بموضع واحد في القرآن كله ، تعمل على إظهار الفرق ، بين التعدد والتفرد في المواضع .

ومن ذلك قولُهُ تعالى : « **أُحْكِمَت** » .

وهو كلمةٌ واحدةٌ ، قد سبق أن رأيناها ، بين كلمات الآية الأولى من سورة هود .

فقد جاءت كلمة **أُحْكِمَتْ** بموضعٍ واحدٍ بالقرآن كله ، هو موضعها بالآية السابقة .

فذلك **لأن الإحكام بواقعه** العملي ، في آيات الله الكونية – وكذلك – بآيات الله القرآنية ، يعني الارتباط الواحد ، الذي يشْمَلُ المفرداتِ جميعا ، ويبيِّنُ لنا ما تَخْتَصُّ به كلٌّ منها من المواضع ، المرتبطة بالجديد من العطاء ، وبالمزيد من تحقيق الأهداف .

فهذا مما يؤكده ويزيدُهُ بيانا ، أن تكون كلمة **أُحْكِمَتْ** بموضعها القرآني الوحيد !

ولكننا مع ذلك نحتاج إلى المزيد من النور ، الذي يبين لنا أنماط الإحكام بكل أنواعها في القرآن ، بين الآيات بتمامها ، وبين مفردات الآيات ، وفي السور !

فهكذا نجد **اشتقاقات هذا** الفعل القرآني ، تجدِّدُ لنا المعلومـات ، بتجدد مواضعها ، مع تنويع هذه المفردات حتى يتحقق الشرطان معا ، وهما أن تكون كلُّ مفردة ، دالة على الإحكام ، **مفردةً واحدة دائما** ، وفي موضع قرآني **واحدٍ دائما** ، **مهما** تكثُرْ هذه المفرداتُ في القرآن كله .

ومن ذلك قوله تعالى :

« **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَاب** »

٧ : آل عمران

وقوله :

تلك آيات الكتاب الحكيم .

١ : يونس

وقوله :

كتابٌ أُحْكِمَتْ آياته

١ : هود

وقوله :

فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ

٢٠ : محمد

وواضح أن كل مُفْردة من هذه المفردات ، الدالَّةِ على **الإحكام** ، أي الربط القرآني الشامل جديدة في مبناها دائما ، كما هي جديدة في موضعها وموضوعها دائما بحكم التفصيل ، وهو تخصيص كل موضع لكل مفردة ، بحيث يكون بكل موضع علم جديد بين المواضع جميعا ! !

وهكذا نصل إلى ضرورة الحديث عن الربط بين الإفراد والإجماع في آيات الله الكونية ، لنزداد إيمانا بأن خالق الكون هو الله الذي نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا القرآن .

ولقد ضربْنا مثلا لذلك بالأنهار من حيث اختصاص كل نهر واحد منها بالحضارة الإنسانية التي قامت عليه ، بينما الحضارات الإنسانية أخيرا ، هي جملة الحياة الإنسانية في حقيقتها الشاملة ، وأكثرها ما قام حول ضفاف الأنهار !

ولو استطاع الإنسان أن يرى كل شيْ ، وأن يقف على الفروق بين الأشياء في ذات كل منها ، وفي مواضعه في الكون كله ، وفي تجدد أعماله بتجدد مواضعه ، لما رأى أى تكرار أو تمزق ، أو تفاوت ، في مخلوقات الله جميعا وفرادى ، وإنما تتشابه علينا الأشياء في حدود رؤيتنا الإنسانية المحدودة .

٢ – التعدُّد والتفرُّد بمواضع الآيات الكونية :

إن الملحدين يعلمون أن الارتباط الشامل ، بين أجزاء الكون المادى ، يؤدى إلى اختصاص كل جزء منها ، بموضعه الخاص به بَيْن مواضعها جميعا ، وازدياد أعمال كل شيْ تجدداً وعطاء ، بزيادة مواضعه في آفاق الحياة .

فالشمس ذات **موضع** واحد ، في الكون كله ، لأن منافعنا المادية والفكرية ، ترتبط بها ارتباطا ، يقوم على جملة الوظائف ، التي قهر اللهُ الشمس على أدائها ، حتى تتحقَّق حياتُنا فوق الأرض !

والقمر له **موضعٌ** واحد ، في الكون كله ، لأن منافعنا المادية والفكرية ، ترتبط به – كذلك – ارتباطا ، يقوم على جملة – الوظائف التي يؤديها القمر ، لحياتنا الإنسانية ، كما قهرهُ الله على ذلك .

ومع ذلك فهناك شموس وأقمار أخرى كثيرة المواضع والأهداف في الكون كله ، ولكننا لا نعيش في ارتباط مباشر معها لبعدها عن مجالات رؤيتنا .

ولقد جعل الله الشمس ضياءً ، وجعل القمرَ نوراً .

فلما كان لكل منها صفته الخاصة ، ووظائفهُ الخاصة ، فقد كان لكل منها موضعه المتفق مع ذلك .

فالشمس والقمر مفردتان من مفردات الكون المادي ، قد انفرد كل منهما بموضعه الواحد بين مواضع المفردات المماثلة له ، بحكم ارتباط مصالحنا البشرية ، بكل منهما .

إن الذى جعلنا نجد الشمس بموضعها ذاته ، وكذلك الشأن في القمر الذى نجده بموضعه ذاته ، هو ارتباط كل منهما بما وضعه الله به من حاجتنا اليه ، وانتفاعنا به في حدود ما قدره الله من هذا النفع !

ثم إننا قد نجد أى شيٌ من أشياء الحياة بمواضع متعددة ، وإن كانت خصائص هذه الأشياء تتجدد في أدائها لوظائفها ، فتزداد هذه الوظائف عطاء وتحقُّقاً ، كلما ازدادت عدد مواضعها المنطلقة جميعاً ، مع مسيرة الدنيا إلى الآخرة .

وأقرب مثل لذلك ، أن الحضارات تزيد بالزيادة في عدد مواضع الأنهار فوق الأرض ، ولكن كل حضارة تقوم حول ضفاف نهر معين من الأنهار ، حضارة لها مزاياها – الخاصة بها ، تفصيلا ، ولها كذلك – ارتباطها بالحضارات الإنسانية كلها ، **إجمالا** . ! !

فهذا مَثَلٌ دال على ارتباط **الإفراد** في المواضع **بالكثرة** فيها ، إذ الحياةُ الدنيا كلها حياةٌ واحدة في جُملتها ، كما أن كل مفردة من مفرداتها ، مهما **تتعدَّدْ** مواضعها ، أو **تَتَفَرَّدْ** ، فهي مؤدية وظائفها إجمالا وتفصيلا .

فمهما تتنوع الأنغام في لحن الحياة وهو لحنٌ واحد ، بتنوُّع آلات العزف ، وتنوُّع مواضعِ كل منها في أيدى العازفين .

فقد تكون هناك آلةٌ واحدة في موضع واحدَ في الفرقة الموسيقية كلِّها ، كما نجدُ الشمْسَ أو القمرَ وكلٌّ منهما بموضعه الواحد .

ومع ذلك فقد تكونُ هناكَ آلةٌ واحدةٌ ، ولكنها **متعدِّدةُ المواضع** بين الآلات الموسيقية جميعاً وإن انفرد كلٌّ منها – مع ذلك – بأنغامه الخاصة به ، في اللحن كله .

فاذا عدنا من الأشياء إلى مجالات البيان اللغوى الذى يوجز لنا ، المشاهد الواقعة في حر وف وكلمات وجمل ، وجدنا أن أى جبل من الجبال له بناء محكم لا تحتل فيه ذرة واحدة غَيْرَ موضعها الخاص بها بين مواضع ذراته جميعاً .

فإذا أخذنا نطلق كلمة جبال على مجموعة ارتباطاتنا بالجبال جميعا أخذنا نتسابق في إطلاق جمل كثيرة متعارضة ، تتداعى على ذواتها في حدود علمنا بمواضع الجبال ، وبما يرتبط بها من تنوع وتجدد في المناطق الجغرافية إلى آخر هذه الأمور الجزئية .

٣ – الاختلاف في كلام البشر :

هكذا نتأكد أن الملحدين سيجدون حرجا شديدا ، وألما ممضا وهم يقرأون هذه الصفحات ، التي تقدم لنا فيها هذه الآيات الخمس السابقة ، التطبيق العملي ، والمصطلحات العلمية ، لعلم من علوم القرآن ، يبين لنا الحد الفاصل بين كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر كلام مختلف كما وصفه الله تعالى بقوله :

[والسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ] [إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ] [يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ]

٧–٨–٩ : الذاريات

فالسماء ذات « حُبُك » أى « مسارات » مرتبطة هذا الربط الذى يقدم لنا خصائص الأشياء ، ويحقِّقُ لمنافعنا الإنسانية الاتصال والثبات والتجدُّد .

وكلام البشر **مُخْتَلِفٌ** أي ممزَّقٌ ، بحكم استقلال كل أحد من الناس ، بما يقول

ويعمل ، ثم يعود كل أحد من الناس يصف أعماله بكلامه ، وقد يصيب أو يخطئ ، وقد يكذب أو يصدق !

فالصادقون والمؤمنون ، يرتفعون بالمعاني على حدود المباني الممزقة في كلامهم ، بينما يسقط الملحدون بكذبهم ، في هوة التمزق والحيرة والضلال !

وهكذا تتعدد أنماط التمزق في كلام البشر ، وتزداد بمقدار كذب الكاذبين وإلحاد الملحدين !

فكيف يجوز - إذن - أن يصدر البشر بكلامهم الممزق الأوصال ، الأحكام على الكون بكل ارتباطه المُحْكَم ، وتفصيله الذي يربط كل شيئ ، بموضعه بين آفاق الحياة !

٤- العلم والإعجاز في إحكام القرآن وتفصيله :

هكذا يظهر من جملة ما بينته لنا الآيات الخمس السابقة ، هذا العلم وهذا الإعجاز ، الذى سمته لنا الآية الأولى من سورة هود ، فعلمنا أنه هو : **إحْكَامُ القرآنِ وتفْصِيلُه** .

إنه هو العلم الذى يبين أن ارتباط القرآن في جُملته الواحدة ، كارتباط الكلمة التي تجمع حروفها جميعا في جملتها ، فإذا كل حرف بموضعه الخاص به تفصيلا ، وإذا الحروف جميعا تامة الارتباط بها كلها إجمالا .

وليس كذلك كلام البشر

٥- من نتائج الاختلاف في كلام البشر :

والملحدون على اختلاف مذاهبهم وفلسفاتهم ، هم أكثر الناس جدلا ، وأكثرهم - مع ذلك - سقوطاً في مهاوى الكذب والخطأ والظنون والأوهام ، التي تمزِّق كلامهم فلا يتصل بعضه ببعض ، اتصالا يضمن لهم ألاَّ يضطروا إلى ترقيع نظرياتهم برقع جديدة ، كلما أعادوا طباعَتها ونشرَها وتقديمَها ، لمن يخدعونهم بسرابها القاتل !

إن كل شيئ في الوجود الإنساني والكوني ، مرتبط في جملته الواحدة ، ارتباطا

يضمن له أن لا يختلط به ما ليس منه ، لا في حقيقته الشاملة ، ولا في أى جزء من أجزائه .

والصادقون في كلامهم ، يكفيهم شرفا أن أى كلمة كاذبة تندس بين كلماتهم ، فهى أشبه ما تكون بطعنة دامية تقطع أوصال الكلمات !

إن العلم البشرى عاجز عن العلم بأى جملة واحدة ، لخصائص أى شيْ أو مواضعه أو مقاديره ، بما في ذلك الكلام البشرى نفسه ! ! مع أن الارتباط بين حاجاتنا المتجددة وبين مواضع الأشياء ، دال على علم الله بكل شيْ ، وإحاطته بكل شيْ ، وهكذا يختلف كلام البشر ، كما تختلف منتجاتهم المادية كالطائرات والصواريخ وغيرها .

والإنتاج البشرى كله لا يخرج عن الكلام من جهة ، والمنتجات المادية من جهة أخرى .

وسنرى في هذه الصفحات بعد ذلك أن من المقصود بالاختلاف في كلام البشر ومنتجاتهم المادية ، أن كل أحد من الناس يطلق من الأحْكام في كلامه ، ويبذل من الجهد في أعماله ، ما هو مختلف عن كلام غيره من الناس ، وأعمال غيره منهم ، فكيف يتفق الناس جميعا في كل مكان وزمان ، على منافعهم المتصلة بالكلام وسائر وجوه الإنتاج ، مع حاجة كل منهم إلى ذلك !

وبذلك فكلام الناس ومنتجاتهم المادية في حقيقتها الشاملة ، تظل في محاولات دائبة لإصلاح الأخطاء ، ومحو الأكاذيب ، ليتفوق الناس على أنفسهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

أما مخلوقات الله تعالى جميعا وبينها الناس أنفسهم ، فهى في جملتها الواحدة خاضعة لعلم الله بكل شيْ وقدرته على كل شيْ ، كما أنها في موضع كل فصل من فصولها ، دالَّةٌ على إحاطة الله بمواضع الأشياء جميعا ، وتخصيص كل منها ، بموضعه الخاص به بين جملة مواضعها جميعاً .

والاختلاف في كلام البشر وفي أعمالهم ، ظاهرة طيبة لا بأس عليها ، طالما عرف الناس أنها هى حدودهم التي وضعهم الله بها ، وأن هذا الاختلاف هو

التنوع ، الذى وهبه الله تعالى عباده ليظلوا في تقدم متواصل ، وفي تجدد دائب ، في أقوالهم وأعمالهم .

هكذا يكون أمر الناس لو أنهم عرفوا أن حرية كل منهم ، في أن يقول ما يشاء ، وينتج من الأعمال ما يقدر على إنتاجه ، إنما هى نعمة من نعم الله تعالى ، توجب عليهم أن يقوموا بشكرها ، وأن يستعينوا عليها بما جاءهم به كلامُ الله ، من القيم التي تقوم عليها شريعته .

ولكن الملحدين ، يبدِّلُونَ نعمةَ الله كُفْراً ، ويدَّعون أنهم سيظلون يتطوَّرون في مُنتجاتهم المادية ، وفي مصطلحاتهم العلمية ، حتى ينتصروا على العجز البشرى ، فينتهي الملحدون من عبادتهم للكون المادى ، إلى عبادتهم للإنسان نفسه ! !

ويا لها من أسطورة غبية متشبثة بهذه الأوهام التي لا يكفُّ الملحدون عن الثرثرة بها كما يلوك مدمنو الأفيون أفيونهم ! !

ولو قال الملحدون – على اختلافهم – إن الاختلاف في كلامهم بما يختلط به من الصدق مع الكذب ، ومن الصواب مع الخطأ ، هو السبب الأساسي في اختفاء المواضع التي يرجع إليها الناس في كلامهم ، لأراحوا واستراحوا ، وعرفوا كيف يعودون إلى كلام الله ، مؤمنين ، أو صاغرين يرون النور ويتشبثون بالظلمات ! !

ولقد جادل المؤمنون الملحدين ، فأحسنوا جدالهم ، حين بيَّنوا لهم أن هذا التجديد المتواصل ، بين مواضع الأشياء جميعا ، في الكون المادى كله ، إنما هو آياتُ الله الكونية ، بكل ما فيها من بيان رائعٍ لعظمة الخالق ، ورحمته !

فنحن لن نستطيع – كما يقولون – أن نضع أيدينا في موضعٍ واحد من ماء البحر مَّرتين ، سواء ظلت أيدينا ثابتة – بموضعها منه ، أو نزعناها منه ثم غمسناها بعد لحظة خاطفة في الموضع ذاته .

ونحن لن نستطيع أن ننظر إلى الورد فوق أغصانه ، نظرة واحدة ، في لحظتين متتابعتين .

ذلك أن ماء البحر يجري من منبعه إلى مصبه ، فبذلك يكون لكل قطرة

من قطراته عمل جديد في كل موضع جديد تنساب فيه ، هو تجديد الارتباط بين موضع كل قطرة واحدة ، وبين مواضع القطرات جميعا ، من جهة ، ومواضع احتياج الناس جميعا وفرادى إليها ، من جهة أخرى .

وكذلك تواصل الورود والزهور تفتحها ، فإذا أبصارنا في تجدُّدٍ متواصل ، من الارتباط بمواضع الرؤية الجديدة ، التي تحقق لنا مواضع جديدةً من أوراق الورد والزهرِ ، مع كل لمحة من ملامح الارتباط ، بين رؤيتنا وبين هذه المسيرة الدائبة التجدُّد والعطاء ، في مواضع الأشياء جميعا وفرادى ، في الكون المادى كله ،وهو منطلقٌ من الدنيا إلى الآخرة !

وهذا كلُّه دليلٌ ، على أن الهداية الإلهية ، في الكون المادى ، تنطلق مـن الربط الإلهى ، بين ما يشبه الحروف والكلمات والجمل ، في الأشياء .

فقد خلق الله الإنسان وعلمه البيان كما نجد في قوله سبحانه :

[الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ القرآن . خَلَقَ الإنْسانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ والْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . والسَّمَاءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزَانَ] .

١–٧ : الرحمن

وهذه الآيات السبع من سورة الرحمن ، تبيِّنُ لنا أن مادة جسم الإنسان ، لم تبتكر الحروفَ والكلماتِ والجُمل ، كما لم يخلق الناسُ الخلية ، أو الذرة ، وكل منهما كالحروف في كلمات الأشياء والأحياء وإنَّما خَلَقَ الله الناس ووضعهم بمواضعهم الخاصة بهم ، بين جملة المواضع الخاصة بمخلوقات الله جميعا ، ثم علَّمَهمُ البَيَانَ ، حيث علمهم الحروفَ والكلماتِ والجملَ في الكلام ، وكذلك الحروف والكلمات والجمل ، في أنفسهم ، وفي وقائع الكون جميعا وفرادى .

وإذا كان الحرفُ في الكلام ، أشبه ما يكون بالخليَّةِ والذَّرَّة في الأحياء والأشياء ، فإن الكلمة في الكلام ، أشبه ما تكون بأوراق الوردة الواحدة ، بين الورود جميعا ، في جملتها الواحدة .

ومهما تتنوَّعْ قدرةُ كلِّ إنسان على أن يملأ رئتيه بعطر الورد ، أو يملأ عينيه برفيف أوراقه ، فإن كل إنسان يمارس حرِّيَّتَهُ التامَّةَ في الأخذ من هذا العطاء

الإلهى ، حيث خلق الله تعالى الإنسان ، وعلَّمَه البيان .

وسواءٌ كان هذا البيان فناً تجريدياً ، كالرسم وغيره ، أو فنا قوْليا كالشعر وغيره ، أو مصطلحات علميةً مختلفةً ، أو أرقاما نَعُدُّ بها حاجاتنا ، كما نعد مقادير وفائنا بها ، فأصوله كامنةٌ جميعا في نعم الله الكونية ، ومن الحروف والكلمات والجمل التي علمها الله بني الإنسان ، منذ علَّم الله تعالى أبانا آدم عليه السلام ، الأَسْمَاء كُلَّهَا !

ولقد بلَّغنا آدمُ عليه السلام ، أسماء الأشياء جميعا ، وأسماءَ أسماء الأشياء ، وهى مصطلحات العلوم ، ومنها أسماءُ الحروف ، ثم أسماءُ الأرقام !

ولا نزال حتى اليوم نجد الرقم (١) يدلنا على المصدر الإلهى الواحد للخلق وللعلم الإلهى ، فهما نكن بحاجة – نحن البشر – إلى كثرة وجوه النظر في آيات الله الكونية ، وآياته القولية ، فإننا نجد وحدانية الله ظاهرة في خلقه جميعا ، وفي كلماته كلها ، حيث كل شيْ في المخلوقات جميعا وفرادى ، له في كل موضع جديد عمل جديد ! فهو واحد دائما بحكم هذا التجديد .

والرقم (١) لا يتجزأ فجذره (١) أى أن الواحد إذا قسم على واحد كانت النتيجة = (١) وهذا بيان لأن الوحدانية هى أساس كل حقيقة وكل يقين .

وكذلك نجد الرَّبْط الإلهي المحكم ظاهرا في أننا لو ضربنا الرقم (١) في (١) إلى ما لا نهاية فالنتيجة تكون هى (١) أبدا .

وهذا دليل على قوة الربْط الإلهىِّ ، وأنه ربط لا ينبغى أن يتخلله ما ليس منه ، فهو يدلنا كما يسره الله لذلك – على أمور ثلاثة :

أولها : أن الرقم (١) يدل على أن هناك مصدرا واحدا (ليس كمثله شيْ) لكل حقيقة وكل يقين وهو الله تعالى وحده لا شريك له .

ثانيها : أن الرقم (١) يدلنا على أن الحدود التي تخضع للاختلاف والتنوع بحكم استقلال كل منها بذاته تفصيلا ، وارتباط كل منها بغيره إجمالا ، هى كلها من خلق الله تعالى .

ثالثها : أن الرقم (١) يدلنا على أن قدرة الله تعالى هى التي جعلت كلماتـه جميعا ، واحدة في جملتها ، بحكم ارتباطها المعجز ، كما أن كل كلمة منها واحدة إذا نظرنا إلى كلماته وهى فرادى ، بحكم تفصيل كل كلمة فإذا هي بكل موضع جديد ، في عمل جديد ، ومتفرد ! ! فهى « واحدٌ جديد أبدا » !

وفي الآيات السبع السابقة من سورة الرحمن ، يَنْهَل كُلٌّ منّا على قدر طاقته ، من العلم الإلهى الذى يبين لنا حقيقة خلق الله تعالى لعباده ، ثم ما خص الله به الإنسان من تعليم البيان ، ثم الإشارة إلى أن كل شيئ له كميته المقدرة من الحركة والخصائص وغير ذلك مما لا نحيط بعلمه ، ثم الإشارة إلى دوران الأشياء ، وأن هذا الدوران هو سجود المخلوقات جميعا لله رب العالمين ، وأخيرا نجد في قوله تعالى « **والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيْزَانَ** » التقدير الإلهى المعجز لمواضع الأشياء ، وأهدافها العميقة في معرفتنا – نحن البشر – وفي وجودنا .

إن جهلنا – نحن البشر – بجملة كلامنا يؤدى إلى جهلنا المُطْبِق ، بموضع أى مفردة ، من مفردات كلامنا ، أو أى مفردة من مفردات ، منتجاتنا المادية .

ذلك أن علْمنا بموضع أى شيئ ، لا يتم ولا يتحقق إلا إذا أمكننا أن نعلم بجملة المواضع الخاصة به جميعا ، ومن هنا يتيسر لنا العلم بما يخص كل مفردة من موضعها الواحد ، بين المواضع في جملتها الواحدة

إننا نحن البشر ننطلق من المفردات دائما ولكننا لا نحيط بجملتها أبداً .

[**وإن تَعُدُّوا نعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا**] .

٣٤ : ابراهيم ١٨ : النحل

إننا نسرف في الزينة ، فنضع منها في مبنى واحد من مبانينا الفخمة ، ما كان ينبغي أن يوضع في عشرات المباني .

إننا نسرف أحيانا في الأخطاء ، حتى نضع من الكلمات بين كلامنا ، ما كانت كلماتٌ أخرى أولى بمواضعها منها ! .

إن الكذب والأوهام وسائر الأخطاء ، تمزق أوصال الكلام البشرى ، إلا

ما أخذ منه حظه من الخضوع التام ، للقيم التي جاءت بها شريعة الله ، وبيّنها لنا كلامُهُ ، وطبّقتْها في الواقع العملي ، سنّة رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فنهانا عن الكذب والظلم وأمرنا بالصدق والعدل !

فهكذا نعلم أن المواضع ، مع أنها هي أساس كل ارتباط بين معرفتنا ووجودنا ، إنما هي أمر يخلو منه كلام البشر تماما .

ذلك أن مواضع الكلام كما سنتبينها في كلام الله ، هي مواضع معرفتنا بها ، وعملنا بمقتضى حكمتها الهادية ، وخضوعنا للقيم التي جاءتنا بها شريعة الله .

فالمواضع في كلمات الله ، مواضع خضوعنا لله تعالى وعبادتنا له وحده ، لا شريك له .

أما المواضع في آيات الله الكونية ، فهي مواضع حاجاتنا المادية ، بما تؤدى إليه من غذاء الأجسام ، ثم بيان الحكمة الإلهية للأفهام .

ثم إن المواضع في كلام الله ، تقوم على معانيها الكثيرة التي تزداد كثرة ، مهما تتكاثر حاجاتنا إليها ، كما تقوم على البناء القرآني ، الذي يظهر فيه الارتباط القرآني المعجز ، ونراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا ، تماما كما نلمس الارتباط بين أى قدر من آيات الله الكونية ، في ارتباطه الوثيق بالكون كله في جملته الواحدة مع ضرورة معرفتنا الفرق بين حدود المادة وبين القرآن ، حيث أطلق الله النورَ القرآنى من حدودها ، وجعله مهيمنا عليها ! !

أما كلام البشر ، فإنه يتكاثر في ألفاظه ، فتقل معانيه ، بل تجدب ، وتنقطع عن ارتباطها الحقيقى ، بتجديد معرفتنا ووجودنا ، كلما تجددت مواضعُ مفرداته فوق أوراقنا الممزقة بأيدينا ، بحقٍّ أو بغير حق !

إن القرآن يمنحُ قارئه ومتدبِّره ، مع كل حرف أو كلمة أو جملة مصباحاً تسمو به روحُه ، ويتضوَّأُ ضميره ، حتى إذا انطلقْنا بين كلمات القرآن في كثرة من مصابيحها ، وجدنا كلَّ كلمة كنَّا قد مررنا بها من قبل ، قد أضاءت مصباحاً جديدا ، يسبقنا إلى كل موضع جديد نجدها به ، ، ليأتلف النور الجديد بالنور التليد ، وتتسعَ آفاق العلم ، وتتجدَّدَ وتزدادَ بلا نهاية ، لسعتها وزيادتها وكثْرتها ،

فإذا المصباح الواحد مصابيحُ كثيرة ، واللونُ الواحد من ألوان النور ، ألوانٌ جمَّة ، والنور هو النورُ !

فإذا قامت الحجة البالغة على هذه الحقيقة ، فإننا نقول للملحدين على اختلاف أحوالهم ، أين تذهبون ، من الارتباط المحكم بين آيات الله القرآنية ، بعد أن راوغتْم فلم تطلبوا الهداية من آيات الله الكونية !

إننا حين نتلو القرآن تلاوةً متصلة ، فإن أى قدر من الكلام سواءٌ كان حرفا أو كلمة أو جملة ، يقدِّم لنا الفرْق بين عمله ، في كل موضع نجده به وبين عمله في أى موضع من مواضعه الأخرى ، في القرآن كله .

ولقد رأينا من قبل كيف أحاطت المعانى في الآيات السبع السابقة من سورة الرحمن بآفاق معرفتنا ووجودنا جميعا .

ولقد راوغ الملحدون في الإيمان بالمعانى القرآنية التي أخبرتهم بكثير من وجوه الحقيقة التي لما يأتهم تأويلها بعد ، كالقيامة وبعث الموتى ، والحساب والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، وكل هذا حق لا ريب فيه !

فما عساهم يفعلون إذا وجدوا القرآن ، يقدم لهم كونا عجيبا من الكلمات ، معدود المواضع لكل مفردة من مفرداته ، بمقدار ما يحتاج أى أحد من الناس ، أن ينظر في مواضع أى مفردة قرآنية .

ولقد رأينا أن المواضع هى همزة النور ، التي جعلها الله سبيلا واحدا للهداية الإلهية الواحدة في آيات الله الكونية وآياته القرآنية ، وإن كان القرآن مهيمنا على حدود الأشياء ، وليس داخلا في حدودها .

فلننطلق مع المسار القرآنى ، للفعل القرآنى السابق ، وهو قوله تعالى (وَوَضَعَ) ، بما ينطلق معه في مواضعه ، من اشتقاقاته التي سنراها منذ الآن ، وترى كيف تجدد وجودنا ومعرفتنا ، وتصلنا بمزيد من العلم ، مع كل جديد من المواضع ، ونحن نجدُها – أوَّلاً – تحدِّثنا عن آيات الله القرآنية كما سنجدُها – ثانيا – تحدِّثنا عن آيات الله الكونية !

٦- المواضع في آيات الله القرآنية :

يقول الله تعالى :

١- **يحرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**

١٣ : المائدة

ويقول :

٢- **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ويَقولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .**

٤٦ : النساء

ويقول :

٣- **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ .**

٤١ : المائدة

إن كلمة **مَوَاضِعِهِ** ترتبط بمسارها ، فتجدِّدُ لنا وجها من وجوه العلم ، خاصًّا بكل موضع من مواضعها ، في الآيات الثلاث السابقة .

فالموضع الأول : يُحَدِّثنا عن **النِّسْيَانِ** ، وهو لا يكون إلا في العقول والضمائر

والموضع الثاني : يُحَدِّثنا عن « **العصْيَانِ** » وهو لا يكون إلا في الفكرِ والعملِ

والموضع الثالث : يُحَدِّثنا **عن** سماع الكذب والمَيْل لأهله ، والإعْراض عن الصدق والصادقين ، في كل زمان ومكان .

إن كلمة « **مَوَاضِعِهِ** » كلمةٌ واحدة يَسْطَعُ نورُها في كل موضع من مواضعها الثلاثة السابقة ، فيرْبِطُ أبصارَنَا بهذه الوجوه الثلاثة من العلم ، وهى ترتبط بسياقِ كلِّ موضعٍ منها ، واذا نحن نجد - كُلاًّ - منها جديدا ، وحاملا معه الفارق بينه وبين غيره ، من وجوه العلْم في القرآن كله ! !

وهكذا الشأن في أى قدر من الكلام في القرآن ، نرصد مطالع نوره ، في ارتباطه بكتاب الله في جملته الواحدة ، على ما سبق بيانه ، من تجديد العلم وزيادته زيادة مطردة .

والزيادة المطردة تعني التخصيص ، في كل قدر جديد نزداده من العلم !

فهكذا ندرك كيف أن مواضع الكلمات القرآنية آحاد جميعاً من حيث اختصاص كل منها بهدف جديد !

هكذا تتجدد المعلومات بتجدد المواضع بأى قول قرآنى ، والقول واحد في جملته وتفصيله .

ولقد سبق أن تدبّرنا قوله تعالى :

[وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ] . ٥١ : القصص

والمقصود بقوله تعالى « وصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ » أى ارْتَبَطَ إفراد القرآن وإجماله ربْطاً وثيقا ، حتى يكون كلُّ موضع لكل مفردة من مفرداته ، أياًّ كانت حاجة أيِّ إنسان إلى أى حرف أو كلمة أو جملة ، موضعا ، نافعا نفْعا ثابتاً لا يتغيَّر أبدا ، مهما تتصل فترات التاريخ !

ولقد بينت لنا كلمة مواضعه كما هى في آياتها الثلاث السابقة ، أن الموضع في القرآن يربط في المقام الأول ، بين اليقين القرآني ، وبين معرفتنا ، ثم عملنا ثم أخلاقنا ، كما رأينا في ذكر النسيان ، في مجال تحريف الناس لكلام الله عن مواضعه .

ويتْبَعُ النسيانَ – بعد ذلك – العصيانُ .

ويتبع العصيان – بعد ذلك – التمرُّدُ على القيم الأخلاقية التي جاء بها شرعُ الله ، وتمّتْ بها كلمته !

فلننظر – إذن – كيف نجد المواضع في آيات الله الكونية كما يخبرنا بها كلام الله !

٧- المواضع في آيات الله الكونية :

يقول الله تعالى :

١- والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .

٧ : الرحمن

ويقول :

٢- **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ .**

٣٦ : آل عمران

ويقول :

٣- **والأَرْضَ وَضَعَهَا للأَنَامِ . فيهَا فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ . والْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ والرَّيْحَانُ .**

١٠-١١-١٢ : الرحمن

ويقول :

٤- **إنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدى للْعَالَمِينَ .**

٩٦ : آل عمران

وهكذ نجد خطاًّ متصلا للفعل الدالِّ على الوضْع والموضع ، يخصنا بوجه معين من وجوه العلم ، كلما وصلنا إلى موضع جديد من مواضع هذا الفعل في القرآن كله ، وهكذا الشأن في ارتباط مفردات القرآن جميعا ، بجملته الواحدة ! ! إنه ارتباط هادف أبدا ، بناء دائما ! !

١- ففي سورة الرحمن بالآية السابقة ، ومن خلال نظرنا في ارتباط الفعل « **وَضَعَ** » بسياقه بهذه الآية ، علمنا أن الله رفع السماء « **ووضع** » الميزان .

٢- وفي سورة آل عمران بالآية السادسة والثلاثين ، ومن خلال نظرنا في ارتباط الفعل « **وَضَعْتُها** » والفعل « **وَضَعَتْ** » بسياقهما بهذه الآية ، علمنا أن كل امرأة تضع أولادها من مواضعهم في الرحم ، بمواضعهم في الحياة ، « والله أعلم بما وَضَعَتْ » .

٣- وفي سورة الرحمن بالآية العاشرة ، ومن خلال نظرنا في ارتباط الفعل « **وَضَعَهَا** » بسياقه بهذه الآية ، علمنا أن الله ، وضع الأرض للأنام ، ثــم تتابعت الآيات ، تبيِّن أن موضع الأرض ، كما قَدَّرَهُ الله ، هو الذى هيأها للإثمار ، فضمن لنا بها منافعنا المادية ، التي تؤدى بنا بعد انتفاعنا الماديِّ بها ، أن نستخلص منها الأفكار ، والمعاني الدالة على أن الله تعالى ، هو ربُّ العالمين .

إنها أربعِ مواضع لبيانٍ قرآنيٍّ دالٍّ على الوضع وعلى الموضع ، قدَّمت لنا معلومات ذاتَ أربعة وجوه .

أولها : عن رفع اللهِ السماءَ ، ثم تحقيق الموضع الخاص بالميزان الشامل الذى نزنُ به كلَّ شيءٍ .

ثانيها : عن وضع النساء حملَهُنَّ .

ثالثها : عن جعل اللهِ الأرْضَ بموضعها الذى قدره لها ، وما يتبع ذلك من إثمارها ووفرة الغذاء فيها .

رابعها : أن الحرمَ المكِّيَّ وُضِعَ من أجل بركة الله للناس وهدايته إياهم .

إنه مَسَارٌ واحدٌ يربطُ بين مواضع فعل قرآني واحد ، وبين ارتباط كل موضع منها بسياقه من كل آية نجده بها .

والنتيجة ، معلوماتٌ جديدة ، تحمل معها الفارق بينها وبين ، كل معلومة أخرى ، بكل موضع آخر .

فهكذا يجدِّدُ القرآن معرفتنا ووجودنا ، تجديدا متواصلا ، إذا تدبرنا أى مفردة من مفرداته ، في ارتباطها بكل موضع من مواضعها في القرآن كله .

ويا له من ارتباط معجز ، يقدم لنا حدا من الحدود الفاصلة – بين كلام الله وكلام البشر ، وَيَضَعُ الإلحاد والملحدين في محنة – لم يكونوا يحسبون حسابها .

٨- المواضع بين آيات الله القرآنية وآياته المادية :

وهنا نتذكر ما سبق بيانه من العمل الذى تحققه مواضع الكلمات القرآنية ، في تجديد معرفتنا ووجودنا تجديدا ، متواصلا ودائبا ، كما يقلب الله ماء البحار فلا يَأْسَنُ الماء ولا يركد !

فقد استخلصنا من المواضع الثلاثة السابقة ، التي بينت لنا هيمنة كلماتِ الله على تذكُّرنا للحقيقة حتى لا ننساها ، ثم على طاعتنا لله حتى لا نَعْصِيَ الله ، ثم على وجوب خضوعنا للقيم التي جاءتنا بها شريعة الله .

فإذا كانت المواضع في آيات الله الكونية ، تُمدُّ أجسامنا بالغذاء ، وحاجات

الإبقاء على الجنس ، ثم تمد لنا في آفاق الفكر ، تبعا لذلك ، فإن المواضع في آيات الله القرآنية ، تعمل في أفهامنا – ابتداءً – ثم تنطلق بالأفهام فتربطها بالأعمال الصالحة ، ثم تضبط الأعمال الصالحة ، بالأخلاق الفاضلة ، التي لا مصدر لها إلا كلام الله ، وما طبقه في الواقع العملى من السنة العملية والقولية ، لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

نقول ذلك – معا – حيث وجدنا النعم المادية ، تقوم على مواضع يتحقق بها النفع لوجودنا المادى كما نحصل على الغذاء ، من ثمار الأرض ، ونحصل على العطر من ريحانها ، وما في حكمه من الورود والزهور ، ثم نستخلص من النفع المادى ، المعاني والأفكار ، كما يبين لنا ذلك قوله تعالى .

والأَرْضَ وَضَعَهَا للأَنَامِ . فيهَا فَاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ . والْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ والرَّيْحَانُ .

١٠-١١-١٢ : الرحمن

ويتبين لنا ذلك من أن مواضع نعم الله في أنفسنا وفي الكون المادى تقدم لنا الغذاء ، والمنافعَ المادية ابتداءً ثم تعقِّبُ على ذلك كله هذه الآية .

فَبأَىِّ آلاَءِ رَبكُمَا تُكَذِّبَانِ .

١٣ : الرحمن

فتدفعنا إلى التفكير ، بعد أن بدأنا بالتزود بنعم الله الكونية ..

كيف عبد الملحدون الماديُّون المادَّة ، وهم لا يعلمون حتى الآن شيئا عن مواضعها الثابتة النفع كما يعمل كل من الشمس والقمر والسحاب والأمطار على تحقيق إرادة الله فيها إلى يوم القيامة ! مع أن مواضع المنتجات البشرية من كلمات ومصنوعات مادية ، لا ثبات لمنافعنا بها أبدا ! ! مما يبين لنا القول الفصْل بين كلام الله وكلام البشر ، ثم صُنْعِ الله وَصُنْعِ البشر !

والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

مع العلم والإعجاز
في مصادر الإحكام والتفصيل

مصادر الإحكام والتفصيل ، نجدُها في القرآن ، متحققة في المصطلحات الدَّالَّة عليها ، كما نجدُها في التطبيق العمليِّ لهذه المصطلحات ، في كل ارتباط مُحْكَمٍ بين أي قول قرآني ، وبين القرآن كله ، كما سَبَقَ أن تبيَّن لنا ذلك ، بما لا نحتاج بعده إلى بيان .

وهكذا ندرس – معا – المصادرَ القرآنية الدالَّةَ على الإحْكَامِ والتَّفْصِيلِ ، فَنَجدُ لذلك ثلاث حقائق .

الحقيقة الأولى :

خاصَّةٌ ببيان الارتباط في كل قول قرآني ، بالقرآن كله في جملته الواحدة ، وأن النظام الكونيَّ نفسَهُ قَدْ بنَاهُ الله هذا البناء ، لنرى آياتِ الله الكونية ، بنورِ آياتِهِ القرآنيَّة .

الحقيقة الثانية :

تقوم على أن « فواتح السور » ، كما رأينا من قبل (آلر) وهي من فواتح السور ، تُجْمِلُ لنا في مواضعها الخمسة ، المصطلحات والتطبيقات ، الخاصة بالإحكام والتفصيل .

ولا شك في أن كلَّ زيادة في دراسة « **فواتح السور** » ، تزيدنا علما بإحكام القرآن وتفصيله ، كما سنرى ذلك في موضعه من هذه الصفحات .

الحقيقة الثالثة :

نجدها في المعاجم القرآنية التي استُخْلصت من كلمات القرآن ، وهذه المعاجم من أهم مصادر الإحكام والتفصيل ، وأهم ما يرشدنا إلى ما فيه من العلم والإعجاز معـاً .

والسُّنَّةَ المطهَّرة امتدادٌ للمصدر القرآني ، الدَّالُّ على الإحكام والتَّفْصِيل ، فهي – بَعْدَ القرآن – أهمُّ المصادر الدالَّة على هذا العلْم .

ثم نجد في أقوال الصَّحابة ، مصدراً عظيمَ الأهمية ، ووثيقَ الصِّلَةِ باتِّبَاع كتاب الله ، وَسُنَّةِ رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأخيراً نجد في جهود العلماء القُدامى الذين تخصَّصوا لعلوم القرآن منهلا عذْبا للباحثين في إحْكَام القرآن وتفصيله .

وهكذا نرد المصادر القرآنيَّة ، للإحكام والتفصيل - كما سبق من قبل - إلى ثلاثة أنواع ، أولها القرآن كله ، وفيه المصادرُ الشاملة للإحكام والتفصيل ، وثانيها فواتح السور ، وثالثها المعاجم القرآنية .

أولا – المصادر الشاملة لإحكام القرآن وتفصيله :

والمقصود بالمصادر الشاملة هي كلُّ حرْفٍ وكلُّ كلمةٍ وكلُّ جُمْلَةٍ في كلِّ موضعٍ قرآني ، نجد به أياًّ من هذه المفردات السابقة الذكر ، أو نتذكَّرها ، فإذا هي مرتبطةٌ بوجهٍ مُتَفَرِّدٍ من وجوه العلم ، في القرآن كله !

وهذا – كما رأينا تطبيقه العملي من قبل – هو العلم والإعجاز معا ، لإحكام القرآن وتفصيله .

فما من حقيقة يدعو إليها القرآن ، إلا وهي متحقِّقةٌ في مبناه ومعناه معاً ، كما ننظر في آيات الله الكونية ، فنرى الوردةَ العطرةَ لا تُخبْرُنا بالعطْر بمصْطَلَحٍ نظريٍّ ، وإنما تخبرنا به بواقع عملي ، نستخلص فيه المصطلح العِلْميَّ .

إن القرآن له نظامٌ عمليٌّ يبيِّنُهُ لنا إحكامُ القرآن وتفصيلُهُ ، بعدالةٍ وصدْقٍ في بناء القرآن نفسه ، يتفق مبناه ومعناه !

أما حقائق المصطلحات العلمية في كلام البشر ، – إن وجدت – فهي مجرد بيان للعلم النَّظَريِّ ، الذي ينشق في العمل عن العلم،وفي التطبيق عن المصطلح !

وفواتح السور وثيقة الصلة ، بالتدريب العملي على الإحكام والتفصيل ، شأنها في ذلك شأن كل قول قرآني ، في ارتباطه بالقرآن كله ، في جملته الواحدة ، إذ تعمل كل مفردة في القرآن ، عمل المصباح الذي يشرق نوره على ما حوله من المفردات ، فنرى وجه الصلة ، بين الإفراد والإجمال ، ونزداد علما بازدياد نظرنا في مواضع المفردات .

ذلك أن كل أحد منا يشعر بالعجز عن فهم معاني « **فواتح السور** » في ذاتها ، بينما يتيَسَّرُ لكل إنسان أن يفهم كيف تتألق مصابيح كل فاتحة منها ، بموضعها الجديد في أوائل السور ، فإذا نحن أمام بابٍ جديد من أبواب العلم .

وهكذا ندرك أنَّ علينا أنْ ننظر إلى ما تؤدي إليه فاتحة السورة مما يتبعها في سياقها ، فنعلم أنَّها مَطْلَبٌ في ذاته ، وأن مفردات القرآن ، منها ما يبيِّن لنا الطريق إلى كل موضع جديد من مواضعه في السياق ، وإن كنا لا نعلم له معنى

في ذاته كما هو شأنُ فواتح السور ، أو حروف العطف والوصل والاستفهام ، كما أن منها ما نعلم معناه في ذاته فعلينا أن نبحث في معناه من جهة ، كما نبحث في ارتباطه بغيره من المفردات من جهة أخرى ، وذلك مثل أي كلمة بتمامها أو جملة متعددة المواضع .

ففواتح السور تؤكد لنا ناحية الارتباط بين الإفراد والإجمال ، بحكم عجزنا عن فهم معنى فواتح السور في ذاتها .

وسائر المفردات القرآنية من حرفٍ أو كلمة أو جملة لكل منها معناه الذي نعرفه ، ولكنَّ لها – مع ذلك – في ارتباطها بكل موضع نجدها به – بين مفردات القرآن كله ، نوراً ساطعاً يَهْدينا إلى مزيد من العلْم بمقاصد القرآن ، التي يخص كل جديد منها موضعا جديدا ، من هذا الارتباط بين إفراد القرآن وإجماله ، وهذا كله يدخل ضمن المصادر القرآنية الشاملة للإحكام والتَّفْصيل .

* انظر ما سبق بيانه من قبل عن اختصاص مواضع آيات الله الكونية بغذاء الأجسام ، ثم إمداد الأفهام بمصطلحات العلوم ، بينما آيات الله القرآنية تقوم في مواضعها على تذكير الناس ، ودعوة العصاة إلى طاعة الله ، وبيان حقيقة القيم والأخلاق التي جاء بها شرع الله .

ثانيا – فواتحُ السُّوَر بين المصادر القرآنية للإحكام والتفصيل :

إن أعظم قضية ، تثيرها « **فواتح السُّوَر** » ، هي أن كثيرا من الناس ، يبحثون في « **فواتحُ السُّوَر** » عن المعاني ، مع أن فواتح السور قائمة على حروف مجردة .

والحروف المجردة ، تعمل في آفاقٍ ، لا يعلمها البشر .

إن الحروف تجريدٌ للمعاني ، وإطلاقٌ للحدود ، بينما الحروف في الكلمات ، وَصْلٌ بين العقل الإنساني ، وبين النوافذ التي نرى من خلالها ما تحمله كل كلمة في معناها من المقاصد ، وما تتصل به كل كلمة وكل جملة وكل حرف في مواضعها بين الكلام من الأهداف .

إن الصِّفْر بين الأرقام ، يعمل وهو على يمين الأرقام على زيادتها زيادةً كبرى .

أما إذا كان الصِّفْرُ على الشِّمال فهو كامن في قوته الرهيبة ، مُتَرَقِّبٌ لحظة العمل !

بينما نحن نرى الصفر في وسط الأرقام ، يصل كماً بكمٍّ ، ومقداراً بمقدار .

ولننظر في رقم الواحد (١) كما يرمز إلى أي شيْ من أشياء حياتنا .

ولننظر كيف نزيد الواحد صفرا على يمينه فإذا هو عشرة (١٠) ونزيده صفرين فإذا هو مائة (١٠٠) وثلاثةُ أصفار تجعله ، ألفاً (١٠٠٠) وهكذا حتى يكون مليونا أو ملايين .

ولننظر في هذا الواحد كيف نجد الصفر على شماله ، كأنه قذيفة لم تنطلق من عقالها (٠١) .

إن بعض الناس يظُنُّ أن الصِّفْرَ على الشِّمال لا قيمةَ له .

ولكن الحقيقة أن الصفر على الشِّمال ، قوَّةٌ جبَّارَةٌ ، ولكنها منطويةٌ على ذاتها !

وليس هذا بقليلٍ في الحقيقة على إطلاقها ! !

ثم نعود إلى الآحاد ، لنرى كيف يتوسَّطُها الصفر ، فإذا أحد عشر (١١) تصبح مائة وواحدا (١٠١) وكلما زادت بينهما الأصفار ، زاد العدد وزادت المعدودات .

وهكذا يمكن أن تكون (١٠١) ألفا وواحدا بزيادة صفر جديد في باطن المقدار (١٠٠١)

فواتح السُّور تعلمنا حقيقة الحروف ووظائفها

والجديد هنا أن الحرف أي حرف بين الحروف جميعا ، هو كالصِّفر بين الأرقـام ! !

الحرْفُ يكون مَعْنىً مجرَّداً في ذاته ، أي قوة هائلة كامنة في ذاتها ، ولكنها متأهبة لتفعل أفعالها ، إذا انطلقت إلى مجالات عملها داخل الكلمات ، أو بين الكلمات ، بل وفي بيان السلب والإيجاب في فعل الكلمات .

ومع ذلك كله فنحن البشر لا نعلم معاني الحروف ، إلا حين نجدها في كلمات فنعلم معاني الكلمات .

ولنتدبر قوله تعالى :

١ - (ص والْقُرْآن ذِي الذِّكْرِ) ١ : ص

وقولَه :

(ق وَالْقُرْآن الْمَجيدِ) ١ : ق

وقولَه :

(ن والْقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ) ١ : القلم

وقد يسأل سائل : ما معنى (ص) و (ق) و (ن) .

ومن الجواب ، أن معنى هذه الحروف ، هو « العدالةُ المطلَقَةُ ، والتَّجْريدُ الشامل ، حيث الوصولُ إلى فعْل الحروف جميعا ، وهو فعلٌ واحدٌ في شُمُوله حيث زيادةُ المعنى تتحقق بزيادة المبنى ، وحيث الوصْلُ بجديدٍ مع كلِّ وصْلٍ لكل حرف بكل قول ، فاذا الكثرة وثيقةُ الصلة بالتنوُّع الذي تحتاجه عقولنا المحدودةَ والحقيقة واحدة في ذاتها ، وحيث وضعُ العلم البشري في حدوده ، فمن قال لا أدري فقد أفتى ، أي رد العلم إلى من هو أعلم منه بين الناس ، حتى ينتهي العلم والتعلم جميعا ، إلى أصل واحد محيط بكل الأصول ، هو الله وحده لا شريك له .

وقد يسأل سائل : ما الهدفُ والمقصِد من (ص) و (ق) و (ن) في أوائل سُوَرها !

وبهذا السؤال نَصِلُ فِعْلاً إلى حدود قدرتنا البشرية على الفهم ! !

ذلك أن مما يظهر أمامنا ظهورا عظيما ، أن « **فواتح السور** » تعمل في مجالات الفعل بين الحروف والكلمات والجمل ، فإذا نحن نجد أفعالها قريبةً من حدود رؤيتنا وفهْمنا ، بينما الذي يريد أن يعرف معاني الحروف ، عليه أن يعرف معاني الأرقام ، أو معنى الصفر بصفة خاصة ! !

إن فواتح السور ، فيما نعلم ، والعلم كله لله ، تَعْمَلُ بمبناها ، فترينا كيف تعمَلُ الكلمات بمبناها ومعناها معا ! !

إن الذي يريد أن يعرف معنى (ص) في هذه الآية (**ص والْقُرْآن ذي الذِّكْرُ**)

١ : ص

عليه أن يَعْرِفَ معنى (الواو) في قوله تعالى : [**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**]

أو يعرف معنى الصفر الذي يتوسَّطُ الرقم (١١) فإذا هو (١٠١) .

إننا هنا نجد زيادةً في العمل والأداء ، فإذا الزيادة في المعنى تأتي – تبعا لذلك – في زيادة المضمون العام ، لا من زيادة القيمة الثابتة للصفر أو القيمة الثابتة لحرف (الواو) ! !

ويجدر بنا هنا أن نعلمِ أن الحروف باعتبارها أصواتا مجردة ، هي أصفارٌ ذاتُ أنواعٍ متعدِّدة ، بينما الصِّفر في الأرقام ، صفرٌ واحدٌ يَدُلُّ على همزة الوصل ، بين العدم والوجود ، وبين الموت والحياة ، كما خلقهما الله تعالى .

ندرك هذا المعنى ، حين نعود إلى الصَّوْتِ الإنسانيِّ ، فنجده لا يأتي بالمعنى من تلْقاء ذاته ، وإنما يتحقَّقُ المعنى في أفهامنا ، من الربط الإلهي المعجز بين الحروف وبين الكلمات ، ثم بين الكلمات وبين الوقائع الكامنة في وجودنا البشري ذاته ، وهو وثيق الصلة بوقائع الكون والحياة .

وهكذا تدرِّبُنَا فواتح السور ، على إحكامِ القرآن وتفصيله ، فإذا نحن لا نُخطيءُ ، فنظنُّ أن أي قول قرآني ، يتغيَّرُ بتغيُّر مواضعه ، وإنما نحن نجد كل

قول ، سواء كان حرفا أو كلمة أو جملة ، قولا ثابتا في ذاته ، ومؤدِّياً إلى زيادة العلم ، بزيادة ارتباطه ، إذ هو مفردة بين المفردات ، التي تظهر لنا كلما احتجنا إليها وبحثْنا عنها ، بسياق الكلمات في كل موضع نجد به أي قول قرآني ، وقد سَطَعَ نُورُه بَيْنَ أنوارها !!

ولقد حاول برتراند رسل أن يجد إحكاما وتفصيلا في كلام البشر*، كما أن هناك إحكاما وتفصيلا في الرياضيات*

وأقرب مثل لذلك أننا حين نعد من واحد إلى عشرة يكون الأمر هكذا ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ فالذي ينظر إلى موضع كل رقم بين الأرقام جميعا لا يستطيع تغيير هذا الموضع ، كما لا يستطيع تغيير قيمة الرقم ذاته ولا ارتباطه المحكم بالأرقام جميعا .

ولكن « رسل » فشل لأنه لم يقرأ القرآن ولم يعلم أن ذلك لا يكون إلا بكلام معلوم الجملة للقائل ، ومعلومةٌ جملةُ الوقائع الخاضعة له ، ولا يَقْدِرُ على ذلك أحد غير الله .

لذلك قال تعالى عن كلامه (**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**) أي علم سبحانه بجملتها (**ثم فُصِّلَتْ**) أي خُصِّصَت مواضعُ المفردات داخل إطار الجملة المعلومة ، وكذلك شأننا مع الأرقام فإن جهلناها فقد علمها الله ، ووضعنا في إطار أعداد قد أحصاها هو فقال تعالى : « **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوها** » .

٣٤ : إبراهيم

وهكذا نعد فلا نستطيع الكذب في العدِّ ، ويظهر هذا الإحكام والتفصيل في الأعداد ، ولكننا لا نستطيع أن نقرر جملة مطلقة ، وسائر إحصاءاتنا تعمل في حدود النسب وحدها !!

إن العَد يدُلُّ على المعدودات في الكون والحياة ، وهذه المعدودات قد جعلها

---

* برتراند رسل فيلسوف انجليزي وعالم في الرياضيات ، ولد سنة ١٨٧٢ للميلاد وأمضى حياته في هذه المحاولة المذكورة . . أنظر الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٥٦ وما بعدها .

وانظر كتابه أصول الرياضيات ص ٨٨ ، ٨٩ جـ ٢ ترجمة د. محمد مرسي أحمد ، د. أحمد فؤاد الأهواني ، طباعة دار المعارف بمصر .

الله متّصِلَةً مترابطةً في قوة وإحكام وتفصيل ، فلذلك كان العدُّ متصلا ولا يصلح إلا كذلك ، أما كلام البشر فيمزقه الكذب والخطأ ويصعب تصويبه ، لأنه يقوم على المعاني التي يصعب علينا اكتشاف أخطائها ! !

إننا حين يكفُّنا الله عن العلم بمعنى (**ص**) ومعنى (**ق**) ومعنى (**ن**) يصلنا بعمل كل منها حيث ترتبط الحروفُ بالكلمات ، والكلماتُ بالجمل ، والجملُ بالآيات ، والآياتُ بالسُّور ، والسُّورُ بالقرآن كله !

وأعظم دليل على ذلك أن قوله تعالى (**ص**) لا يَدْخُلُ في تكْوين أي كلمة من كلمات هذه الآية ، (**ص والْقُرْآن ذي الذِّكْر**) وإنما يُخبرنا عن ذاته وكفى ، ويبيِّن لنا أن الإيمان بالغيب ضرورة لا بُدَّ لنا منها بدليل أن الحرف (**ص**) نراه لا يعمل في تكوين أي كلمة من كلمات الآية التي نجده مفردة بين مفرداتها ، ومع ذلك فهو موجود في ذاته ، كما هو موجود في تكوين أكثر كلمات سورة (**ص**) .

والدَّليل على ذلك ، أن الله تعالى ، يفتح لنا وجها آخر من وجوه العلم ، في قوله تعالى : (**ق وَالْقُرْآن المَجيدِ**) حيث نعلم أن (**ق**) حرفٌ قائمٌ بذاته ، ولكننا نجده يعمل ضمْن الحروف التي تَتَكَوَّنُ منها كلمةُ كلمة (**الْقُرْآن**) في الآية الأولى من سورة (**ق**) .

فكذلك يتبيَّن لنا كيف أن (**ص**) عملت عملا واحدا هو إخبارنا عن وجودها في ذاتها ، كما كان الأمر بأول سورة (**ص**) .

وكذلك يتبين لنا أن (**ق**) تعمل عملين معا في آيتها السابقة .

والعمل الأول هو وجود **ق** في ذاتها والعمل الثاني هو عملها بين حروف كلمة (**الْقُرْآن**) ! !

فماذا – إذن – عن فاتحة السورة (**ن**) بقوله تعالى : (**ن والْقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ**) !

إن فاتحة السورة (**ن**) تعمل عملا جديدا له وجهان كذلك !

الوجه الأول هو وجود « **ن** » في ذاتها والوجه الثاني هو أنها علامة الرفع في الفعلِ المضارع (يَسْطُرُونَ) وعلامة الرفع تكون هي الحرف (**ن**) إذا توفَّرَتْ شروطُ وجودها ، بكلِّ فعْلٍ مُضَارعٍ .

كما أن هذه العلامة وهي الحرف (**ن**) لا تعمل هذا العمل ، إذا غابت شروط عملها في الأفعال المضارعة .

فهكذا يظهر لنا الفرق بيْنَ وجود الحرف (**ق**) بكلمة (**الْقُرْآن**) وبَيْنَ وجود الحرف (**ن**) بكلمة (**يَسْطُرُونَ**) ، وبين امتناع الحرف (**ص**) عن العمل بأي كلمة من كلمات قوله تعالى (**ص والْقُرْآن ذِي الذِّكْر**) مع أنه موجودٌ للدلالة على ذاته في هذه الآية نفسها !

وهكذا يجدد كل قول قرآنيٍّ ، معلوماتنا ، بتجدُّد مواضعه ، التي نجده بها ، في القرآن كله ! !

فليست فواتح السُّوَر كالصفر على الشمال مجرَّدَ قوةٍ كامنة ، ولكن فواتح السور جميعا لها – في ذاتها – **تدريبا عمليا على إحْكَام القرآن وتَفْصيله ، من وجوهٍ** كثيرة .

فواتح السور تدرِّبُنا على النواحي العملية في إحكام القرآن وتفصيله .

١ – ومن هذه الوجوه أن من فواتح السور ما يختصُّ بالتَّدْريب العمليِّ على إحكام القرآن وتفْصيله ، كما هو الشأن في فواتح السور (**ص**) و (**ق**) و (**ن**)

٢ – ومن هذه الوجوه ، ما يرتبط من « **فواتح السُّور** » بكلمات دالة على الإحكام والتفصيل ، كما رأينا في المواضع الخمسة لفاتحة السورة (**آلر**) ، وقد سبق أن تدَبَّرْناها – معا –

وكما نجد في فاتحة السورة (**آلم**) بمواضعها الستة وهي :

١ – (**آلم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ**) .

١–٢ : البقرة

٢ – (**آلم . الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**).

١–٢ : آل عمران

٣ – (آلم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ) .

١–٢ : العنكبوت

٤ – (آلم . غُلِبَتْ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

١–٢–٣ : الروم

٥ – (آلم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) .

١–٢ : لقمان

٦ – (آلم . تنزيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فيه مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) *

١–٢ : السجدة

إننا نلحظ أن (آلر) مفردة من مفردات كل آية نجدها بها .

وهذا أمر جديد في ذاته .

كما نلحظ أن (آلم) آية قائمة بذاتها في أول كل سورة وجدناها بها .

وهذا أمر جديد في ذاته .

ومع تفرد كل أمر من هذين الأمرين ، يظهر لنا ما يختص به كل منهما من الحقيقة الكامنة فيه .

وهذا باب عظيم ، من أبواب التَّدْريب العمليِّ على الإيمان بالغيب .

واتِّصالُ (آلر) بالإِحْكام والتَّفْصِيل من حيث النص على ذلك قد سبق أن تدبَّرْناهُ – معا – ومنه قولُه تعالى :

١ – [آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُن حَكِيمٍ خبيرٍ] .

١ : هود

وقوله : [آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيم]

١ : يونس

* ينبغي لنا أن نتذكر هنا أن حقيقة الارتباط بين أي مفردة قرآنية ، نتدبَّر مواضعها وبين سياقها في كل موضع نجدها به ، هي أنها تذكِّرنا بالفرق بين سياقها بكل موضع ، وسياقها بغيره من المواضع ، وبذلك نشهد تجدُّد المعلومات

ومن ذلك أن « آلم » كالمصباح الواحد الذي ينير لنا بكل موضع جديد ارتباطا بمعلومات جديدة .

وفاتحةُ السُّورة (آلر) تعمل في وصل أفهامنا بمواضعها ، التي تتَّصل جميعاً في خطٍّ بياني ، تنطلق معه إلى ما يتَّصل بكل موضع وحدَهُ ، من بيان آفاق الإحكام والتفصيل نصاً ومَعْنىً معا ، كما سبق أن نظرْنا في ذلك من قبل .

وهنا نجد (آلر) مصابيح من الحروف المجرَّدة ، تُنيرُ لنا الطريق ، إلى الكلمات الدالَّة على الإحكام والتَّفْصيل .

والحروفُ لها معانيها في علم الله تعالى ، وإن كُنَّا لا نَقْدِرُ – **نحن البشر** – على أن نعلم كُلَّ معنىً من معانيها .

وهنا نصل إلى وجه آخر ، من وجوه العمل ، الذي تؤديه « **فواتحُ السُّور** » .

٣ – ويتصل هذا الوجه ، بكلماتٍ ذاتِ معانٍ لا تَخُصُّ **الإحْكَامَ والتَّفْصِيلَ** من حيث المعنى ، وإنما تُطَبِّقُ **الإحْكَامَ والتَّفْصِيلَ** بالواقع العملي .

ومن ذلك قوله تعالى :

آلم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

١–٢ : لقمان

وقوله تعالى :

آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

١ : يونس

فإذا نحن نظرْنا إلى أنَّ (آلم) آيةٌ بذاتها ، بينما (آلر) مفردةٌ من مفردات الآية الأولى من كل سورة نجدها بها ، علمنا ما سبقت الإشارة إليه في ذلك .

أما إذا نظرْنا إلى هذه المصابيح الأربعة من كلمات قوله تعالى : (**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**) فهنا يرتبط المبنى بالمعنى ، في قضية الإحكام والتفصيل ، كما نجد التَّدْريب العمليَّ على التَّفْصيل والإحكام ، في إفراد (آلم) و إجمال (آلر) .

ولنمعن في النظر في قوله تعالى :

٢ – [**آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلَى رَجُلٍ منهم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وبشِّر الذين آمَنُوا أنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ**

الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ] .

١–٢ : يونس

ثم قوله تعالى :

٢ – آلَم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ .

١–٢–٣ : لقمان

إن الهدف من جعل (آلر) ضمن الآية الأولى بسورة يونس ، **يظهر في** المعاني التي نجدها بأول هذه السورة ، حيث الكلامُ متصلٌ عن إرْسَال الرسول صلي الله عليه وسلم إلى الناس كافة لَيَدعُوَهُم إلى الإيمان .

والإيمان أصْلٌ اعتقاديٌّ ، يجمع الناس جميعا على حقيقةٍ واحدة .

فاتَّفَقَ مع ذلك ، هذا الربطُ الظاهر بين (آلر) وبين الآية التي نجدها بها هنا .

أما سورة لقمان ، فقد جاءت بها (آلم) آيةً تامة في ذاتها ، لتبين لنا الحقيقة التي تَتَبْعُها هنا ، وهي معانٍ تدلُّنا على الإحْسَان .

فلما كان **الإحْسَانُ** مرتبطاً بالعبادة ، وكانت العبادةُ فروعاً عمليةً للإيمان ، والناس متفاوتون في إحْسَان أعمالهم وعباداتهم ، فقد اتَّفَقَ مع ذلك أن ننظر إلى (آلم) فنجدها آيةً قائمة بذاتها ، لنشْعر بالتخصيص في أول سورة لقمان ، كما شعرنا بالشمول في أول سورة يونس .

ولقد سبق أن نظرْنا إلى ما تعدَّدَتْ مواضعه ، من الكلمات والجمل بالآيات التي ارتبطت بمواضع آلر وعلمْنا وجوه العلم والإعجاز في ذلك ، وكلها تَدُلُّ على الإحكام والتفصيل نصاً وتطبيقاً معاً .

فلننظر في مثل ذلك ببعض مواضع (آلم) ، وقد سبق أن وضعنا خطين تحت كل من هذه المفردات .

إن قوله تعالى :

الكتابُ لاَ رَيْبَ فيه بالآية الثانية من سورة البقرة يتبعه قوله تعالى (**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**) .

أما قوله تعالى :

الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فيه بالآية الثانية من سورة السجدة فقد تَبِعَهُ قولُه تعالى **(من رَّبِّ الْعَالَمِينَ)** .

فهذان الموضعان لهذه الجملة القرآنية السابقة ، يرتبط بكل منهما وجْه مُتَفَرِّدٌ من وجوه العلم ، كما هي القاعدةُ العامَّةُ بالإحكام والتفصيل .

ولكننا نجد المصدر الخاصَّ بهذا العلم والإعجاز ، هنا ، كامناً في تجديد المعنى ، دون النص على (المصطلح العلمي) فهذا تطبيقٌ عملي ، بينما فاتحة السورة ، (آلر) تصلنا دائما بالمصطلحات العلمية ، لإحكَام القرآن وتفصيله .

ومن شاء أن يتدبَّر مثل ذلك في قوله تعالى **(اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)** بالآية الثانية من سورة آل عمران ، ثم بالآية (٢٥٥) من سورة البقرة فليفْعَلْ .

ثم نجد (آلم) بأول سورة العنكبوت تدعونا إلى الإيمان ، وإلى الصبر عليه ، مهما نصادف من المحن في سبيل الله .

ثم نجد (آلم) في أول سورة الروم مرتبطة بما يبين لنا أن الروم إذ كانت مغلوبة للفُرْس على مدى سنين كثيرة ، ولا أمَلَ لأحَدٍ من الناس في انتصارها عليهم ، قد تَحَدَّى القرآن المفاهيم البشريَّة ، وأخبرنا أن الروم سيغلبون الفرس ، في مستقبل يكْمُنُ وراء عدد من السنوات .

وقد تحقق هذا الأمر في الواقع العملي كما هو مشهور في تاريخ العالم * .

فهذان المثنيان ، يبيِّنان لنا الهدف العملي لإحكام القرآن وتفصيله ، وهو ظهور المعاني القرآنية ، بين المصابيح الهادية إليها من مفردات القرآن ، كما هي ظاهرة في الحرف والكلمة والجملة وفي تعدُّد المواضع أو غير تعددها بكلٍّ من ذلك !

فواتحُ السُّور تعلِّمنا كيف نستدلُّ بالوحدة والتنوُّع على الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر .

٤ – ومن عمل « فواتح السُّور » بين مصادر الإحكام والتفْصيل ، أن العلماء

* انظر تاريخ ويلز (موجز تاريخ العالم) ص ١٩٥ طبعة مكتبة النهضة المصرية ، ترجمة عبد العزيز جاويد .

القدامى ، وطائفةً من الباحثين المعاصرين ، قد بيَّنوا لنا أن فواتح السور جميعا ، تكثُر حروفها في كل سورة من سُوَرِهَا ، إذا تأمَّلْنا آياتِ كلٍّ سورة منها* .

وهذه الكثْرةُ حيثُ تظهر مع فاتحة السورة إذ هي آية قائمة بذاتها مثل (**آلم**) تقول لنا إن الذى نراه تفرُّداً واستقلالاً ، ليس هو التفرُّقَ والاختلاف ، ولكن هو النور الذى يحتشد في آية ، لنعرفه إذا اتصل بمواضع اتصاله ، في الكلمات والآيات ! !

أما إذا كانت فاتحةُ السورة ، مفردةً ضمْن مفردات كلٍّ آية نجدها بها ، كما هو الشأن في (**آلر**) فهى تقول لنا مع كثْرةِ حروفها بآيات كل سورة من سورها ، إن الذى ترونه جزءا من كُلٍّ ، هو كلٌّ لا يتجزَّأُ في حقيقة الأمر ، وإنما تحتاج المعرفة البشرية ، في حدودها التي وضعَها الله بها ، أن تَستَدِلَّ بالنور على النور ، وبكل نوْعٍ على غيره ، والحقيقةُ في ذاتها واحدة ! !

وكذلك الأمر حين نجد ، بين فواتح السور ، ما هو آيةٌ بذاتها ، أو جزءًا من آية ، كما وجدنا ما هو آيتان في أول السورة ، وقد جاء ذلك بسورة الشورى ، حيث قوله تعالى : **حم . عسق . كَذَلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** .

١-٢-٣ : الشورى

فنحن نجد حروف « **حم . عسق** » . تكثر في الآية الثالثة – من سورة الشورى حيث جاءت الحاء بكلمة (**يُوحِى**) وجاءت الْقَافُ بكلمة (**قَبْلِكَ**) وجاءت العيْنُ بكلمة العزيز وجاءت الميمُ بكلمة (**الْحَكِيمُ**) وجاءت (الزاى وهى من حروف الصَّفير كالسين ، بكلمة (**الْعَزِيز**) ثم جاءت السين بأوَّل الآية الرابعة من سورة الشورى في قوله تعالى : (**تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ**) .

---

* انظر البرهان في علوم القرآن « للزركشي » ص ١٦٥ وما بعدها جـ ١ ، ط . عيسى الحلبي ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

وهذا يبيِّنُ لنا أنه مهما تَتنوَّعْ وتَتعدَّدْ آيات الله الكونية ، أو آياته القرآنية ، فالله تعالى له وحده الخَلْقُ والأمْرُ ، وأن الله تعالى قد كثَّر حروف كل فاتحة من فواتح السور ، بسورتها ذاتها ، لنعلم أن الحقيقة قريبةٌ من أفهامنا وأجسامنا دائما ، ولكنَّ الله هو وحْدَهُ الموفِّقُ إلى سواء السبيل ، في معرفتنا إياها .

ويستوى في ذلك أن نجد الماء في نهر أو بحرٍ أو كوبِ ماء ، أو نجدَهُ في نهرْين متجاورَيْن ، ونقيسَ على ذلك ما شاءً الله لنا القياس من آيات الله الكونية ، ولن نجدها تخرُجُ على هذا النِّظامُ الـذى جعله الله كامِناً في فواتح السور ، كما هى متَّصِلَةٌ بمواضعها في القرآن كله .

وهذه جميعها حدود فاصلةٌ بين كلام الله ، وكلام البشر .

٥- وحتى نزداد علما مما تحققه لنا فواتح السور باعتبارها مصدرا من المصادر القرآنية ، في إحكام القرآن وتفصيله ،فإن « **فواتح السُّور** » تسَعُ كل أدوات النطق عند الإنسان .

وقد أشار إلى ذلك كلٌّ من الزمخشرى * والزَّركشي . * *

ومن الأمثال الدالة على ذلك أن الزاى والسين والصاد ، لها مخرج واحد في فم الإنسان ، وقد جعل الله تعالى منها في فواتح السور « **السين** » و « **الصاد** » وجعل « **الزاى** » تعمل في الآيات داخل السور ، ضمن الحروف جميعا ، حتى يكون هذا النوع ، في عمل شامل منه ما يظهر لنا بذاته في فواتح السور ، ومنه ما يعمل مع سائر الحروف ، بسائر الآيات في السور .

والأمثال في ذلك كثيرة .

٦- ومن وجوه الارتباط بين الإحكام والتفصيل وبين فواتح السور ، ما يقوله الزركشي من أن الحروف التي تقوم عليها فواتح السور ، هي نصف الجملة في حروف المعجم * * *

ويُهمُّنا هنا أن نبين – معا – على ذلك أن الله تعالى جعل مجموع السور التي جاءت فيها « **فواتح السُّور** » تسْعاً وعشرين سورةً .

ولما كانت الحروف الهجائية جميعا ، هي تسعة وعشرين حرفا ، فإننا نتدبَّر هذه الحكمة الإلهية في جعل عدد السور المفتتحةِ بهذه الفواتح ، مساويا ، لحروف المعجم من جهة ، بينما حروف الفواتح ذاتها ، هى نصف الحروف كلها من حيث عددها ، كما أنها محتوية على أدوات النطق الإنساني جميعا من حيث عملها وأداؤها لوظائفها ! !

---

* أنظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ١٦٥ وما بعدها .

* * الكشّاف للزمخشري : ج ١ ص ١٣ ، ١٤ . والزمخشري هو محمود بن عمر بن محمد صاحب التفسير المسمى الكشف والبيان ، وتوفي سنة ٥٣٨ هـ .

* * * البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ١ ص ١٦٥-١٦٦ ، وقد سبقت ترجمته .

هذه الحكمة الإلهية تقول لنا فيما تقول ، إن الله شاء أن يبيِّنَ لنا أن الحقيقة واحدة في ذاتها ، وهي أن الله تعالى ، هو ربُّ العالمين ، وحده لا شريك له ، وإن احتاج العقل البشرى ، إلى بيان متجددٍ ومتنوعٍ ، لعدم قدرتنا نحن البشر ، على معرفة الحقيقة كلها جملة واحدة .

فهكذا تظهر الحقيقةُ في فواتح السور ، وثيقة الصِّلة بما خفى علينا منها ، دون أى انفصال بين هذا النور القرآني الدالِّ عليها ، كما يَسَّرَ الله القرآن للذكر ، وجعلَهُ نوراً هاديا إلى الحق المبين .

وقد يقول قائل : إنَّ عدد الحروف هو تسعةٌ وعشرون حرفا ، ففيم إذن كانت فواتح السور أربعة عشر حرفا ، ولماذا زاد عدد الحروف التي لا تظهر في فواتح السور حرفا واحدا على التي تظهر فيها .

الأعداد لا تخرج عن كونها ، أعدادا زوجية أو فردية .

وقد صلى الرسول صلى الله عليه وسلم الشفع والوتر وَجَعَلَهما من سننه في الصلاة .

فهكذا الأمر في توزيع الحروف من حيث أعدادها ووظائفها في القرآن ، حيث فواتح السور أربعة عشر حرفا ، وبقية الحروف التي تشترك مع سائر الحروف في الآيات والسور هي خمسة عشر حرفا .

وهذا كله من أعظم الحدود الفاصلة ، بين كلام الله وكلام البشر ، حيث تتجلى لنا الكلمة التي تبيِّن لنا أن قدرتنا على النطق ، ليست هى التي تقوم عليها الكلمات الدالة على الحقيقة ، وأننا لن نجد اليقين إلا بالوقوف عند أوامر الله ونواهيه ، كما جاء بها كتاب الله ، وطبَّقَتْها السُّنَّةُ المطَّهرَةُ في الواقع العملى .

والله تعالى خَلَقَ أدوات نطقنا في تفصيل يربطُ بين كل أداة للنطق ، وبين

الحروف التي يجبُ علينا أن ننطقها ، ثم وَصَلَ بين ذلك كله وبين الحروف في الكلمات والجمل في القرآن ، ثم في وقائع آيات الله الكونية ، لنعلم أن ذلك كله هو هدى الله ، الذي لن نهتدىَ إلا به !

وكفى بذلك حدّاً فاصلا بين كلام الله وكلام البشر .

وكفى به ردا مُسْكِتاً للإلحاد والملحدين !

ثالثا – المعاجم القرآنية وأهميتها في بيان إحكام القرآن وتفصيله .

لا يكاد أيُّ مفكّرٍ ، ينظر في حركة أى كلمة قرآنية أو حرف قرآني ، في مواضع الكلمات ، كما تتجلى في أى معجم من المعاجم التي تقوم على كلمات القرآن أو آياته ، حتى يرى إحكام القرآن وتفصيلَهُ رأْىَ العينين ويلمسه لمْسَ اليدين .

وبذلك يظهر الحد الفاصل بين الإعجاز في كلام الله ، وبين العجز في كلام البشر .

وهذا أمر لا خفاء فيه ، ولا عجب منه .

أليست هذه المعاجم تقدم لنا عدد مواضع كل كلمة من كلمات القرآن !

فهكذا نرى ارتباط كل كلمة قرآنية بما يحيط بها من الكلام ، فإذا هو إعجاز ظاهر ، وإذا هو ربْطٌ مُحْكَمٌ بين الإفراد والإجمال على نحو لا ينبغي أن يكون له مثيلٌ في كلام البشر .

وقد اشتركت عناوين الكثير من هذه المعاجم في استعمال كلمة ألفاظ القرآن .

ولكن الحقيقة أن الله تعالى ، قد بيّن لنا أن الإنسان هو الذى يلفِظُ ويقدِّمُ لنا ألفاظا .

أما الله تعالى فهو يقُولُ ويتكلَّمُ وينزِّلُ علينا كلاما لا ألفاظا .

وإنما لَفْظُنا نحن لكلمات القرآن ، هو حالتنا نحنُ في التماسنا من نور القرآن ، والنور في ذاته ، لا يتحدَّدُ بحدود من سارَ على هُداه .

وليست هذه الملحوظة العابرَةُ بالتي تَغْضُ من الجهود العظيمة ، التي تقدِّمُها لنا المعاجم القرآنية ، في فهم إحكام القرآن وتفصيله .

وليس من هدفنا – معا – هنا أن نحصىَ المعاجم القرآنية ، ولا نستطيع !

ولكنَّ أهمَّ هذه المعاجم ، ثلاثَةُ أنواع :

١ – **أولها** النوع الذى يقوم على بيان معاني الكلمات .

٢ – **وثانيها** النوع الذى يقوم على بيان ترتيب ، أوائل الآيات المتفقة كلماتها الأوائل .

٣ – **وثالثها** النوع الذى يقوم على بيان عدد مواضع كل كلمة .

١– النوع الأول من المعاجم :

ومن هذا النوع نذكر « **مُعجم مفردات ألفاظ القرآن** » للراغب الأصفهانى * .

وهذا المعجم يقوم على بيان معانى الكلمات ، بما يتحقق به – لمن شاء – أن يرى كيف تظهر أهداف كل كلمة قرآنية ، من خلال ارتباطها بكل موضع نجدها به ، مع ارتباط كل موضع بالقرآن كله في جملته الواحدة .

وهو معجم عظيم النفع لمن شاء أن يعلم معاني الكلمات القرآنية في ذاتها ، وارتباط معانيها بمعاني المفردات المحيطة بكل منها في مواضعها .

٢– النوع الثاني :

هو النوع الذى يقوم على أوائل الكلمات في الآيات المتفقة البدايات .

١– ونذكر منه – أولا – معجم « **ترتيب زيبا** » أي الترتيب الجميل ** .

٢– ثم نذكر من هذا النوع – ثانيا – معجم آيات القرآن *** .

وهذان المعجمان كلاهما يقومان على أوائل الكلمات بحيث نجد الحرف

* الراغب الأصفهاني ولد بأصفهان ثم رحل إلى بغداد وله مؤلفات كثيرة منها أفانين البلاغة ثم تحقيق البيان ، وأهمها معجم مفردات ألفاظ القرآن الذي كان عنوانه الأصلي « مفردات في غريب القرآن » .
وسنة ميلاده مجهولة لكنه توفي سنة ٥٠٣ للهجرة الموافقة سنة ١١٠٨ للميلاد ، ولعله كان معاصرا للزمخشري إذ توفي قبله بنحو خمس وثلاثين سنة ، وقد نشر معجمه بعنوانه المذكور ، في شوال سنة ١٣٩٢ للهجرة الموافق نوفبر ١٩٧٢ للميلاد ، وحققه الأستاذ نديم مرعشلي ، ونشرته دار الكاتب العربي ببيروت

** أصدر هذا المعجم المحقق صالح ناظم ، رحمه الله سنة ١٢٨٤ للهجرة فكانت طبعته الأولى التي صدرت بالأستانة في هذا التاريخ ثم توالت طبعاته الحديثة حتى صدر أخيرا بالقاهرة بعنوان دليل الحيران في الكشف عن آيات القرآن .

*** معجم آيات القرآن أصدره الدكتور حسين نصار بالقاهرة سنة ١٣٨٥ للهجرة-سنة ١٩٦٥ للميلاد .

الأول من الآيات المتفقة في حروفها الأوائل مرتبة ترتيبا بادئا من سورة الفاتحة إلى سورة الناس .

ولكن هذا الترتيب في هذين المعجمين معا ليس ترتيبا دقيقا من هذه الناحية ، إذ أنك قد تجد في سياق الترتيب في كل منهما كلمةً بذاتها في مطلع آية ، وقد سبق هذا الترتيبُ المعجمي ، موضعَ الآية كما هو بالمصحف أو تأخر عنه ، دون تبرير لذلك .

ولما كان تعدُّدُ المواضع ، هو مناطَ البحث في تعدُّدُ وجوه العلم ، التي يجب علينا أن نستخلصها من الحروف أو الكلمات أو الجمل المتعددة المواضع في القرآن ، فإن هذين المعجمين لو كان أحدهما أو كلاهما قد اهتم بهذه الظاهرة القرآنية المعجزة . لتحقَّقَ لنا مجموعاتٌ سبع قائمة على ما تفرَّدَت ، أو تعدَّدَت فيه مواضع المفردات القرآنية ، كما سبق بيان نصوصها من قبل ، وهي الحرف ،أو الكلمة أو الجملة .

ولو ظهر الاهتمام بالمفردات القرآنية ، ومواضعها ، في هذين المعجمين ، لعرفنا الفرق بين هذين النوعين من المفردات وأولهما كلمة واحدة ، هى كلمة « ثم » .

١- **ثُمَّ أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ**

٢٣ : المدثر

٢- **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**

٢١ : عبس

٣- **ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حسَابَهُمْ**

٢٦ : الغاشية

أما من حيث المواضع فإن كلمة « **ثم** » مفردةٌ قرآنية متعدِّدَةٌ المواضع .

وها نحن نرى هذه المفردة وهى قوله تعالى (**ثُمَّ**) فإذا هي مصباح منير يسطع في كل موضع من مواضع ارتباطه بالقرآن كله ، فإذا له في كل موضع جديد

نجده به هدف جديدٌ هو وصْلُنا بفصل جديد ، من فصول العلم في القــرآن .

وبعد ذلك نجد نوعا آخر مبدوءا بالمفردة ذاتها « ثُمَّ » غير أن من يمعن النظر فيه يجده نوعا آخر غير النوع السابق ، حيث هو « جملة » وليس كلمة واحدة .

١- ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا

١٠٣ : يونس

٢- ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا

٧٢ : مريم

ولما كانت كل مفردة متعددة المواضع ، فهي مع ارتباطها بالسياق القرآني في كل موضع من مواضعها لا بد أن ترتبط بأفق جديد من آفاق العلم في القرآن ، وغير متكررٍ في المواضع الأخرى جميعا فقد كان من الأجدى أن يحقق المعجمان كلاهما هذا الترتيب ، الذى يخص كل نوع من هذه الأنواع ، بفصْلٍ خاصٌ به في الترتيب المعجمى .

ومن ذلك أيضا أننا نجد همزة الاستفهام وهى حرفٌ قرآنيٌّ متعدِّدُ المواضع قد جاء في مواضعه ، محققا هذا التجديد المتواصل ، الذى يتجلى في ارتباط كل مفردة قرآنية بكل موضع من مواضعها ، على أساس مـن تجديد ارتباطها ، وتجديد هدفها وعملها ، هذا التجديد الفارق بين كل وجه من وجوه العلم ، وبين غيره في القرآن كله .

١- أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا

٢٧ : النازعات

٢- أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

١٢٨ : الشعراء

٣- أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ

٤٤ : البقرة

ومع أن هذا الترتيب غير الدقيق ، قد جاء هكذا في معجم الدكتور حسين نصار ، وهناك ما يماثله في معجم دليل الحيران ، إلا أن الإعجاز ظاهر في اختصاص كل همزة استفهام في كل موضع جديد ، بالارتباط بجديد من وجوه العلم .

والمقصود بالترتيب الدقيق ، أن نجد آية سورة البقرة أولا ثم آية سورة الشعراء ، وأخيراً آية سورة النازعات .

غير أن هذين المعجمين لا يبديان لنا فارقا ، بين مواضع همزة الاستفهام ، وهى حرف قرآني متعدِّد المواضع ، وبين مثل هذا النوع القائم على جملة قرآنية متعددة المواضع .

١- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**

٤٦ : الحج

٢- **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كيف كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ**

٨٢ : غافر

ولا شك في أن الرجوعَ إلى أنواع المفردات القرآنية السبع ، التي تكشفها لنا صفحاتنا هذه ، من شأنه أن يجعل أمثال هذا المعاجم ، في المستقبل ، بإذن الله ، أكثَرَ نفْعاً وَأعْمَقَ أثراً في بيان إعجاز القرآن ، القائم على الإحكام والتفصيل ، وهو العلم والمعجزة معا ، وهو أساس اكتشاف الحدِّ الفاصل بين كلام الله وكلام البشر .

٣- **النوع الثالث من المعاجم القرآنية** هو النوع الذي يقوم على كلمات القرآن جميعاً ، بعد أن يردَّهَا إلى خطَّة منهجيَّة ، لفتْحِ المعجم ، والوصولِ إلى مواضع كل كلمة في القرآن ، من حيث العدَدُ ، ومن حيث ارتباطُها في كـل موضعٍ من مواضعها بأفقٍ جديد ، من آفاق المقاصد القرآنية .

ومن هذا النوعَ يَتيَّسر لنا الرجوعُ إلى ثلاثة معاجم :

أولها المُعجَمُ المُفَهْرَسُ لألفاظ القرآن *

ثانيها « معجم ألفاظ القرآن الكريم » وقد امتاز هذا المعجم ، ببيان لمعنى كل كلمة قرآنية ، قبل إيراد عدد مواضعها ** .

غير أن هذا المعجم الثاني ، قد فقد المزيَّةَ الأساسية التي سبق إليها المعجم المفهرس ، لألفاظ القرآن الكريم .

وهذه المزيَّةُ هي إيراد الكلمة القرآنية في كل موضع من مواضعها ، مرتبطةً بقدر من الكلمات التي تبيِّنُ لنا ارتباط المفردة ، بجملتها القرآنية التي تصلها بالقرآن كله ، بكل موضع نجدها فيه !

وبذلك تتجلَّى معجزة الإحكام والتفصيل ، ظاهرةً جليَّةً في « **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** » ، ولا تتحقق عناصر ظهورها في معجم ألفاظ القرآن للمجمع اللغوي ، إلا حين نعود إلى كل مفردة بسياقها في القرآن ذاته .

ثالثها معجم الألفاظ والأعلام القرآنية *** .

وهذا المعجم أشبه شئ بمعجم ألفاظ القرآن للمجمع اللغوي ، من حيث اكتفاؤه بذكر عدد المواضع ، مع عدم إيراد كل كلمة ضمن قدر من الكلمات يمثل لنا ارتباط الإفراد بالإجمال في القرآن كله .

غير أن « **معجم الألفاظ والأعلام القرآنية** » أقل حجما وسعَةً في بيان معانى الكلمات بالقياس إلى معجم مجمع اللغة العربية بطبيعة الحال .

ومع ضخامة الجهد المشكور في هذه المعاجم وأهميتها الكبرى ، في بيان

---

* (المعجم المفهرس) أصدره العلامة المصري محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٣٥٨ للهجرة – ١٩٣٨ للميلاد ، وطبعته – أولا – دار الكتب المصرية ، ثم توالت طبعاته في دول كثيرة .

** (معجم ألفاظ القرآن الكريم) أصدرته لجنة من أعضاء المجمع اللغوي بالقاهرة سنة ١٣٦٠ للهجرة سنة ١٩٤١ للميلاد .

*** أصدر معجم الألفاظ والأعلام القرآنية الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم بالقاهرة سنة ١٣٨٨ للهجرة – ١٩٦٨ للميلاد كما اطلعت على طبعته الثانية .

وقدم هذا المعجم الدكتور عبد الصبور شاهين الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .

الإعجاز في إحكام القرآن وتفْصيله ، إلا أنها جميعا على اختلاف حظوظها من ذلك – لم تقم أساسا لبيان الفعل المعجز ، الذى تحقِّقه كل مفردة قرآنية ، في كل موضع من مواضعها ، حيث تختص كل مفردة ، سواء كانت حرفا واحدا أو كلمة واحدة فما هو أكثر من ذلك ، من الجمل القصيرة ، والآيات ، بهدف جديد في كل موضع جديد ، على نحو ما حاولنا – معا – بيانه ، طوال صفحاتنا هذه !

وهذا الهدف هو وصلنا بوجوه من العلم جديدةٍ ، كلما ارتبطت أىٌّ من هذه المفردات ، بأى موضع من مواضعها في القرآن كله .

إننا بحاجة إلى معاجم لمواضع المفردات في القرآن .

كما أننا بحاجة إلى أن تكون هذه المعاجم ، في لغات أخرى غير العربية ، إن كان لا بد من ترجمة معاني القرآن العظيم إلى اللغات الحية في العالم كله .

فلا ريب في أن الإعجاز والعلم – معا – في إحكام القرآن وتفصيله ، لو أنهما تيسرا للمفكرين والعلماء في العالم كله ، لما بقى أحدٌ منهم دون أن يعلن إسلامه ، إلا من آثر الضلال عن بيِّنَةٍ .

فما بالنا بالملحدين الذين ينكرون الدين أساسا ، حين يجدون النظام في الارتباط بين الإفراد والإجمال ، في آيات الله الكونية ، هو نفسه النظام القرآنى ، في إحكامه وتفصيله ، مع أن القرآن ، قائم على الكلمات ، فمن مظاهر إعجازه وهى كثيرة ، هذا البناء العجيب الذى يجعل الحروف والكلمات والجمل ، كالنجوم والأقمار في ارتباط كل منها بمواضعه من الكون ، فهى تؤدى وظائفها العملية في هذه المواضع ، كعلاقات وَدَلالات ، فضلا عن معاني الكلمات في اتصالها العام ، وهى تظهر لنا بالقراءة بينما يظهر فعل المواضع بمجرد تلهورنا كل مفردة بموضعها .

إعجازُ القرآن ، متحقِّقٌ في القرآن ذاته ، قولا وعملا ، اصطلاحا وتطبيقا ، هداية بالمبنى والمعنى جميعا ، كما رأينا أن القرآن قد بلغ من قوة ارتباطه ، وإحكام تفصيله ، أن معناه هو مبناه ، وأن مبناه هو معناه .

وليس كذلك كلام البشر .

وللسنة المطهرة ، أفق رفيع ، لا يصل إليه كلامُ كلِّ أحد من الناس ، وإنما حديثُ الرسول صلى الله عليه وسلم قد خَصَّهُ الله تعالى بجوامع الكلم ، حيث عصم اللهُ رسولَهُ صلى الله عليه وسلم ، من كل باطل ، فإذا حديثُ الرسول هو بيان الصِّدق بالصدق ، وربْطُ القولِ بالعمل ، لا عن علم الرسول بجملة كلامه ، وإحكامه وتفصيله ، وهذا إعجاز لا يقدرُ عليه بشر ، وإنما هو صدْقُ النُّبُوَّة ، الذى يَسَعُ الكلام ، لفْظا ومعنىً ، من أيسر طريق ، وأبلغ حُجة ، وأظهر بيان ، وأوجز كلام .

وقد يكون أحد الناس صادقا ، ولكنَّ صِدْقَهُ يظهر في ثنايا كلامه الكثير ، وقد كان المقامُ يقتضى كلاماً مُوجَزاً فهنا يكون الصدقُ محصوراً في القول .

أمَّا كلامُ النُّبُوَّة فهو الصدق الشامل ، الذى يرْبِطُ الكلام لفظاً ومعنىً ، وشكْلاً ومضمونا ، بالحقيقة وحدَها ، والصدقِ وَحْدَهُ ، واليقينِ وحْدَهُ .

فهنا يكون القولُ محصوراً في الصِّدق .

ومع ذلك فإعجاز القرآن ، يَتَجلىَّ فيه حَدٌّ فاصلٌ بين كلامِ الله ، وكلامِ الرسول صلى الله عليه وسلم .

إننا لو ضربنا للقرآن مثلا فقلنا إنه قصر عظيمٌ أبوابهُ ليست هي الحجارة وإنما هي الحروف والكلمات والجمل . وكلٌّ باب منها ، يُفضي بنا إلى مشاهدَ خاصَّة به وَحْدَهُ ، ومرتبطةٍ بالقصر في جملته الواحدة ، لم نكن قد وفّينا القرآن حقَّه !

وحتى لو أضَفْنَا إلى ذلك أنَّ هذا القصرَ أكبرُ من الكون والحياة ، وأوسعُ شمولا وإحاطة بحركتها المطَّردة ، من الدنيا إلى الآخرة ، وأبعدُ مدىً في أحكامه المطْلقةِ ، من الوقائع المادية جميعا ، فإن هذا مع دلالته على الإعجاز في حدود العقل البشرى ، أقل مما يجب أن يقال ، عن إحكام القرآن وتفْصيله ! ! .

ذلك أننا لو دخلنا قصرا أكبرَ من الكون ، لرأينا أشْياءَ هذا الكونِ وهذه الحياةِ الدنيا ، بأبصارنا المحدودة ، وتذكرْناها بعقولنا المكدودة ، بينما القرآنُ ، في دخولنا من أى باب لأى مفردة من مفرداته ، يرينا مشهداً فريداً ، فيه الحساب النهائي لسائر الأمور ، التي لا يمكّننا أن نراها - نحن البشر - لنحْكُمَ عليها ، كما حكم الله عليها في مُحْكَم كتابه .

فلقد نرى الجمودَ ونعجزُ عن رؤية الحركة ، أو نرى الشهادة ، ونعجزَ عن رؤية أمرٍ مرْتبطٍ بها ، ولكن هو غيبٌ لا يراه إلا الله .

فمهما نَصِفْ كلامَ الله ، فوصْفُنا قاصرٌ عن بلوغ مداه !

إن الإيجاز في الحديث الشريف ، هو الدليل الأكبر على إشراق نور القرآن فوق مرآة النبوة ، فإذا الصِّدق أوسعُ مساحةً من الكلمات ، وإذا اليقينُ هو المنبعُ والمصَبُّ جميعاً ، في ألفِ السُّنَّة المطهرَّةِ ويائها ! !

لذلك كله ، فإن أحداً من الناس كائنا ما كان ، لا ينبغي له أن يفهم القرآن ، ما لم يجعل من سُنَّةِ الرسول المصطفى صلى اللهُ عليه وسلم ، في كل ما اتصل منها بقول وعمل ، مرآةً بين عينيه ، وبابا تنطلق منه البصائر والأبصار ، إلى نور القرآن .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، الهادية إلى العلم والإعجاز - معا - في إحكام القرآن وتفصيله ، ما هي تطبيقٌ عمليٌّ ، ومنها ما هي بيانٌ للحقيقة ووفاءٌ بحقوق مُصْطَلَحاتها ، ووصْفُ مشاهدها ، وسِمَاتِها ، ووصْلٌ بآفاقها وأبعادها .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الخاصةِ بهذا العلم المعجز ، ما هي بيانٌ للمفردات التي يقوم عليها بناءُ القرآن ، مع ربْط العمل الإنساني ، بهذا

العلم ، وجعْل حياتنا موصولة العُرى بهذا النور المبين .

وبيْنَ هذين القَوْسَيْن ، وهما التطبيقُ وبيانُ المصطلحاتُ . نعيش – معا – في رحاب السُّنَّة المطهَّرة ، لنرى كيف يدل صدقُ النبي ، على حقيقة النبوَّة ، وكيف تُشرقُ جوامع الكلم ، بنور الحقِّ المبين .

١– يروى مسلم في صحيحه عن أبي عمرو جَرير بْن عبدِ الله ، رضي الله عنه ، قال كُنَّا في صَدْر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراةٌ قد جَهَدَهُمُ الفقر مُتَقَلِّدي السيوف ، فتألَّم الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن وأقام ثم صلى ثم خَطَبَ فَتَلا قوله تعالى من أول سورة النساء :

[يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذَّى خَلَقَكُمْ من نَّفْسٍ وَاحَدة وَّخلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منهما رجالاً كَثيراً ونساءً واتَّقُوا اللَّهَ الذى تَسَاءَلُونَ به والأرحَام إن اللَّه كانَ عليْكُمْ رَقيباً] .

ثم تلا قوله تعالى من سورة الحشر (**يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا اللَّهَ ولْتَنْظُرْ نفْسٌ ما قدَّمَتْ لِغَدٍ وَّاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ**)

١٨ : الحشر

ثم قال : تصدَّق رجلٌ من ديناره ، من درهمه ، من ثوْبه ، من صاع بُره ، من صاع تمره ، حتى قال ولو بشق تمرة .

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ ، حتى رأيتُ وجهه صلى الله عليه وسلم ، يتهَلَّلُ كأنه مُذْهَبَةٌ .

فقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من سَنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بَعْدَهُ من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ .

ومن سَنَّ في الإسلام سنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بَعْدَهُ من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيءٌ » .

وهكذا يتجلّى لنا كيف نظَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى الْمَسَار الذي يخصُّ كلمة « **نَفْس** » في موضعيها بآيتي سورة النساء ، وسورة الحشر ، والْمَسَار الذي يخصُّ كلمة « **اتَّقُوا** » في موضعيها بكل آية منهما .

وهذا وجه من وجوه تطبيقه ، صلى الله عليه وسلم ، للإحكام والتَّفْصيل في عمله بالقرآن ، وبناء المجتمع الإسلامي به * .

٢ - وثبت في الصحيحيْن من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَقْرَأَني جبريلُ على حَرْفٍ فراجَعْتُه ، ثم لم أزل أستزيده فيزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف .

وفي الصحيحين أيضا من حديث عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إن هذا القرآن أُنزل على سبعةِ أحرفٍ فاقرأوا ما تَيَسَّرَ منه .

ويقول الزركشي :

إن تفسير هذين الحديثين وما هو في معناهما ، قد اختلفت فيه الآراء إلى خمسة وثلاثين رَأْياً ** .

ثم يذكر الزركشي من هذه الآراء أربعة عشر رأيا ، نختار - معا - منها عددا من الآراء ، وثيقة الصلة ، بإحكام القرآن وتفصيله .

الرأي الأول : أن هناك من يقول إن هذا الحديث ، من المشكل الذي لا يُعرف معناه ، لأن العَرَب تُسمي الكلمة المنظومة حرْفاً ، وَتُسَمِّي القصيدة بأسْرها كلمة .

والحرفَ يَقَعُ على المقطوع من الحروفِ المعجمة ، والحرفُ أيضاً هو المعنى والجهة *** .

---

* صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبة البخاري المولود سنة ١٩٤ هـ والمتوفي سنة ٢٥٦ هـ .

** وصحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري المولود سنة ٢٠٤ هـ . والمتوفي سنة ٢٦١ هـ .

*** أنظر الزركشي بكتابه « البرهان في علوم القرآن » ج ١ ص ٢١١ ، ٢١٣ .

ونقول معاً ما أقرب الموضعَ من قولهم عن الحرف ، إنه هو المعنى والجهة ! !
ومن ذلك قول الله تعالى : (**إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ**) .

١٦ : الأنفال

وقولُه : (**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ**) .

١١ : الحج

وقولُه : (**يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**)

٧٥ : البقرة

فالذي نستخلصه من ذلك ، يَدُلُّنا على أن الرَّأْيَ السَّابقَ قد صدر أصحابُهُ عن نظرهم إلى الغاية ، من مواضع المفردات القرآنية ، حيث جعلها الله مناطاً للمعرفة الإنسانية ، وَضَبَطَ بها الأعمالَ والأقوالَ والأخلاقَ عند الناس ، حتى يأتمروا بأوامر الله ، وينتهوا بنواهيه .

ذلك أن التَّحريف كما تبيِّنُه المواضعُ الثلاثة السابقة ، لكلمة « **مُتَحَرِّفاً** » وكلمة « **حَرْف** » ، وكلمة « **يُحَرِّفُونَهُ** » ، ينصب على ما هو حركةٌ صحيحةٌ في الحياة ، أو حركةٌ خاطئة فيها ، والقَصْدُ من الحركة هو الذي يبيِّن لنا هذا أو ذاك .

وبذلك نُدرك أن القرآن ، هو مقياسُ النور ، الذي يقيس الناس به ، مقدارَ خروجهم من ظلمات الأوهام البشرية على اختلافها ، إلى نور الهداية الإلهية .

والإِحْكَامُ والتَّفْصِيلُ قائمٌ على مواضع كل مفردة قرآنية ، سواء كانت المفردة حرفاً أو كلمةً أو جملة .

وبذلك يكون الرأي السابق ، متَّفِقاً مع الإحكام والتفصيل حيث يقول أصحابُ هذا الرأي إن قوله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ هَذَا القرآنَ أُنزل على سبعةِ أحرفٍ) ، يَتَّصل معنـاهُ ، بأن الحرفَ « هو المقطـوعُ من الحروف المعجمة ، والحرف أيضا هو المعنى والجهة » ، فقد جمعوا بذلك بين المفردات اللغوية ، وبين معانيها ومواضعها القرآنية .

وقد تبيَّن لنا من قبل ، أن المفردات القرآنية ، كما هي في مواضعها ، سبعةُ أنواع .

فيكون المقصودُ بقوله صلى الله عليه وسلم « **سبعة أحرف** » ، هي هذه المفردات السابقَ ذكرُها في هذه الصفحات ، والتي استخلصْناها معا ، من سورة الفاتحة ، ورأيناها تعمل في آيات القرآن جميعا ، بنظام واحد ، يتجلَّى به العلم والإعجاز معا ، في إحكام القرآن وتفْصِيله .

الرأي الثاني :

« هناك من يقولُ إن المقصودَ بذلك سبعةُ أنواع ، كلٌّ نوع منها جزءٌ من أجزاء القرآن ، بخلاف غيره من أنْحائِهِ ، فبعضها أمرٌ ونهْيٌ ، ووَعْدٌ ووعيد ، وَقَصَصٌ ، وَحَلَالٌ وحرامٌ ، **ومُحْكَمٌ ومتشابهٌ** ، وأمثالٌ ، وغيره .

ونحن حينما ندرس ما جاء بهذا الرأي ، نجد أصحابه ، يجمعون بين « **المُحْكَم والمُتَشَابِهِ** » ، وهما يقومان على نظام في ارتباط المفردات القرآنية جميعا بالقرآن ، كله في جملته الواحدة ، وهذا النظام هو الذي يبين لنا حدود معرفتنا ووجودنا .

فالمحكم هو القرآن كله إذا نظر كل إنسان إلى كل مفردة واحدة ، بموضعها المتَفرِّد بين مفردات القرآن جميعا .

وهنا ترتبط المعرفة الإنسانية بالقرآن ارتباطا محكما لا مكان معه لأوهام البشر وظنونهم ، ويستطيع العقل الإنساني ، أن يرى المقصود بكل مفردة في كل موضع يجدها به ، على سبيل القطع واليقين .

أما المتشابه فهو الكثْرَةُ من المفردات التي نعلمُ بأنَّها مُحْكَمَةٌ مثل كل مفردة في القرآن كله ، من حيث ارتباطُها بموضعها القرآني الخاص بها .

ولكن التَّشَابُهَ لا يَحْدُثْ إلاَّ في معرفتنا البشرية ، لعجْزنا عن رؤية الكثْرةِ من المفردات ، جملةً واحدةً .

فهكذا نعودُ إلى أن الإحْكَامَ والتَّشَابُهَ ظاهرتان تقومان على نظام قرآنيٍّ واحدٍ ، يدلُّنا عليه إحْكامُ القرآن وتفْصِيلُهُ .

فإذا عدنا إلى الرأْي السابق ، ورأينا أن هذا الرأي ، يَجْمَعُ بين المحكم والمتشابهِ من القرآن ، وبين طائفة من أهداف القرآن ومعانيه ، منها ما جاء في هذا الرأي عن الحلال والحرام ، والقصص والأمثال والوعْدِ والوعيد ، قلنا – معا – إن إحكامَ

القرآن وتفصيلَهُ ، هما همزةُ الوصْل بيننا وبين معاني القرآن جميعا ، بما فيها هذه المعاني التي جاء بها أصحاب هذا الرأي السابق ، وغيرها مما لم يذكروه من معاني القرآن ، التي لا يقدر العقل البشري ، على إحصائها مهما نجتهد في عدها .

فهكذا نعلم أن الرأي السابق ينتهي بنا هو الآخر ، إلى أن إحكامَ القرآن وتفصيلَهُ ، أقربُ ما يتفق مع معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يقول إن القرآن « **أُنزل على سبعة أحرف** » .

الرأي الثالث :

يقول أصحابه إن المراد « الحذْفُ والصِّلَةُ والتقديم والتأخير ، والطلبُ والاستعارة والتَّكْرَارُ ، والكنايةُ والحقيقةُ والمجاز ، والمُجْمَلُ والْمُفَسَّرُ ، والظاهر والغريب » .

وهنا نجد هذه الوجوه ، السبعة ، التي قام عليها هذا الرأى ، تشير جميعا إلى الإحكام والتَّفْصيل .

فالحذف والصلة ، كان أولى لهما أن يكونا (الْفَصْلَ والصِّلَةَ) ذلك أن القرآن كله موصول بجملته الواحدة ، كما علمنا من الإحكام القرآني المعجز .

فليس هناك « **حَذْفٌ** » في مُقابلة مع « الصِّلَة » بهذا المعنى ، وإنما هناك تَفْصِيلٌ في مقابلة إحكام ، أو فصْلٌ في مقابلة وَصْل .

والفصل في القرآن ، هو فصل رؤيتنا عن وجوه العلم التي لا تخص موضعا بذاته ، لتتركز الأفهام ، على ما يخُصُّ كلَّ موضعٍ من وجوه العلم التي خصَّهُ الله بها .

وبذلك نعلم أن الحذف لا معنى له ، إلا إذا كان متضمنا معنى الفارق ، الذي يخصِّصُ المطلوب ، ويُخْرِجُ منه ، ما ليس من حقيقته .

أما الصِّلةُ – كما سبق – فهي الرَّبْطُ المحكم بين المفردات جميعا ، ولذلك سمى الله القرآن (الفُرْقَان) .

وكلمة « **القرآن** » معناها الربطُ المُحْكَمُ .

وكلمة (**الفُرْقَانُ**) معناها الفصول التي يرتبط كل منها بموضعه من القرآن ، في جملته الواحدة ، فلا ينبغي أن يدخل بينها ما ليس منها ، لا شكلا ولا مضمونا .

أما قول أصحاب الرأي السابق عن التقديم والتأخير ، فهو يربطنا بما عَلِمْنا من ثبات كل مُفْردة قرآنية ، بموضعها الثابت ، بين مواضع المفردات جميعا ،

فلعلنا لا نذهب بعيدا إذا قلنا بناء على ما سبق كله ، إننا نجد في إحكام القرآن وتفصيله ، أن المفردات السبع التي سبق ذكرها ، هي أقرب ما في القرآن إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم :

(أُنْزِلَ القرآنُ على سبْعةِ أحرفٍ فاقرأوا ما تَيَسَّرَ منه) .

ذلك أن هذه المفردات هي كما سبق بيانها .

١ – الحروف التي نجد كلا منها بموضع واحد مثل « ق » ، « ص » ، « ن » .

٢ – الحروف المتعددة المواضع مثل واو العطف وما في حكمها .

٣ – الكلمات التي نجد كلا منها بموضع واحد مثل قوله تعالى : « أُحْكِمَتْ » وقوله « أَنْعُمِهِ » وما في حكمهما .

٤ – الكلمات المتعددة المواضع مثل كلمة « الله » وكلمة « الْحَمْدُ » وما في حُكْمهما

٥ – الجمل المكونة من عدد من الكلمات أقل من آية وهذه الجمل نجدها متعددة المواضع – دائما – في القرآن مثل قوله تعالى : « أفَلاَ يتدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ » بسورة النساء ، ثم سورة « مُحَمَّد » ومثل قوله تعالى ، « وَإِنْ تعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تَحصوها » ، بسورة إبراهيم . وكذلك بسورة النحل

٦ – الآيات التي نجد كلا منها بموضع واحد ، وهي آيات القرآن جميعا ، ما عدا الآيات المتعددة المواضع .

٧ – الآيات المتعددة المواضع مثل « فبأي آلاء ربكما تكذبان » في سورة الرحمن أو ما في حُكْمِهَا .

فلما كانت كل مفردة من هذه المفردات القرآنية السبع ، يسطع نورها في كل موضع نجدها فيه ، لنرى وجها جديدا من وجوه العلم ، ومقصودا لذاته على سبيل التعيين والتخصيص ، الذي يبين في كل موضع ، الفارق بين ما يخصه ، ويخص غيره ، من وجوه العلم .

فلعلنا نكون قد وصلْنا إلى الصواب ، إذا قلنا ، إن هذا هو المقصودُ بالأحرف السبعة ، التي نزل عليها القرآن .

أقول ذلك اجتهادا في فهم الحقيقة ، فإن وافق هذا الرأيُ الصواب ، فهو من تَيْسِير الله ، وإن كان خطأً فمن وهْم البشر ، ونعوذ بالله من كل وهم ، وكل جَدَلٍ وكلِّ مِرَاءٍ .

ولكن الذي يُرَجِّحُ كفَّةَ الثقة بهذا الرأي ، أنه جاء مختلطا بآراء كثير من الباحثين السابقين في فهم حقيقة الأحرف السبعة في القرآن ، فلم يَخْلُ منه قول قط ، بينما جاء كل ما عداه مختلفا في آرائهم جميعا .

ولا شك في أن قوله صلى الله عليه وسلم : (فاقرأوا ما تيسَّرَ منه) فيه معنى أن القرآن محكمٌ إحكاما لا مثيل له في كلام البشر ، فمهما نقرأُ منه فنحن مرتبطون بالقرآن ، وهو نور على نور ، لا يُحرم من نوره من أسلس له قياده ، والتمس ما تيسَّر له من إحكامه وتفصيله .

٣ – ويروي الترمذى * عن الإمام على كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبْل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يَخْلُق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا :

« **إنا سمعنا قرآنا عجَبا** » **

من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم » .

نحيا في نور هذا الحديث الشريف بعد أن علمْنا أن الإحكام والتفصيل ، لا مكان معهما للتّكرار الذي لا نعرفه إلا في كلام البشر .

---

* **الترمذي** : محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمي ، مات بترمذ في رجب سنة ٢٧٩ هـ (طبقات الحفاظ للسيوطي ، ص ٢٧٨) .

** سورة الجن ، الآية الأولى .

ذلك أن التكرار هو النتيجة المباشرة لاختلاف الكلام ، من حيث تمزق مبانيه ، واختلاف مواضعه ، وتعارض مضامينه ومعانيه ، وهذا لا يكون إلا في كلام البشر ولا سيما حين تستبدُّ به الأخطاء ، والأكاذيب ، والعجز عن اتباع الطريق السَّويّ ، فتتمزق الأهداف في حياة الناس ، ويعيدون كلامهم بلا فائدة ، ويكررون أعمالهم بلا تقدم نحو غاية منشودة .

إن التكرار في كلام البشر ، يكون بتكرار المعاني ، دون وعي بالفارق بين الهدف الجديد الذي يجب أن يطرد ويزداد مع زيادة مواضع المفردات ، وهكذا يختلف كلام البشر ، أي يتكرَّر .

أما القرآن فهو قائم على تجديد المعاني والأهداف والمقاصد ، وتخصيص كل منها بما هو له من المفردات القرآنية ، بكل موضع نجدها به .

وقد سبق بيان ذلك كثيرا

ومنه أن الكون المادي نفسه لا تكرار فيه ، حتى إن البشر ليكررون أعمالهم وأقوالهم ، بحثا عن الصواب بعد الخطأ ، أو انطلاقا إلى محاولة القدرة على أمر من الأمور ، بعد العجز ، عن القدرة عليه في قول أو عمل .

وقد جمع هذا الحديث الشريف ، كل الأصول التي يرد إليها نفي التكرار في القرآن .

ومن ذلك ، اتصالُ كلِّ قولٍ قرآنيٍّ ، يهدفٍ وثيق الصلة ، بتحقيق نتيجته العملية ، في معرفتنا ووجودنا .

ويظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « **هُوَ الْفَصْلُ ليس بالهزْل** » والهزل هو اللعب بالكلام ، حتى تكون الكلمات ممزقة لا اتصال بينها ، وهذا هو التكرار في شكل الكلام ، حيث لا يكون هناك مضمونٌ متماسكٌ ، من شكل ممزق .

ومن ذلك أن « **القرآن** » يزيد عقولنا ارتباطاً ، بحقيقة أنفسنا وحقيقة الأشياء جميعا ، كما أحكم الله ارتباطها بمسيرتها الجامعة ، من الدنيا إلى الآخرة .

ويظهر ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « **والذِّكْرُ الْحَكِيمُ** » أي أداة التذكر المحكمة في ارتباطها .

ومن هذه الأصول التي تنفي التَّكْرار عن القرآن قوله صلى الله عليه وسلم : « **والصِّراطُ المستقيمُ** » .

ذلك أن القرآن ينفي التكرار عن حياة المؤمنين ، إذ يؤصل أقوالهم وأعمالهم فيردُّها إلى الصواب ، ويُنقذها من الأخطاء على اختلافها وتمزُّقها ، فبذلك تكون مسيرة المؤمنين مسيرةً متصلة لا تمزُّقَ في دروبها ، وبذلك لا تتفرَّقَ الجهود ، في فكر ولا قول ولا عمل .

ويظهر ذلك كلُّه واضحا في قوله صلى الله عليه وسلم : (**ولا تَتَشَعَّبُ معه الآراءُ**) وقوله : (**ولا يَخْلُقُ على كثرة الرَّدِّ**) .

أي لا يبلى حرف واحدٌ أو كلمة أو جملة قصيرة ، في القرآن فيكون باليا لا قدرة له على الهيمنة على ما تصل إليه العقول من وجوه الحقيقة ، مهما تتقدم بالناس تجاربُهم في الحياة ، مع حرصهم على كل جديد في هذه التجارب ، وافتتانهم به ! !

فالجديد هو السبق إلى كل حقيقة قبل وصول العقل البشري لها .

فلما كان هذا الجديد القرآني ، حكما نهائيا ، فهو - إذن - ثابت على جدته أبدا * .

ولن نجد ذلك إلا في كلام الله .

والجديد بهذا المعنى فيه نفي للتكرار ، وإثبات لحقيقة كبرى ، هي أن الله تعالى لا يسبقه أحد بالقول ! ! يقول الله تعالى :

(**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**) ٢٧ : الأنبياء

فلننظر كيف ربط الله بين سبقه المطلق إلى بيان الحقيقة ، وما يرتبط بذلك من وجوب العمل بأمره .

ولننظر كيف بيَّنت السُّنَّةُ المطهَّرةُ هذه الحقيقة بأوجز قول ، وأصدقه ، حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم عن القرآن : (**وَلاَ يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ**) .

---

* هكذا نعلم أن كلمة « الجديد » وكلمة « المفرد » كلمتان متقاربتان جدا إذا قسنا بهما أحوال التلقِّي للمعلومات في معرفتنا البشرية .

ولننظر أخيرا كيف يختلف كلام البشر في بيان الجديد ، حيث يقول ابن الرومي :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مَآدِبِي ... فَكَأَنَّ أَطْيَبَهَا خَبِيثُ

إِلاَّ الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ ... مِثْلُ اسْمِهِ أَبَداً حَدِيثُ

يصف ابنُ الرومي كلام البشر بأنه جديدٌ أبدا ، وهذا لا يصدق على كلام البشر في إطلاق معنى الحديث أو الجديد .

ويختلف ذلك مع قول امرئ القيس :

ما ترانا نقول إلا مُعاراً

ومُعَاداً من قَوْلِنَا مَكْرُورَا

ولا يزالون يختلفون .

ومن هذه النقطة بذاتها ، وهي الاختلاف في كلام البشر ، نعود إلى التَّكرار في أعمال البشر ، بصفة عامة ، لنجدها أعمالا مكَرَّرَةً في حدود معرفتنا البشرية ، فقد نظن التكرار فيما لا تكرار فيه ، لعجزنا عن رؤية الحقيقة ، كأن ننظر إلى حديقة ملأى بالورود ، وليست وردةٌ منها تكرارا لغيرها ، لأن كل وردة بين الورود جميعا ، جديدة أبدا ، لما تحمله في ذاتها من التفرد ، من جهة ، ومن التشابه مع غيرها من جهة أخرى ، ولكن التفرد غالب على ما عداه .

وكذلك قد نغفُل - نحن البشر - عن التَّكْرَار في حياتنا العملية حين نعمل عملا مرتين أو ثلاث مرات ويخطئ هذا العمل في تحقيق المقصود به مرة أو مرتين ، فيُحْبِطُ الله الخطأَ وَيُحِقُّ الصواب .

فالخطأ هو التَّكْرَارُ ، والصواب هو الفعل المُحْكَمُ ، المرتبطُ بالحياة ، كما فطرها الله ، وربَطَ الله قوانينها ، بإحكام وتفصيل ، لا قدرةَ لأحدعليهما إلا الله .

إنَّ إحاطة الله تعالى بكل شيْ ، تعلِّمنا كيف يَضَعُ الله كُلَّ قول وكل عمل ، من أقوالنا بموضعه الخاص به ، بين مواضع أعمالنا وأقوالنا ، مهما تدقُّ الفروقُ بينها جميعا وفرادى .

وهكذا يعود التَّكرارُ في أعمالنا البشرية ، إلى أنه تَكْرَارٌ في حدود قدرتنا

البشرية ، على معرفة الفرق الدقيق ، بين كل عمل وقولٍ ، من أعمالنا وأقوالنا ، وبين غيرهما من الأعمال والأقوال .

أما الله تعالى فهو يعيدُ كُلَّ شيءٍ إلى الموضع الخاصِّ به تماما ، من المسيرة الواحدة من الدنيا إلى الآخرة .

فكيف يتصور أحدٌ – **مع ذلك** – أن في القرآن تكراراً !

ونفْيُ التكرار ، هو نفسه إثْبَاتُ الإعجاز والعلم – معا – في إحكام القرآن وتفصيله * .

٤ – ويروي ابنُ حبان في صحيحه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً وَحَداً ومَطّلَعاً)

وهذا الحديث الشريف يبين لنا أن تلاوتنا للقرآن ، تحقق لنا الاتِّصال ، بكل نص من نصوصِ المفردات القرآنية ، وهي الحرفُ أو الكلمةُ أو الجملةُ ، مع اتصال قراءتنا وتدبُّرنا لأي قدر من القرآن ، يحتوي على أي قدر من هذه المفردات .

ثم إن كلَّ ما كان في موضع واحد ، من المفردات القرآنية ، فهو ظاهر من أول نظرٍ لنا إلى موضعه من القرآن كله ، في جملته الواحدة .

وكذلك فإن كلَّ مفردة في القرآن كله ، ترتبط بجديد من وجوه العلم ، مع ارتباطها بكل جديد من المواضع القرآنية .

لذلك فإن قوله صلى الله عليه « إن للقرآن ظاهرا » يشمل أمرين اثنين .

الأمر الأول :

هو تلاوتنا وتدبّرنا لأي مفردة ذاتِ موضعٍ واحد في القرآن كله .

الأمر الثاني :

هو تلاوتنا وتدبُّرنا لمفردات القرآن جميعا ، طالما نظرْنا إليها من زاوية الارتباط ، بين كل مفردة وبين القرآن كله ، من حيث اختصاصُ كلِّ مفردةٍ ، بوجه متفرِّدٍ

* كل مفردة قرآنية ذات موضع متفرد حتى لو كانت هذه المفردة ذات مواضع كثيرة وذلك لتفرد الهدف والموضع لكل مفردة تحتاج إلى تدبرها في القرآن كله .

من مقاصد القرآن .

فإذا نظرْنا إلى قوله صلى الله عليه سلم (وَبَاطِناً) فإن ذلك يختصُّ بالنَّظَر إلى الشمول في الصِّلاتِ ، بين أي قَدْرٍ من المفردات القرآنية ، على كثرتها وكثرة أنواعها وأنواع مواضعها .

ولا شك في أن هذه « الْكَثْرَةَ » من الصلات ، بين المفردات القرآنية على تعدد أنواع نصوصها ، وأنواع مواضعها ، مما لا يستطيع الجهد البشري أن يدرك أبعاده ، إن تعدى أَحَدٌ حدوده ، فأراد أن ينظر إليها جميعا ، جُمْلَةً واحدةً ! !

إن أوضح مثل لذلك هو أن أي أحد من الناس ، لا يستطيع أن يدخُلَ ، كثيرا من الأبواب ، جملةً واحدةً ، ولكنه يستطيع أن يدخلَها فُرَادَى .

فقوله صلى الله عليه وسلم : (إن للقرآن ظاهراً وباطِناً) .

مستفادٌ من قوله تعالى : (مُتَشَابِهاً مَثَانِي) فالتَّشَابُهُ مُتَّفِقٌ في حقيقته ، مع باطن القرآن .

أما « المثاني » فهي الكلمة القرآنية ، التي يَتَّفِقُ معها ما جاء في الحديث الشريف ، من ذكْرِ ظاهرِ القرْآن .

وليسَ لقوله صلى الله عليه وسلم (وَبَاطِناً) أيُّ صلة لأوهام من يحاول أن يستخرِجَ من معاني القرآن ، معانيَ شخصية يتَخيَّلُها هو ويتعسَّفُها على غير ما هو متحقِّقٌ من تمام الارتباط ، بين كل قول قرآني ، وبين القرآن كله في جملته الواحدة .

أما قوله صلى الله عليه وسلم (وَحَداًّ) فمنه أن القرآن ، في إفراده وإجْماله ، يحدُّنا فلا ينبغي – أبدا – أن يختلط بالقرآن ما ليس منه ، لا في كثير ولا قليل .

ولقد نَزَّلَ اللهُ القرْآنَ منجَّما في نحو ثلاث وعشرين سنةً كما هو مشهور ، ليَعْلَم الناس أن هذا القرآن لا يختلفُ ، مهما يختلفْ بالناس توالي الليل والنهار .

ولقد جعل الله في القرآن ، آياتٍ ناسخةً وآياتٍ منسوخةً ، لنعلم أن القرآن لا يُبَدِّلُهُ أن يأمر الله فيه أمراً ، ثم يأمر فيه أمرا آخر ، فإذا نظرنا في الناسخ وجدْنَا فيه الأمر بالجديد ، مع النهي عن الاستمرار فيما كان قبلَهُ من أمر الله ، فكان فيه أمرٌ ونهيٌ معا ، ثم إذا نظرنا في المنسوخ وجدناه صالحا للاستمرار ولكن

الله شاء أن نعلم أنه سبحانه قادر على أن يجعل من الأمر الواحد أمورا كثيرة ، وكلها حق لا ريب فيه ، فهو يأمر بما شاء متى شاء ، كيف شاء أين شاء ! !

وإذا نظرنا في الناسخ والمنسوخ معا وجدناهما يعملان معا على مواكبة العقول ، بما يسبقها سبقا مطلقا إلى كل ما تصبو إليه ، ولا تكتشف حكمته إلا بعد أن تسجل الأيام والليالي ، عليها أنها مسبوقة بكلمات الله التامات ، سَبْقاً مطلقا لا هوادة فيه ! !

وكذلك كان الأمر في التدرج في تحريم الخمر ، ومعارضة المشركين والكفار بالقول اللين ثم الحجة ، ثم الهجرة ثم القتال .

ولقد كان القرآن ينزل بأسباب للنزول ، مرتبطة بأحوال متفرقة في حياتنا الإنسانية ، ومع ذلك فهو في حقيقته هو القرآن بإحكامه وتفصيله ، وسعته وشموله ، ووحدته وتنوعه .

والله تعالى يبيِّن فيما يبيِّنُ لنا من ذلك أن حياتنا البشرية ، بكل احتمالاتها واختلاف أحوالها ، لا تنال من القرآن في إحكامه وتفصيله ، إذ نزَّلَهُ الله تعالى ، مُواكبا لأحوالها .

فهذا كلُّهُ مما يبيِّنُ لنا أن القرآن حَدٌّ لكل حدٍّ ، وسَبْقٌ أبديٌّ لكل وجْهٍ من وجوه الحقيقة ، تتطلَّعُ إليه عقولُ البشر وأشواقُهم ، للحقيقة إلى يوم الدين ! !

واستخلاصُ مقاصد القرآن من كثرة أنواع المفردات القرآنية وكثرة مواضعها يتم بالصبر ، والاجتهاد ، والإخلاص ، ولذلك كله نتيجة كبرى ، هي الفِقْهُ .

فلا شك أن الفقه ، في حقيقته لا يتم لأحَدٍ ، إلا إذا تدرَّبَ تدريبا متواصلا ، على النظر في مفردات القرآن ، وفي ارتباط كلٍّ منها بكل موضع لها في القرآن كله .

يذكر مُقَاتلٌ في صدر كتابه حديثا مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يَفْقَهُ الرَّجُلُ حقَّ الْفِقْهِ حتى يجعلَ للقرآن وجوهاً كثيرة) * .

---

* هذا الحديث ذكره مقاتل مرفوعا كما يقول الزركشي في ص ١٠٣ ج ١ من كتاب البرهان في علوم القرآن أما السيوطي فقد ذكر في كتابه الإتقان في علوم القرآن أن هذا الحديث قد أخرجه ابن سعد وغيره عن أبي الدرداء موقوفا .

وهذا الحديث يدلنا على كثرة المعاني القرآنية كثرةً معجزة ، لا ينبغي أن نجد مثلها في كلام البشر ، ولو حشدوا في سبيلها كل كلامهم على كثرته ، منذ خَلَقَ اللهُ الناسَ إلى يوم يُبعثون ، فإن الكثرة في كلام البشر ، تبحث عن المعاني فلا يتحقق لها منها إلا النزر اليسير ، ويبقى بعد ذلك أسيرا في حدود كثيرة ، آخرها لحظات التلاشي والسقوط . .

إن كلام البشر ، مجهول الجملة للبشر أنفسهم ، كما أن كثرة كلماته مؤدية إلى قلة معانيه .

أما القرآن فقد جعله الله كلاما عظيم الإيجاز ، ولكنه كثير المعاني على نحو معجز لا مثيل له في كلام البشر !

أما قوله صلى الله عليه وسلم (**وَمَطْلَعاً**) فمنه أن معاني القرآن كمطالع الأقمار متسامية النور في إحكام القرآن وتفصيله ، فكان القول في القرآن بالرَّأي حراما كما بيَّنَت ذلك السُّنَّةُ المطهرة ، حيث يقول صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما :

(من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأْ مقعدَهُ من النار) .

وكيف يُقال في القرآن بالرأي ، وهو « مُحْكَمٌ » هذا الإحكام ، الذي يضمن لنا ثبات النص القرآني في جملته فلا يتخلله من الكلام ما ليس منه ، وَمُفَصَّلٌ هذا التَّفْصيل الذي يضمن لنا اختصاص كل قول بكل موضع ، باتصاله بالمقاصد التي خصه الله بها في القرآن كله .

٥ – ونصل إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يبيِّنُ فيه تمام كلمات الله ، وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أَعُوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ ، من شَرِّ ما خَلَقَ) .

وقد سبق معنى التمام في قوله تعالى :

---

* مقاتل بن سليمان بن كثير الأزدى الخراساني من الطبقة – السابعة – مات سنة ١٥٠ هـ (قيل عنه إنه متروك الحديث ورمى بالتجسيم) (طبقات المفسرين للداودى ص ٣٣٠-٣٣١) .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وهو السميع العليم)

١١٥ : الأنعام

فالتمام يعني صدقَ مباني القرآن ومعانيه ، على كل شيئ ، لأن الله تعالى بكل شيئ علـيم .

كما يعني التَّمَامُ « العدلَ » في مباني القرآن ومعانيه .

ومن العدل اختصاصُ كل مفردة قرآنية ، بما هو لها من كل موضع يجدها به في القرآن ، كل من طلبها من الناس .

ومن العدل اتساع آفاق القرآن لفترات التاريخ جميعا بالقول الفصْل ، والحكم العـادل .

وأخيرا يعني التمام في كلمات الله تعالى ، أنها كلمات ثابتة ، لا تبديل لها ، لأنها هي كلمات « السميع العليم » .

ولننظر نحن البشر في حدود قدرتنا على أن نسمع أو نعلم ! !

لذلك كله ربط الرسول صلى الله عليه وسلم ، بين كلمات الله التَّامَّات ، وبين استعاذته بها من الشرور جميعا ، ومنها الشرُّ الكامن في أكاذيب البشر ، وظلمهم ، وأشكال إلحادهم ، وغرورهم ، وادعائهم من العلم ما ليس لهم طاقة به ! !

والاختلاف في كلام البشر ، هو النقيض للتمام في كلام الله تعالى .

وقد جاء ذلك بقوله تعالى :

(والسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ، إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) .

٧ ، ٨ ، ٩ : الذاريات

وتبين لنا هذه الآيات الثلاث ، أن الكون كلَّه مرتبطة مفرداته بمجملاته ، وهذا من تمام الفعل الإلهي في آيات الله الكونية .

أما كلام البشر ، فقد جعله الله مختلفاً ، بحكم اجتهاد البشر في الوصول إلى الحقيقة ، على نحو تتنوَّعُ به كلماتهم في بيانها ، وقدرتها على تحقيق أهداف

الكـلام .

فمن التزم ، من الناس ، الصدق في كلامه ، والعدل في مقاصده ، نجا من الاختلاف المؤدي للتمزق ، والحيرة والضلال ، وهذه هي الشرور التي يسقط فيها الكاذبون والظالمون .

وهنا يكون « **الاختلاف** » كما شاء الله أن يكون في كلام البشر ، هو التنوُّعَ والتجديدَ ، وسَعَةَ آفاق الفكر والقول والعمل ، في حياة الأمم والشعوب .

فالاختلاف في كلام البشر ، جعله الله مناطاً لتجديد نشاطهم ، وآفاقاً لتنوُّع فنونهم القولية ، من شعر ونثر وقصة ومسرحية ، وحتى مصطلحات العلوم البشرية ، والمصطلحات الفلسفية .

ولكن كثيرا من الناس بدَّلوا نعمةَ الله كُفْراً ، فاتَّخذوا من هذا الاختلاف المحمود ، همزةً وصْلٍ بالاختلاف المذموم ، القائم على الكِذب والظلم .

ولقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك كله في قوله :

(أَعُوذُ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ ، من شَرِّ مَا خَلَقَ) .

خامسا : مع أقوال الصحابة في الإحكام والتفصيل وعملهم به

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هم أقرب من اتصل بسبب وثيق ، بنور النبوة ، تلقياً للعلم ، وعملاً به ، وتوثيقا بينه وبين الأخلاق الكريمة ، والسجايا الفاضلة في آفاق التاريخ الإنساني كله .

وصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم هي صحبة العلم والعمل .

١ – لذلك فنحن نبدأ في هذا السياق مع تطبيق عملي بموقف من مواقف الصديق ، أبي بكر رضي الله عنه ، * حيث سئل عن « **الْكَلاَلَة** » فتوقف عن إبداء رأيه في ذلك حتى رجع إلى كلمة « **كلالة** » وكلمة « **الكلالة** » ليجدهما في موضعين قرآنيين . *

أولهما بقوله تعالى :

« **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أو امرأة وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ** .

١٢ : النساء

وثانيهما قوله تعالى :

(**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ**) ١٧٦ : النساء

فها نحن نرى أن النظر في كل موضع من الموضعين المخصصين لكلمة الكلالة وكلمة كلالة قد وصلنا بمقصد جديد من مقاصد القرآن .

وهذا هو الشأن دائما في ارتباط أي قارئ للقرآن ، بأي قول قرآني .

ينظر إليه بسياقه من موضعه الذي يجده به .

---

* أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم جـ ١ ص ٨٢ وابن القيم هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر .

ولد سنة ٦٩١ هـ وتوفي سنة ٧٥١ هـ ، وهو من أعلام الشام .

٢ - والإمام علي كرم الله وجهه ، نشأ منذ طفولته في بيت النبوة ، ونهل من نورها ، حتى فاض ذلك على عقله وروحه ، وتألقت به موارده ، ومناهله .

ومواضع كلمات الله ، حين يذكرها عليٌّ رضي الله عنه ، يتجلى لها حقيقةٌ ظاهرة ، ويُرفع بها علمٌ صاعد ، ويُضيء لها قولٌ صادق .

ولننظر في هذه السطور الموجزة من كلامه عن ذلك .

[إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جُهَّالاً ، ويموتون ضُلَّالاً ، ليس فيهم سِلْعَةٌ أبور من الكتاب إذا تلي حقَّ تلاوته ، ولا سلعةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرِّف عن مواضعه ، ولا عندهم أنكرُ من المعروف ، ولا أعرف من المنكر] * .

هكذا يبين لنا الإمام علي كرم الله وجهه إحكامَ القرآن وتفصيله ، فيتحدَّثُ عن مواضع كلماته ، في أخطر مواقف الدعوة إلى الله .

ثم يشير إلى أن تحريف كلام الله عن مواضعه ، هو أول أسباب الضياع ، وذهاب اليقين .

وهذه لمحة من ملامح الفكر ، الهادية إلى تمام الصلة ، بين أعلام الصحابة ، وبين إحكام القرآن وتفصيله .

٣ - وأخيرا ننتهي إلى قول ابن عباس كما يرويه عنه سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ رضي الله عنهم : ما رأيت قوما خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاثَ عَشْرَةَ مسألةً ، حتى قُبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه المسائل كلها في القرآن * *

١ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ	٢١٧ : البقرة
٢ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى	٢٢٠ : البقرة
٣ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ	٢٢٢ : البقرة

---

* نهج البلاغة جـ ١ ص ٥٤ تقديم وتحقيق الشيخ محمد عبده .

* * أعلام الموقعين جـ ١ ص ٧١ .

إلى آخر مواضع كلمة يسألونك في القرآن كله .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم .

وقد جاءت كلمة « **يسألونك** » في خمسةَ عَشَرَ موضعا ، وإن كانت المسائل في جملتها ثلاث عشرة مسألة كما يبين لنا ذلك ابن عباس رضي الله عنهما .

ولسائل أن يسأل . . فلماذا كان الأمر هكذا ؟

نقول – معا – إنهم سألوا عن الساعة من وجهين .

أحدهما جاء جوابه في قوله تعالى :

١ – (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) .

١٨٧ : الأعراف

والآخر جوابه في قوله تعالى :

٢ – **يَسْأَلُونَكَ عن السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا .**

٤٢–٤٦ : النازعات

فَذِكْرُ ابن عباس رضي الله عنهما ، للثلاثَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً ، هو إحصاؤه للمسائل في موضوعاتها الأساسية .

أما القرآن فقد زاد الله فيه على المسائل ، مما لا يحيطون بعلمه ويتصل بها اتصالا ، تتم به عليهم نعمة ربهم ، حيث نَزَّل القرآن بيانا لكل شيء .

ومن ذلك أحوالُهم يومَ القيامة ، كما جاء ذلك بآيات سورة النازعات ، وكذلك حاجتهم إلى العلم بوقت الساعة .

والجواب على ذلك أنها « ثَقُلَتْ في السموات والأرض » لارتباطها بحركة الأشياء جميعا ، في مسيرة الدنيا وهي متجهة إلى الآخرة .

وقوله تعالى : (**لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ**) فيه بيانُ عجز البشر عن العلم بوقْت الساعة .

وقد جاء هذا المقصد بالآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

وفي هذه الآية تأتي كلمة (يَسْأَلُونَكَ) في موضعين :

١ – يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ

٢ – يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا

ففي ذلك بيان للوصل المحكم ، بين كلمة يسألونك وبين موضعين من مواضعها فيهما بيانُ علم الله بها ، ثم نَفْيُ علم رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك .

فما بال الناس العاديين ، وهم يُسألون عنها ! !

أما قوله تعالى « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا »

فقد جاء في موضعين أحدهما جزء من آية كما هو الأمر في آية سورة الأعراف

وأحدهما آيةٌ كاملة ، كما هو الأمر في آية سورة النازعات .

ذَكَرَ ابنُ عباس ، المسائل في جُمْلتها ، وهي ثلاثَ عشرةَ مسألة ، مع علمه بأن مواضع كلمة (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن هي خمسةَ عَشَرَ موضعا ، بدليل أنه استخلص منها جملةَ المسائل ، وهذا دليل عظيم على أن الصحابة ، رضوانُ الله عليهم ، هم خَزَنَةُ العلم ، ولا سيما ما اتَّصَلَ من علمهم ، بإحكام القرآن وتفصيله.

والهدف من البحث في ذلك ، هو وَصْلُ آفاق الرؤية ، بين الأصول القديمة ، لمعرفة هذا العلم وهذا الإعجاز ، وبين ما تَنْهَضُ له الهمم في الحاضر أو المستقبل من النظر في علوم القرآن والعمل بها ، ومن أهمها هذا العلم الذي تنبع منه علوم القرآن جميعا .

القرآنُ هو جامعة الجامعات ، وقطْبُ جميع العلوم . ولا يُقصد بالعلوم ، العلوم البشرية التي تتفرق فيها الجهود ، وتختلف فيها الآراء ، فهي تشبه المفردات في معادلة كيميائية أو رياضية ، وقد انفرد بكل منها رأي من آراء العلمــاء .

ذلك أن القرآن يعلو فوق هذه الأجزاء المتفرقة التي يقوم عليها العلم البشري ، ليقدِّم لنا حقيقة ضمائرنا ونياتنا وحاجاتنا إلى العلم ، ثم يُختتم ذلك بمواصلة دائبة تستقطب أحوال القول والعمل في دنيا البشر ، حتى ينتهي بنا إلى آفاق الغيب ، وحقيقة النهاية الشاملة لحياتنا الدنيا ، والبداية الحتمية لحياتنا الآخرة .

فلا أعجب من الذين يفرحون ، بما يجتهدون في تحصيله من أجزاء المعرفة ، ويتفرَّقُون في سُبُلٍ مختلفةٍ من أوهامها ، أو أحلامها ، والقرآن يُعْفِيهم من ذكْر الكميات التي لا يطيقونها ، ويخصُّهم بذكر الكيفيَّات التي يحتاجون إليها .

ومن ذلك أن الله يخبرهم بقدرتهم على الْعَدِّ ، ويخبرهم أنهم يقفون على شواطئ أرقامه ومعادلاته ، ولكنَّهم لا يُحْصُون هذه الأرقام جميعا ، ولا يصلون من محيطاتها البعيدة العميقة إلى قرار ! !

الله يُعْفينا من الإحصاء ، لأنه رءوف بعباده ، يعلم أنهم لا يطيقون العلم بالحساب في حقيقته وشموله ، ولا يحيطون بشيٍ من علمه إلا بما شاء ، ولو علم الناس نهاية أعمارهم لكفوا عن العمل ، وخربت الدنيا وكَسَدتْ بضاعتُها ، وَغُلِّقَتْ أسواقُها ، فكيف بالحساب الذي يُخبرنا عن وقت يوم القيامة ، ولو علم الناس ، لركنوا إلى شهواتهم ، وأظهروا في الأرض الفساد ، ليتوبُوا قبل يوم القيامة بوقْتٍ قصير ، فهم حينئذ يعمرون الأرض قبل وداعهم إياها ، ويتركونها خرابا يباباً ، على اتصال فترات التاريخ الطويل ، الذي كانوا فيه أحوج ما يكونون ، إلى عمران الأرض ، والانتفاع بنعم الله التي جعلهم مستخلفين فيها .

وهذه لمسات يسيرة ، تبين لنا أن العقول لم تكفَّ قطُّ عن فهم القرآن وتدبُّره ، وأن إحكامَ القرآن وتفصيلَهُ ، وهو الهيمنة الحقيقيةُ ، على الوَحْدَةِ والتَّنَوُّع في حياتنا الدنيا بتمامها ، لم تنأ عنه همم الباحثين والدارسين ، في أي عصر من العصور .

في كتاب « سراج المريدين » يقول القاضي أبو بكر العربي ، رحمه الله ، ما أوجزناه من قبل في هذه الكلمة * .

« ارتباط آي القرآن كُله كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني ، علم عظيم هو علم « الارتباط » وقد فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حَمَلَةً ، ورأينا الخلق بأوصاف البَطَلَة ، ختمْنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، وردَدْناه إليه » * .

وأهم ما يعنينا – هنا – هذه المعاناة التي تُظهر لنا في كلام أبي بكر بن العربي ، كَسَلَ العقول ، عن فهم هذا العلم القرآني العظيم ، مع أن فلاسفتنا الذين أسَّسُوا الفكر الفلسفي في تاريخنا الإسلامي ، شَغَلوا أنفسَهم بالترجمات التي قدَّمها إليهم المترجمون من النصارى واليهود ، الذين كانوا يجيدون اليونانية والسوريانية وغيرهما ، فنقلوا إلى اللغة العربية ، الفلسفاتِ التي نشأت في الحياة اليونانية الوثنية ، أو غيرها من الأمم ذات الظروف المشابهة لها في الوثنية ، أو الفلسفة !

ولا شك في أن إحكامَ القرآن وتفصيلَه ، هو الكنز الثمين ، الذي لا ترقى إليه الفلسفات ، البشرية في جملتها وتفصيلها ! !

بل إنَّ ارتباطَ العقل البشري ، بالعَقْلِ الألكتروني ، يقوم أساساً على العلْم بجملة الأعمال ، التي تختص بها جملة من مفردات الأرقام ، أو المصطلحات العلمية ، بحيث تختصُّ كلُّ مفردة بمواضع العمل المنوط بها ، فإذا احتاج أي إنسان إلى عَمَلٍ من هذه الأعمال ، لجأ إلى المفردة التي تصله به ، واستفاد من البيان الذي تبينه له بهذا الخصوص .

وليس في هذا كله زيادة على اتفاق الناس على العدد النهائي ، لنسبة محدودة من المعدودات ، فهم يتصرفون في حدودها ، وأقرب مثل لذلك العقل الألكتروني ، أو جدول الضرب للتلاميذ ، أو عداد الأرقام الذي يستخدم فيه الأطفال عددا محدودا من الخرز الملون في حدود حاجاتهم إلى معرفة العد

هذه الجهود العلمية وقبلها الجهود التي بذلها أرسطو في قياسه الصوري ،

---

* القاضي أبو بكر العربي هو أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله المعافرى المعروف بابن العربي ، أحد فقهاء إشبيلية وعلمائها ، رحل إلى المشرق في سبيل العلم ، ثم عاد إلى المغرب وتوفي سنة ٥٤٤ (البرهان للزركشي ج ١ ص ٣٦) .

تعمل في إمداد العقل بنسب محدودة من التَّصَوُّرات ، تعمل في حدود ضيقة ، من ضبط التفكير ، أو وصله بمنافع محدودة ، في الكون والحيــاة .

أما إحكامُ القرآن وتفصيله ، فهو يقدِّمُ إلينا جملة المفردات القرآنية ، وهي جملة الكلمات التي قد يَسَّرَ الله العلمَ بها في جملتها ، وبين لنا أن لكل مفردة من مفرداتها مسارا عمليا يزيدنا علما كلما ازددنا ، له تدبرا .

إن تثبيت جملة الكلمات القرآنية ، يتضمن تخصيص كل مفردة من مفردات هذه الجملة ، بمسارها العلمي بين مسارات المفردات الأخرى جميعا ، ويصل العقل الإنساني ، بالمقاصد المرتبطة بكل موضوع نجد به كل مفردة من هذه المفردات ، ابتداء من أي لحظة يتذكر فيها العقل أي مفردةٍ قرآنية ، واستمرارا بما تُمدُّنا به كل مفردة من ربط متواصل ، بين كل موضع نجدها به ، وبين العمل المشترك بينها وبين ما يحيط بها من المفردات .

وهذا أمر لا يستطيعه البشر ، ولا ترقى إليه الفلسفات البشرية ، أو حتى مبتكرات العلوم المادية ، مثل العقل الألكتروني ، الذي سيظل مجال عمله محدودا بأفق المعرفة الإنسانية بكل خضوعها للنسب والحدود .

ويستطيع أي إنسان أن يقدم لنا عددا معلومةً جملته من الكلام ، ولكن كيف يمكن أن يقدم لنا جملة المسار الخاص بكل مفردة من مفرداته جميعا وفرادى ! !

فالعلم بالجملة لا يعني العلم بجملة العدد الخاص بالكلمات في جملتها الواحدة وحسب .

ولكن العلم بالجملة هو العلم بجملة المسارات وأطوالها وأبعادها للمفردات جميعا ! !

وما قيمة أن نعلم جملة من الأرقام المتصلة ولا نعلم المعدودات التي من أجلها كانت هذه الأرقام ! ! فكذلك الأمر في كلام البشر ! !

ويقول مؤرخ حديث للفلسفة الإسلامية هو ماجد فخري في مجال إرجاعه الفضل في الفلسفة الإسلامية إلى الترجمات الفلسفية التي قام بها بعض النصارى

واليهود ، ذكر أسماءهم بالتفصيل .

« إن التلازمَ الوثيق في الإسلام بين العقائد والأحكام ، أي بَيْن القضايا الدينيَّة والقضايا الدنيوية ، كان يقتضي تحدِّياً صادرا عن الآراء الغريبة ، وتحرُّراً من قيود المعتقد الديني البحت ، وهذا بالضبط ما جرى بحكم تسرُّب الآراء اليونانية ، وانتقال الفضول الفكري اليوناني إلى المسلمين ، الأمر الذي أدَّى إلى ردّة فعل مزدوجة ، بالغة الأهمية في إدراك كُنْهِ الإسلام ، فأشد ما كان الانقسام الذي جاء نتيجة لتسرب الفكر اليوناني ، ما بين العنصر التقدمي ، الذي سعى بكل إخلاص لإخضاع نصوص الوحي لتدقيق النظر الفلسفي ، وبين العنصر المحافظ الذي عزل نفسه ، عزلا تاما ، عن الفلسفة ، باعتبار أنها منافية للتقوى أو أنها غريبة أو مشبوهة ، واستمر هذا الانقسام في الظهور من وقت إلى آخر في غضون التاريخ الإسلامي ، كما لو كان ضربا من التصدع الجيولوجي ، ينذر بشطر صرح الإسلام بجملته » *

ولنعد إلى هذه الكلمة العابرة :

العنصُرُ التقدمي الذي سعى بكل إخلاص لإخضاع نصوص الوحي لتدقيق النظر الفلسفي .

والجواب على هذا الكلام يكمن في أن الفلسفات البشرية ، تجهل جملة الكلمات التي استخدمتها ، فتفقد تبعا لذلك المسار الذي يخص كل مفردة ، بين مفرداتها جميعا .

وحتى لو علم أحد جملة كلامه في موضوع بعينه ، فإن عِلْمَهُ بهده الجملة ليس نهائيا لأنه لن ينتهي من الحذف من كلامه هذا والإضافة إليه أبدا ! !

فكيف - إذن - تستطيع هذه الفلسفات أن تقدم لنا حُلُولاً للمشكلات التي أثارتها ! !

---

* تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٣ وما بعدها وهذا الكتاب ألفه الدكتور ماجد فخري بالإنجليزية ونقله إلى العربية الدكتور كمال اليازجي .

ذلك أن الفلسفات البشرية ، لا تستطيع بحكم جهل الفلاسفة بجملة كلامهم ، أن يخصُّوا كُلَّ مصطلح من مصطلحاتهم ، بالموضع الذي يخصه تماما بين جملة المواضع المجهولة جهلا دائما للفلاسفة أنفسهم ، بحكم اضطرارهم للحذْف من كلامهم والإضافة إليه كما سبق بيان ذلك ! !

إن شبكية العينين ، أي عينين تتصل أجزاؤها نتيجة للعلم الإلهي بجملة هذه الأجزاء .

فعندما يحدث حادث يصيب شبكيةَ العينين بأيٍّ تمزُّق ، تفقد العينان الاستفادةَ بالارتباط بين أجزاء الشبكية ، فتصاب هاتان العينان بالعمى ! !

وهذا نفسه هو الذي يَحدُث في فكر الفلاسفة الذين يظنون أن تدقيقهم الفلسفي. من حقه أن تخضع له نصوصُ الوحي ! !

إن أقرب مثل لذلك ، هو العجب العُجاب ، الذي يصيبنا إذا رأينا رجلا أعمى ، يتقدم إلى رجل حادِّ البصر ، ليتفضَّل عليه ، بإرشاده إلى السير في طريق ، مزدحمٍ بالسائرين والراكبين ! !

إن هذا المثلَ الذي يثير العجب العجاب ، أخفُّ وطأةً في ميزان الحقيقة ، مما حدث من تَفضل المترجمين السابق ذكرهم ، بترجمة منطق أرسطو أو غيره من الفلسفات البشرية ، لتسيطر هذه النصوص الفلسفية المترجمة ، « **على الوحي** » ، كما يقول هذا المؤرخ لتاريخ الفلسفة التي تحمل اسم الإسلام ، والإسلام ليس بحاجة – أبدا – إلى فلسفة ما تأتي إليه من خارج القرآن والسنة .

إن الإسلام يقدم لنا « **إحكام القرآن وتفصيله** » ، لنبيِّن نحن المسلمين ما جهله أصحاب الفلسفات من وجوه الحقيقة ، ونعلِّمَهُم أن جهلِ البشر بجملة كلامهم ، وهو جهل دائب ومطرد ، هو حدهم البشري ، الذي يبيِّنُ لنا ما نطيق أن ندرك من الحدود الفاصلة ، بين كلام الله ، وكلام البشر ! !

ورحم الله أبا بكر بن العربي ، بما أطلق هذه الزفرة الحارَّة ، التي ما زالت مضيئةً بنور الحقيقة ، من وراء هذه القرون الماضية ، على كثرتها ! !

٢ – ثم نجد الخطيب الإسكافي * ، يقدم لنا ذخيرة ثمينة ، من تدبُّره للآيات التي تتشابه في عدد من كلماتها ** .

١ – (**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**) . ٣٥ : البقرة

وهي تتشابه مع قوله تعالى في سورة الأعراف .

٢ – (**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**) . ١٩ : **الأعراف**

وهو يبيِّن ما يخصُّ كلاًّ من الآيتين من وجوه الإعراب ، ويستخرج من ذلك ما يخصُّ كل آية منهما من المقاصد ، فإذا كل منهما لها اختصاصها في كل موضع نجدها به ، بالمقاصد التي جعلها الله مرتبطة بها *** .

ولكن « **الإسكافي** » – رحمه الله – لا يلتفت إلى فكرة الموضع أساسا أو صيغ المفردات القرآنية التي ترتبط بمواضع الكلمات في القرآن ، ولا يذكُرُ لنا شيئا عن ذلك ، أو يستخلصُ من هذا الإعجاز قانوناً واحداً يربطنا به ربطا ظاهرا .

ولو التفت « **الإسكافي** » إلى هذه الظاهرة لحدَّثنا عن مفردات كل من الآيتين ، في سورة البقرة وسورة الأعراف ، ولبيَّن لنا كيف يعمل الحرْفُ ، ثم الكلمةُ ، ثم الجملةُ ، في القرآن كله ، كما رأينا ذلك في حدود ما أمكننا بيانه بهذه الصفحات .

ومع ذلك فقد استخلص « **الخطيبُ الإسكافيُّ** » ، كبرى النتائج المترتِّبَةِ على « الإحكام والتفصيل » ، وهي نفي التكرار عن القرآن .

ومن الدلائل التي يسوقها على ذلك ، أن قوله تعالى :

---

* الخطيب الإسكافي هو أبو عبدالله محمد وكنيته الإسكافي لأنه كان إسكافا ثم برع في فنون الأدب وهو من أصل أصبهاني وكان معاصرا للوزير الأديب الصاحب بن عباد (٣٢٦–٣٨٥ هـ) وولى الخطابة بالرى فعرف بالخطيب الإسكافي وتوفي سنة ٤٢٠ هـ .

** الكتاب الذى جعله الخطيب الإسكافي مناطا للبحث في الآيات المتشابهات هو كتاب « درة التنزيل وغرة التأويل » .

انظر هذا الكتاب السابق الذكر للخطيب الإسكافي ص ١٠ ط دار الآفاق الجديدة ببيروت .

*** وانظر كذلك كتاب معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، ص ٢٨ ، جـ ١ ، ط . دار الفكر العربي بالقاهرة .

[أما السيوطي فهو عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ولد بأسيوط سنة ٨٤٩ هـ ، وتوفي في سنة ٩١١ هـ ، وله ما يقرب من ٣٠٠ مؤلف كبير] .

(وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) في كل موضع من موضعيه بسورة (الكافرون) يرتبط بهدف جديد ، فهذا دليلٌ على تعدُّدِ مواضع العمل ، وليس في ذلك تعدُّدٌ للآية في ذاتها ، حيث هي ثابتة على حروفها وكلماتها بلا تكرار ، ولا تتعدَّدُ أيُّ ذاتٍ بتعدُّدِ أعمالها !

وهكذا ندرك – بحق – أن التكرار لا يكون إلا إذا وجَدْنَا الآية في موضعها أكثر من مرة دون هدف أو عمل .

هذا هو التكرار ، ولا مكان له في كلمات الله التامات .

ومع اكتشاف « **الإسكافي** » ، لهذه الحقيقة الكبرى من حقائق الإحكام والتفصيل ، إلا أنه لم يَصْدُرُ في كتابه كله عن هذا المنهج ، ولا سيما أنه يتحدَّث أساسا عن تعدُّد المواضع بالآيات المتشابهات ، أي الآيات المتعددة المواضع ، وإنما نراه يذكر ذلك حينا ويسكت عنه حينا آخر * .

ومع ذلك فقد ظل جهده العظيم ، منارة عالية يهتدي بها الباحثون عن الحقيقة .

٣ – وقد ظهر أخيرا كتاب جديد * لتاج القراء الكرماني ** ، وهذا الكتاب من تحقيق عالم معاصر هو الأستاذ عبد القادر أحمد عطا *** .

ويقول الأستاذ عبد القادر أحمد عطا في تقديمه لهذا الكتاب .

إن القوة إذا تَفَجَّرَتْ عن مَظِنَّةِ الضعف ، كان ذلك أَدْخَلَ في باب الإعجاز .

والذي يقصده بمظنة الضعف ، هو « **التَّكْرَار** » ! .

وفي هذا الكتاب يقول الكرماني إن كلمة « **عَلَيْهِمْ** » كما نجدها في قوله تعالى بسورة الفاتحة : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) لا تكرار

---

* ارجع الى الخطيب الإسكافي ص ٥٣٦ بكتابه السابق الذكر .

* الكتاب المذكور كما نشر أخيرا بعنوانه الحالي هو « أسرار التكرار في القرآن » وقد أصدرته دار الاعتصام بالقاهرة ، وصدرت منه حتى الآن طبعتان كانت الأخيرة منهما سنة ١٣٩٦ هـ الموافق سنة ١٩٧٦ م .

** تاج القراء الكرماني هو محمود ابن حمزة ابن نصر الكرماني ، ترجم له ياقوت في معجم الأدباء (١٩/١٢٥) وهو غير الكرماني شارح صحيح البخاري . وقد عاش تاج القراء الكرماني في حوالى النصف الثاني من القرن السادس للهجرة كما يرجح محقق الكتاب المذكور .

*** الأستاذ عبد القادر أحمد عطا من العلماء المعاصرين الذين عرفوا بالإجادة في تحقيق كتب التراث .

فيها ، لأن كُلَّ واحدٍ منهما ، متصلٌ بفعلٍ غيرِ الآخر ، وهما « **الإنعامُ** » ثـم « **الغضب** » وكل واحد منهما يقتضيه اللفظ .

وما كان هذا سبيلَهُ ، فليس بتكرار .

ونحن نقول – معا – إنه لأمر عظيم أن يكون عمل « **الكرماني** » في محيط مفردات الآية وليس في محيط الآيات بتمامها ، حيث تحدث عن الكلمة الواحدة وعن مواضعها .

والفرق بين ما صنعه « **الكرماني** » ، وبين ما صنعه « **الإسكافي** » أن « **الإسكافي** » عقد المقارنات بين مواضع الجمل في أكثر الأحوال ، بينما « **الكرماني** » عقـد المقارنات بين مواضع الكلمات ومواضع الجمل كذلك .

وفي صفحاتنا هذه حاولنا – معا – بحمد الله أن ننظر في مواضع الحروف ثم الكلمات ثم الجمل ، كما حاولنا النظر في المواضع المفردة ، والمواضع المتعددة ، لبيان أنه لا تكرار في القرآن أبدا ، وإنما هو كما تدل كلمة القرآن ذاتها ، هو الإحكام أي الربط المحكم بين كل مفردة وبين عملها الجديد بكل موضع نجدها به ولا يكون مع ذلك تكرار بحال من الأحوال .

وحبذا لو كان عنوان هذا الكتاب :

(**أسرار نفي التكرار في القرآن**) بدلا من (**أسرار التكرار في القرآن**) !

٤ – أما الزركشي * فقد أثار في مسألة ارتباط الإفراد بالإجمال في القرآن ، كلاما ذا قيمة كبيرة ، لمن أراد أن ينظر في مصادر هذا العلم من علوم القرآن .

ذلك أن الزركشي ، يحدثنا في كتابه « **البرهان في علوم القرآن** » * عن مواضع كلمة الهدى في القرآن فيقول :

فمن الهدى سبعة عشر حرفا

وهو يقصد بالحرف الأداء والقول الذي نجده في كل موضع من مواضعه .

---

* انظر جمع الوجوه والنظائر ص ١٠٣ « البرهان في علوم القرآن » للزركشي جـ ١ .

يقول الزركشي : فأولها بمعنى البيان كقوله تعالى : ١ - (**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ**)

٥ : البقرة

وبمعنى الدين كقوله تعالى : ٢ - (**إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ**)

٧٣ : آل عمران

وبمعنى الإيمان كقوله تعالى : ٣ - (**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**)

٧٦ : مريم

والحقيقة أن إحكام القرآن وتفصيله ، يقدم لنا ربْطاً مُحْكَماً بين كل مفردة نحتاج إلى دراستها من مفردات القرآن ، ليتكوَّنَ أمامنا من الكلمات المحيطة بالمفردة التي ندرُسها ، ثم من المفردة ذاتها ، سياقٌ يقدّمُ لنا وجوهاً من المعاني والمقاصد ، لكل منها باب من أبواب الارتباط بين كل مفردة وبين موضعها من القرآن ! !

ولما كانت هذه الوجوه تتجدَّدُ آفاق العلم فيها ، كلما انتقلْنا مع المفردة التي ندرس مواضعها ، من موضع إلى آخر ، فإن استخلاص الزركشي لوجوه العلم المتجددة ، من مواضع كلمة « **هُدًى** » لا يغيِّر معنى كلمة « **هُدًى** » في ذاتها ، وإنما يحقِّقُ لنا مزيدا من العلم ، مع كل مزيد من الارتباط بين كلمة « **هدى** » وبين كل موضع من مواضعها !

وهذا هو ما ينبغي علينا - معا - أن نتذكَّرَهُ فلا ننساه ! !

٥- ويصف **الباقلاني** ما تمكن من رؤيته من الإعجاز في إحكام القرآن وتفصيله فيقول في كتابه إعجاز القرآن :

إن كلام الفُصَحَاءِ يتفاوَت ، تفاوُتاً بيِّناً في الفصل والوصل ، والعُلُوِّ والنُّزال ، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما يَنْقَسِمُ إليه الكلام عند النظم ، ويَتَصَرَّفُ فيه القوْلُ عند الضمِّ والْجَمْع .

ثم يبيِّنُ إعجاز القرآن في ذلك فيقول : « إن القرآن على اختلاف ما يُتصرَّفُ فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلفَ كالمؤتلف ، والمتباينَ

كالمتناسب ، والمتنافرَ في الإفراد إلى حد الآحاد » *

ولعله يقصد بقوله « يجعل المختلف كالمؤتلف » الذي يختلف في آراء الناس ، إذ القرآن لا ينبغي أن يكون فيه اختلاف أبدا ! !

وكذلك الرأي في قوله « والطرق المختلفة » حيث يمكن رد معنى الاختلاف هنا إلى التنوع وليس الاختلاف .

يقول الله تعالى :

(وَلَوْ كَانَ من عنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً) ٨٢ : النساء

أما قول « **الباقلاني** » رحمه الله « إلى حد الآحاد » فهو يريد به أن يبيِّنَ أن كل ارتباط بين أي مفردة قرآنية ، وبين موضعها المخصص لها في القرآن كله ، إنما هو ارتباط يتحقق به التَّثْبيتُ والتوحيدُ والتخصيص ، بمعنى أن تكون كلُّ مفردة ، في كل موضع جديد ، ذاتَ هدفٍ جديد ، يقدم لنا وجوهاً من العلم ، جديدةً ، إذا نظرنا إليها بين مواضع القرآن كلها إجمالا وتفصيلا .

وليس كذلك كلام البشر ، ولا ينبغي له أن يكون كذلك .

ومع ذلك فقد أثار « **الباقلاني** » رحمه الله مشكلة « **الْقَدْرِ الْمُعْجِزِ** » من القرآن فقال ما معناه ** .

أولا : « إن أبا الحسن الأشعري يقول في كتبه :

« إن أقل ما يَعْجِزُ الناس عنه ، من القرآن ، السورةُ قصيرةً كانت أو طويلةً ، أو ما كان بقدْرِها » .

« قال : فإذا كانت الآيةُ بقدْرِ حروف سورة ، وإن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجزٌ » .

« قال : ولم يقُمْ دليلٌ على عجزهم عن المعارضة في أقلَّ من ذلك » ! !

ثانيا : إن المعتزلة يربطون الإعجاز بكل سورة بتمامها ، فهم يقولون كما يروي

---

* الباقلاني هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتكلم المشهور توفى سنة ٤٠٣ هـ .

** إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة للبابي الحلبي ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م جـ ١ من هامش كتاب الإتقان للسيوطي ص ٥٧ .

« **الباقلاني** » عنهم إن كل سورة بتمامها فهي معجزة * .

وينتهي كلام « **الباقلاني** » بما تضمنه من رأي أبي الحسن الأشعري ، وكلام المعتزلة ، ليبين رأيَهُ هو إذ يقول « لقد علمْنا أن الله تَحَدَّى المعارضين بالسُّور كلها ، ولم يخُصَّ ، فعُلِمَ أنَّ جميع ذلك معجز » .

ومن هذا الرأي الذي نتفق عليه جميعا ، من كلام الباقلاني .

نوجز القول – معا – في هذه النقط .

إن رأي أبي الحسن الأشعري عن السورة وعن الآية وربطه بالإعجاز بهما ، فيه شعور قوي بالإحكام والتفصيل .

ولو ظهر الإحكام والتفصيل في هذا الكلام كل الظهور ، لبيَّن لنا في حَسْمٍ ووضوح ، أنَّ كلَّ قولٍ قرآني ، ولو كان حرفاً واحداً في موضعه من القرآن ، فهو معجز لا يستطيع أنْ يأتي بمثْلِه البشر !!

ذلك أن الحرف القرآنيَّ ، إذا كان متعدِّدَ المواضع فله في كل موضع جديد ، هدف جديد ، هو تجديدُ الارتباط بالقرآن كله من جهة ، وربطُنا بجديد قائم بذاته ، من وجوه العلم من جهة أخرى . ولا يستطيع البشر ذلك .

ولو عرف المعتزلة هذه الحقيقة ، لما قالوا إن القرآن مخلوق ، لعلمهم أن المادة الكونية بما فيها من أجسام الأحياء ، خاضعة لظروف الفساد ، إذا تحققت شروطه ، بينما القرآن كلام ومعان وهذان لا يفسدان ، وإنما يفسد كلام البشر بانعدام الارتباط فيه بين الإفراد والإجمال ، من حيث المبنى، وانعدام الصدق، من حيث المعنى .

والقرآن مُحْكَمٌ مُفَصَّلٌ كما علمنا .

وهذا أعلى آفاق الإعجاز ، كما نرى بعد ذلك في كلام الفخر الرازي :

ومع ذلك فقول « **الباقلاني** » هو خير ما قيل في ذلك ، إذ قد أشار إلى أن القرآن معجز كله ، فظهر في كلامه شعوره القوي ، بإحكام القرآن ، ولكنه لم يشر

---

* إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة مطبعة البابي الحلبي بمصر بهامش كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ٢ ص ١٥١–١٥٢ .

إلى تفصيله ، مع إشارته إلى إحكامه . ولو فعل لخص مفردات القرآن جميعا من حرف وكلمة وجملة بأن كلا منها معجز .

لو فعل الباقلاني ذلك لبين لنا أن كل قول قرآني بموضعه ولو كان حرفا فهو معجز على وجه التخصيص ، إذا الأصل في إعجاز القَدْر المعجز من القرآن ، أن كل قول قرآني ، فهو معجز لاختصاصه في موضعه ببيان وجوه جديدة من العلم ، لا يأتي بمثلها البشر ، فهي جديدة أبدا مهما تتقدم العقول البشرية في اكتشاف حقائق الكون ، وذكرها بكلامهم وإظهارها بمكتشفاتهم وصناعاتهم !

وقضيةُ القدر المعجز من القرآن ، قد سبقت بها الأمثال فيما تقدم من هذه الصفحات ، حيث أشرنا – معا – إلى وظائف كل حرف أو كلمة أو جملة في القرآن كله ، ومنه اختصاص كل مفردة بالثبات والتنوع معا .

ويقتضي سياق الكلام هنا أن ننظر في خمسة مواضع لكلمة « **مثله** » تبين وجوه التحدي التي وجَّهها الله تعالى للكافرين والملحدين ، في كل مكان وزمان ، ليظهر عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن ، في يسير أو كثير .

والمقصد الأول : تأتي في سياقه كلمة (**مِثْلِهِ**) ببيان عجزهم أن يأتوا بمثل القرآن في اختصاص كل مفردة من مفرداته بموضعها بين المفردات الأخرى جميعا ، ومقصدها الخاص بها من حيث ارتباطها بالقرآن كله ، ارتباط الباب الواحد بقصر متعدد الأبواب ولكل باب ما يصلنا به من مشاهد هذا القصر وطرقه وأبهائه وغرفه ، مع ما سبق من أن القرآن لو كان قصرا لكان أوسع من الكون المادي كله ، فضلا عن كونه لا يدخل في حدود المادة .

يقول الله تعالى :

١ – « **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** » .

٢٣ : البقرة

والكلام هنا عن الريب في نفوسهم ، ولا يعلم ما في النفوس ، أحد إلا الله تعالى وحده لا شريك له .

والتَّحدي « **بِسُورَةٍ من مِّثْلِهِ** » أي بمفردة قرآنية في مقدار السورة ، سواء كانت

من طوال السور أو قصارها ، لأن المقصد الأساسي من التحدي ، هو بيان عجزهم عن العلم بجملة كلام البشر ، ليكون لكل كلمة من كلمات السورة المفتراة ، التي يتحدّون بها كلام الله ، موضعُها الخاص بها وحدها ، بين جملة كلامهم ، ومقصدُها الذي تتفرَّدُ به بين جملة مقاصدهم جميعا .

ولا طاقة للبشر بذلك ، لأنهم يبيِّنُون المقصد الواحد بالكثرة من الكلمات ، والكثرة من الأساليب ، والكثرة من القائلين ، دون أن يخصُّوا ، كلُّ حرف أو كلمة أو جُمْلَةٍ قصيرة ، بمقصدٍ ثابت لا اختلاف فيه ، ولا تقصيرَ فيه عن غاية مَعْقُودَة عليه !

هذا بعضُ ما يبيِّنُ لنا قولُه تعالى (**مِنْ**) ، (**مِثْلِهِ**) .

لأن كلمة (من) تعني الإفرادَ المرتبطَ بإجماله ، هذا الارتباطَ المعجز الهادف الذي لا يكون إلا في كلام الله !

فالتَّحدِّي بالسورة ، إذ هي مفردةٌ بين سائر السُّور ، يتضمَّنُ التَّحدِّي ، بمفردات السُّورة من حروف وكلمات وجمل وآيات ، أن تكون كما هو الشأن في مفردات كل آية أو جملة في القرآن ، محقِّقَةً حِواراً هادِفاً بمواضعها ومعانيها وارتباطاتها بالقرآن كله ، لتجديد معلوماتنا تجديداً لا مثيل له في كلام البشر .

وإنه لتحدٍّ عظيمٌ ، ومعجزٌ إعجازا لا ريب فيه ، وهو مع ذلك تحدٍّ متفردٌ في بابه ، تفرُّداً لا مثيل له في كلام البشر .

والمقصد الثاني : الذي تَرْبطُنَا به كلمة (**مِثْلِهِ**) يُبَيِّنُ لنا أن التحدي ، خاصٌّ بالسورة ، من حيث هي جملةٌ قائمةٌ بذاتها ، بين جمل القرآن .

ونحن نعلم أن كل جملة قرآنية ، إما أن تكون جملةً قصيرة ، تستطيع عقولنا أن تتذكَّرها ، كما هو الشأن في الجمل القصيرة ، التي تكون أقصرَ من آية ، أو الآيات المتعددة المواضع وكلٍ منها آية قصيرة كما هو معروف ، فكلما نَظَرْنا إلى هذه المفردات بذاتها بكلِّ موضعٍ جديدٍ من مواضعها ، ذكَرْنَا ما سبَقَ من مواضعها ، وما تَتَفَرَّدُ به في كلٍّ منها ، من وجوة العلم .

لذلك كان من الجديد في هذا المقصد ، أنه جـاء ببيان القول على أَلْسِنَةِ المنكرين ، بعد أن رأينا في الآية السابقة من سورة البقرة ، أن التحدي كان دالاًّ على الريْب في نفوسهم ! !

وكل من المقصدين جديد في ذاته ! !

وكذلك كل مقاصد القرآن جديدة أبدا ! !

يقول الله تعالى :

٢ - « **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَائْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** » .

٣٨ : يونس

والمقصد الثالث

٣ - (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فائتوا بعَشْر سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**) .

١٣ : هود

ذلك أن العقل البشري ، قد يذكر الجملة من الكلمات ، فَيَصِلُ بهذا التذكُّر إلى جملة المواضع ، التي تخصُّ أمراً بذاته ، كما هو شأننا الآن .

ونحن إذ ننظر في هذا السياق من الآية ١٣ من سورة هود ونجد التحدي (**بعَشْر سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**) نتذكَّر الجملة القرآنية (**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**) كما هي بموضعيها .

وهنا نتساءل : لماذا كان التَّحدِّي في باب الْكَثْرَةِ ، (**بعَشْر سُوَرٍ**) وليس بخمسٍ أو تِسْعٍ أو مائة ! !

لماذا كان التَّحدِّي بعَشْر سُوَرٍ على وجه التَّخْصِيص ! !

وربما كان من ذلك أن العشرة تجمع بين أمرين عظيمين :

الأمر الأول : هو « **الغيب** » الذي يدل عليه الصفر .

فالصفر يدل على الخفاء أو العدم أو الموت ، والله تعالى هو خالق الموت والحياة ، وهو وحده الحي الذي لا يموت .

والأمر الثاني : هو « **الشَّهَادة** » والواقع المتفرِّدُ كما يَدُلُّ على ذلك رقم « **الواحد** » !

فرقم « **الواحد** » قد جعله الله ، سيد الأرقام جميعا ، حيث هو يَتَّسِعُ للكون بما فيه ومن فيه ، فهو كله كون واحد !!

كما يتسع (**رقمُ الْوَاحِدِ**) لأصغر صغير ، في أجزاء الكون ، فهو شيئ واحد ، مهما يكن هذا الشيئ ، جزيْئاً من الجزيئات !!

(**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**) . (**عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**) .

٨-٩ : الرعد

فالتحدي (بعَشْر سُوَرٍ) فيه الجمعُ بين الغيب والشهادة ، شكلا وموضوعا كما نرى في أول رقم دالٍ عليهما وهو رقم (العشرة) والذي يجمع كذلك بين الإفراد من حيث كونه رقماً واحدا ، وبين الإجمال من حيث كونه رقما زوجيا في تركيبه ، ثم في علاقات الأرقام التي يحتوي عليها وهي الصفر ، والواحد !!

وهذا كله ذو قيمة عليا ، من حيثُ اتِّصالُ التحدي أصلا ، بأن يأتي الملحدون بالكثرة من السور ، بعد أن تم التحدي ، بالسورة الواحدة بين السور ، أو السورة الواحدة إذ هي جملة قائمة بذاتها ، بما تحتوي عليه من حروف وكلمات وجُمَلٍ !!

ذلك أن السُّوَرَ العشر ، تجمع بين الغيب والشهادة ، في اختصاص كُلِّ مفردة ، نجدها بكل سورة من هذه السور ، بمقصدها الذي تنفرد به في هذه السورة ، بينما مقاصدُها في السُّور الأخرى ، مقاصدُ ، كُلٌّ منها جديد ، بينها جميعا وفرادى ، ولكننا لا نستطيع أن نرى ذلك كله جملة واحدة .

فهذا دليل على أن الله هو وحده « **عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ** » ، بينما الناس جميعا لا يعلمون من « **الشهادة** » إلا حدودا يسيرة ، لا تكاد تُلِمُّ بأجزاءٍ محدودة ، مما يرون بأعينهم ويلمسون بأيديهم .

والمقصد الرابع : يأتي دالاً على عجز البشر أن يجتمعوا معا ليأتوا (**بِمِثْلِ هذا الْقُرْآن**) .

٤ - **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .**

٨٨ : الإسراء

والناس يموتون ويولدون ، فكيف يجتمعون جميعا وهم محدودون بحدود « **الزمان** » التي تعصف بهم فلا يتعدَّى أحد منهم فتْرَتَهُ الزمنيةَ ، التي ربطه الله بعقالها ! !

والناس يخضعون – كذلك – لحدود « **المكان** » فلا يستطيعون أن يرى بعضهم بعضا ، أو يسمعَ بعضُهم بعضاً ، في اجتماع واحد يضمهم جميعا ، مهما تتقدَّمْ وسائِلُ اتصالهم على اختلافها ! !

ومن كان هذا شأنهم ، لا يستطيعون أن يخصوا كل حرف وكل كلمة وكل جملة ، من كلامهم ، بمقصدٍ ثابت في نفعه وإلزامه لهم جميعا – على سواء – في جميع الأزمنة والأمكنة ، وإنما قصارى جهدهم ، أن يَحْشُدُوا الكثرةَ ، من الكلمات ، لتدور جميعا حول معنى من المعاني ، ثم يَثْبُتُ لهم بعد ذلك بُطْلاَنُ هذا المعنى ، أو إخْفَاقُهم في بيانه .

وياله من تحدٍّ معجزٍ ، إعجازا لا مثيل له في كلام البشر .

أما الْمَقْصِدُ الخامس والأخير : فهو يشمل كل ما يتحدثُ به الناس من حديثهم ، سواء كان هذا الحديث حرفا واحدا أو كلمة واحدة ، أو كان حديثا مسرفا في الطول والإسهاب .

٥ - **فَلْيَأْتُوا بحَدِيثٍ مِثْلِهِ إن كَانُوا صَادِقِينَ .**

٣٤ : الطور

والتحدي هنا قائم على أمرين عظيمين :

الأمر الأول : هو أن كلمة (حديثٍ) مَعْنَاها الكلام الجديد ، الذي يعلم أصحابه أن كل حرف من حروفه وكل كلمة وجملة ، قد انفردت بموضع ، يصلنا بمقصد سابق سبقا مطلقا ، لأي حقيقة يكتشفها العقل البشري ، فتظهر في كلام البشر .

إن « **الاختلافَ** » في كلامِ البشر ، و « **التّدَاعي** » الذي يجعل بعضُه يهْدم بعضاً ، و « **الْعَجْزَ** » الذي يحدُّه عن البيان القاطع ، و « **التّكْرَارَ** » الذي تتفاوت به النِّسَبُ في معرفة الحقيقة ، كل ذلك مما يجعل الحقيقة إن ظهرت في أي قول بشَرْيٍّ ، مسبوقةً سبقا دائما ، إذا استخلصنا الحقيقة من كلام الله .

والله تعالى قد تحدَّى الإلحاد والملحدين تحدِّياً ، عظيما في إعجازه ، حيث جَعَلَ كُلَّ مفردة من ذلك ، جديدةً أبداً في كل موضع نجدها به ، في القرآن كله ! !

فأنَّى للبشر أن يأتوا بمثل ذلك ! !

أما الأمر الثاني فهو أن كل حديث لا يكون حديثا ، إلا إذا كان صادقا صدقا مطلقا ، وعادلا عدلا مطلقا ، وصادرا عن علم الله الذي لا يعزب عنه أي علم أو أي قدرة .

ذلك أن الناس لا يضيفون معنى جديدا ، إلى جملة المعاني النافعة في أحاديثهم ، إلا إذا كان معنى ثابتَ النَّفْع ، دائماً على إلزامهِ ونفْعه إياهم جميعا وفرادى في كل زمان ومكان .

فأنَّى للبشر أن يأتوا بمِثْل ذلك ، وأحاديثهم جميعا وفرادى هي جملة صدقهم وكذبهم معا ! !

كما أنَّهم يجهلون هذه الجملة جَهْلاً لا يشكُّون هم أنفسهم فيه ! !

وصدق الله العظيم :

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ)

٣٤ : الطور

المقصد الأول : يُبينُ عَجْزَ البشر عن ربْطِ الإفراد بالإجمال .

والمقصد الثاني : يُبَيِّنُ عَجْزَ البشر عن ربْطِ مفردات كل جملة من الجملِ ، بالجملة ذاتها ، وبما بعدها من الجمل ، ليكون الكلام في قليله وكثيره ، كلاماً مبرِّراً لأهداف وجوده ، بكل موضع من مواضعه ، تبريرا ثابتا لا تبديل له .

والمقصد الثالث : يبيِّنُ لنا ضرورةَ العلم « **بالغيب والشهادة** » معا لتعمل كلٌّ

مفردة عملها الخاص بها ، في جملة مواضعها التي تختصُّ بها بَيْن مواضِع الكلام كلِّه .

ولا يعلم الغيبَ والشهادةَ أحدٌ إلا الله .

والمقصد الرابع : خَاصٌّ بحدود وجود الناس جميعا وفرادى في المكان والزمان ، وصلَةِ هذه الحدود بأحوال الكلام .

والمقصد الخامس : خاصٌّ بعجز البشر أن يجعلوا أحاديثهم مستحقةً لتسْميتها ، حيث يجب أن يكون كل حديث ، في قَلِيلِهِ وكثيره ، « **حديثا** » أي جديداً أبدا ، ولا طاقة للبشر بذلك .

هكذا ندرك أن القدر المعجز من القرآن ، هو كل ما جاء بكلام الله من حرف فما هو أكثر من ذلك .

والقرآن كله سواء ، في إعجازه ، وإلزامه للناس ونفعه لهم جميعا وفرادى بكل زمان ومكان ، لأنهم يعبدون الله تعالى ، بتلاوتهم للكثير واليسير من آياته البينات ! !

وقضية القدر المعجز ، من القرآن ، وثيقة الصلة بإحكام القرآن وتفصيله ، حيث الارتباط المحكم بين كل قول قرآني ، وبين القرآن كله ، - كما علمنا من قبل - هو مناط العمل في هذا العلم ، وهذا الإعجاز ! !

فكل قدر من حروفِ القرآن أو كلماتِه أو جُمَلِهِ ، يُمْكِنُ لأي عقل أن يتذكَّرَهُ ، أو لأي عينَيْن أن ترياهُ مرتبطا بموضعه من القرآن ، فهو بابٌ متفرِّدٌ ، يَصِلُنَا بعلْمٍ مُتَفَرِّدٍ !

وكلٌّ مُتَفَرِّدٍ فهو جديد ! !

وكل جديدٍ فهو سابقٌ بمصابيحه الهادية ، إلى الحق واليقين ، لا يسبقه كلامٌ سوَاهُ أَبَداً !

وهذا « الجديد أبدا » هو القرآن .

وهذا من أعلى آفاق القول الفصل ، بين كلام الله ، وكلام البشر ! !

سابعا : من مصادر الإحكام والتفصيل في العصر الحديث :

لن يَخْلُوَ عصرٌ من العصور ، على اتصال التاريخ الإسلامي كله ، وحتى تقوم الساعة ، من استخلاص الحكمة الإلهية من القرآن .

ويكفي أن المعاجم القرآنية من أهم المصادر التي نَرْجعُ إليها كلما أردنا المزيد من الفهم ، لإحكام القرآن وتفصيله .

ولكننا لم ندرس هذه المعاجم ، في إطار دراستنا للإحكام والتفصيل في مصادره المعاصرة ، لأسباب كثيرة ، أهمها ، أن المعاجم كما سبق أن رأيناها ، تقوم على كلمات القرآن وآياته ، دون أي جهد من الذين قاموا بترتيبها للدلالة على الإحكام والتفصيل ، أو استخلاص مفرداته ، والإشارة إلى وظائفها الكثيرة ، ومنها الثبات على نصها ، مهما تتعدد مواضعها ، ومنها الارتباط بالقرآن كله من الناحية الشكلية كارتباطها بكل موضع نجدها به ، وكذلك ارتباط المفردات من الناحية المعنوية كما هو الشأن في تنوع المشاهد وتجدد المقاصد ، من خلال وجود كل مفردة ، بكل موضع من مواضعها في القرآن كله .

وحتى لو تم إنجاز المعاجم القرآنية ، التي تقوم أساسا على بيان مواضع المفردات في القرآن ، وبيان الارتباط بين المفردات والمواضع ، فإن هذه الجهود ، وإن كانت جهودا معاصرة ، إلا أنها وثيقةُ الصلة بالقرآن ذاته ، على النحو الذي يجعلها جديرة بأن تتصل بدراسة المصادر القرآنية للإحكام والتفصيل ، كما تم في صفحاتنا هذه .

أما في ما عدا المعاجم القرآنية ، فإن الإشارات المعاصرة التي اختصت بإحكام القرآن وتفصيله ، ما زالت كما هو العهد بها في تراثنا القديم ، عامرةَ بحب القرآن ، والتفرغ له ، والانطلاق في آفاق نوره ، حيث لا نهاية للنور ، ولا انحسار لفيضه الإلهي .

١ – وحسْبُنا أن نشير هنا إلى هذه اللمحة ، التي أفاض فيها القول ، العالمُ الجليل **الشيخ محمد رشيد رضا** ، حيث يقول بكتاب « الوحي المحمدي » .

« لو أن عقائدَ الإسلام المنزَّلةَ في القرآن ، من الإيمان بالله وصفاته ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب ، والجزاء ، ودار الثواب ودار

العقاب ، جُمِعَتْ مرتبةً في ثلاثِ سُوَرٍ أو أربعٍ أو خمسٍ - مثلا - ككتبِ العقائد المدوَّنةِ .

ولو أن عباداته من « الطَّهارة والصَّلاَةِ ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والدُّعاء ، والأذْكار ، وُضِعَ كُلٌّ منها في بضْع سُوَرٍ أيضا ، مبوبةٍ ذات فصول ككتب الفقه الْمُصَنَّفَةِ » .

ثم يقول بعد سطورٍ قليلة من هذا السياق .

« ولو أن قواعدَهُ التَّشْريعيَّةَ ، وأحكامَهُ الشخصية والسياسيَّةَ والحربيَّةَ والماليَّةَ والمدنيَّة ، وحدودَهُ وعقوباتِه التأديبيَّة ، رُتِّبَتْ في عِدَّةِ سُوَرٍ خاصَّةٍ بها كأسْفَار القوانين الوضْعيَّةِ ، .

ثمَّ لو أن قَصَصَ النَّبيِّينَ والْمُرْسَلِينَ ، وما فيها من الْعِبَر والمواعِظِ والسُّنَن الإلهية ، سُرِدَتْ في سُوَرِهَا مُرَتَّبَةً كدواوين التاريخ !!

لو أن كُلَّ مقاصِدِ الْقُرْآن ، التي أراد الله بها إِصْلاَحَ شُئون البشر ، جُمِعَ كُلُّ نَوْعٍ منها وَحْدَهُ ، كترتيب أسْفَار التَّوْرَاةِ التاريخيِّ ، الذي لا يَعْلَمُ أَحَدٌ مُرَتِّبَهَا ، أو كُتُبَ الْعِلْم والْفِقْهِ والقوانين البشرية ، لفقد القرآنُ بذلك أعْظَمَ مزايا هِدَايَتِهِ ، المقصودَةِ ، من التشريع وحِكْمَةِ التنزيل ، وهو التعبُّدُ بِهِ ، واستفادَةَ كلِّ حافظٍ للكثير أو للقليل ، من سُوَرِهِ - حتى القصيرة منها - كثيراً من مسائل الإيمان والفضائل ، والأحكام والحِكَم الْمُنْبَثَّةِ في جميعِ السُّوَر ، لأَنَّ السُّورَةَ الواحدَةَ لا تحوي في هذا الترتيب المفروض ، إلا مَقْصِداً وَاحِداً من تلك المقاصد ، وقد يكونُ أَحْكَامَ الطَّلاَق أو الْحَيْض ، فَمَنْ لم يَحْفَظْ إلا سورةً طويلةً في موضوعٍ واحدٍ ، يَتَعَبَّدُ بها وَحْدَهَا فَلاَ شَكَّ أَنَّهُ يَمَلُّها !!

وأما سُورَةُ الْمُنَزَّلَةُ بهذا الأسلوب الْغَرِيب ، والنَّظْم الْعَجِيب ، فَقَدْ يَكُونُ في الآية الواحدةِ الطويلة ، والسُّورةِ الواحدةِ القصِيرَةِ ، عِدَّةُ أَلْوَانٍ من الهداية ، وإن كانت في موضوعٍ وَاحِدٍ !! » *

---

* أنظر كتاب الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا من ١٤٢ وما بعدها ، ط . المكتب الإسلامي .

ويضيف الشيخ محمد رشيد رضا ، إلى ما سبق قوله أموراً هامة نلخِّصها في أن هناك مَزِيَّتَيْن مَقْصُودَةً كُلٌّ منهما لذاتها في هذا النظم القرآني المعجز .

فالأولى خاصة : بالموضوع حيثُ تنويعُ المقاصد ، في السياق الواحد . **والثانية خاصَّةٌ** بالشكل

ولا شك أن في هذا الكلام الرائع ، ما يبيِّنُ لنا أن ما في القرآن من جَمَال وَكَمَالٍ ، إنما هو لإحكام القرآن وتفصيله ، مع ما لا نحيط به من أنواع الإعجاز القرآني .

وذلك أن الإحكام والتفصيل ، أو الوحدةَ والتنوُّعَ ، اللذين أشار إليهما هذا العالم الجليل ، وهو يبيِّنُ تنوُّعَ المقاصد القرآنية ، بتنوُّع مواضع المفردات ، أساسُ العلْم والإعجاز معا ، في كل ما وصفه الواصفونَ في هذا الباب .

٢ – وهنا أذكر الفضل لأهله ، فأخص بالذكر الناقد الكبير الأستاذ كمال النجمى * الذى وَسعَ المفكرين والكتاب والشعراء في هذه الفترة من تاريخنا الأدبي ، بالنقد والتقويم والتوجيه ، لا يفرِّقُ في ذلك بين أحد وغيره ، ولا بين ناء أو قريب ، أو حاضر وغريب .

فلقد كتبت له رسالة أخبره فيها بخبر هذه الصفحات ، وهى لمَّا تزل في المطبعة ، ففرح بهذا الإنجاز العلمي ، وتحدَّث عنه في عددين متتابعين من مجلة « المصور » قائلا إنه لم يستطع انتظار نسخة من هذا الكتاب حتى يَصْدُر ، ثم أفاض في شرح هذه القضية ، وبيان أهميتها ، حتى أتى على ذكر عَلَم من أعلام عصرنا هو « **مصطفى صادق الرافعي** » – رحمه الله – وقارن بين اتجاه كاتب هذه الصفحات ، واتجاه الرافعى ، في بيان « **إعجاز القرآن** » * * .

ولم أكد أقرأ كلام الأستاذ « **كمال النجمي** » حتى فتح الله بابا من أبواب الخير ، لم أكن قد اهتديتُ إليه من قبل .

هذا الباب ، هو ضرورة الاهتمام ، بالبحث عن مدى إسهام « **الرافعي** »

---

* الأستاذ كمال النجمي رئيس تحرير بدار الهلال وهو شاعر وناقد معاصر له اهتمام كبير بنقد الشعر وتقويم الدراسات القرآنية وكل ما له صلة بتراثنا الفكري والأدبي .

* * العدد ٢٧٧٤ من مجلة المصور

والعدد ٢٧٧٥ من المجلة ذاتها وقد صدر هذان العددان في ٩ ، ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٧ .

في الدَّلالة على مواضع الكلمات القرآنية ، وما في ذلك مـن صلة وثيقة بإحكام القرآن وتفصيله ، ولم أكن قد فعلت ذلك حتى قرأت ما كتبه الأستاذ النجمي ، فقام بواجب الذكرى التي تنفع المؤمنين .

وما أن قرأت كتاب « الرافعي » إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، حتى علمت أني مدين بشكر الأستاذ « النجمي » مرتين :

المرة الأولى على أنه سَنَّ سُنَّةً حسَنَةً في النقــد الأدبي حيــث رأيناه يواكب الآثار الأدبية قبل طباعتها بالنقد والتقويم وحسن الذكر والتنويه .

والمرة الثانية عـلى أنه جاء في ذكره للرافعي بما أدَّى إلى حقيقة علمية عظيمة الأهمية .

فلقد تبيَّن لى – أولاً – أن الشيخ رشيد رضا قد ضمَّن عرْضَهُ للطبعــة الثانية من كتاب « الرافعي » أنه تمنى لو « **عمَّ فيضانُه الفروق بين نَظْم الآيات في طولها وقصَرها ، وقوافيها وفواصلها ، ومناسَبَةِ كلٍّ منها لمواضع الكلام ، واختلاف تأثيره في القلوب والأحلام** » * .

ثم أنظر – ثانيا – في كنوز « الرافعي » التي أودعها كتابه عن إعجاز القرآن ، فأجد قوله « **نَزَل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمَط يُعْجِزُ قليلُه وكثيرهُ معا ، فكان أشبه شيْ بالنور في جملة نسقه ، إذا النور جملةٌ واحدة ، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته** » ** .

وهكذا وصف الرافعي إحكام القرآن وتفصيله ، وصفا أشبه شئ بالدرة الساطعة بين كنز تتسامى درره جميعا ، فلا ندرى كيف يكون البدء في جماله ، وكيف يكون الختام .

والرافعي يذكر بعد ذلك نصوص المفردات القرآنية فيقول إنها هي الحروف

---

* جاء ذلك بالصفحة «٢١» من كتاب إعجاز القرآن للرافعي والشيخ رشيد رضا رحمه الله ، هو أنجب تلامذة الشيخ محمد عبده .

** ص ٧٤ من إعجاز القرآن للرافعي ، والرافعي من أعظم الرواد المعاصرين في عالم الفكر الإسلامـي وتأريخ الأدب العربي .

والكلمات والجمـــل * .

ثم يأخذ في وصف الإعجاز القرآني مبينا هذا الترتيب المعجز ، والتركيب المُعْجِب ، ولكنه لا يذكر تعدُّدَ المواضع وتفرُّدَها ، وما يتصل من ذلك ، بأن كل حرف أو كلمة أو جملة يُقدم لنا جسرا من النور المتِّفق مع دلالته الخاصة به من جهة ، والمرتبطة بمواضعه التي تجدِّدُ لنا مشهدا جديدا ، مع كل موضع جديد ، نجده به .

ومع ذلك فقد كان الرافعي « رحمه الله » هو الأفق الرفيع الذى نظر إليه معاصروه جميعا في أخذهم بأسباب هذا العلم ، وفهمهم هذه الأوصاف الوثيقة الصلة بإعجاز القرآن .

ومع ذلك كله ، فالرافعي هو سيد من وصف هذا العلم في الكتّاب المعاصرين جميعـا .

ولكنَّ الوصْفَ شئ ، وما يجب في حق هذا العلم ، من البحث في جوانبه الرياضية والعلمية ، ورباطة الوثيق الذى يصل العقل الإنساني بالحقيقة على إطلاقها ، شئ آخر ، وعلى مفكرينا جميعا أن يتجرَّدُوا لبيانه ، والصعود إلى آفاقه العالية .

٣ - وإذا كان هذا الكلام السابقُ قد رَدَّ هذه الظاهرة القرآنية المعجزة ، إلى المقصد الأسمي من قراءة القرآن ، وهو العبادة ، فإننا لننظر إلى لمحة أخرى تربط هذه الظاهرة القرآنية نفسها بالأخلاق . ويقول الشيخ محمد عبدالله دراز :

« استطاعت الشريعَةُ القرآنيَّةُ أن تَبْلُغَ كمالا مُزْدَوجاً ، لا يمكن لغيرها أن يحقِّقَ التوافق بين شِقَّيْهِ ، لُطْفٌ في حَزْمٍ ، وَتَقَدُّمٌ في ثَبَاتٍ ، وَتَنَوُّع في وحْدَةٍ » **

وهذه العبارة على إيجازها مليئةٌ بعطر الحقيقة ، مفعمةٌ بقوَّتِها ، وشدة أسْرِها .

ذلك أن أوامر القرآن ونواهيَهُ ، تتهلَّلُ بها الإشارة الخاطفة ، كما تنطلقُ بها الأحوالُ المتتابعَةُ .

---

* ص ٢١١ إعجاز القرآن للرافعي .

** انظر كتاب « دستور الأخلاق في القرآن » للشيخ محمد عبدالله دراز ، ص ١١ ، ط . دار البحوث العلميـة .

وما الوحدةُ والتَّنوُّعُ ، إلا الإحكامُ والتَّفْصِيلُ ، الذي اكتفى أهل الإشارات ، بالإيماء إليه من بعيد ، والتقينا – معا – أيها القراء الأعزاء ، على هذه الصفحات ، لنتقَدَّمَ في آمَاد هذا النور ، تقدُّمَ الذين لا تنأى بهم شجاعة الأَمَل ، عن مخاوفِ الْعمَل ، ولا يَصْرفُهُم الرِّضا باليسير ، عن الطَّمَعِ في الْكثِير !!

إننا نذهب – معا – هذا المذهب في بيان هذه الحقيقة ليرى المنقطعون إلى ما هو مُحَسٌّ من آيات الله الكونية ، أن ارتباط كل جزيء مادي ، في كل موضعٍ جديد ، بجديد من الحركة والعمل والبيان ووجوه الحقيقة ، هو من فعل الله في خَلْقه ، وأن النظام نفسَهُ في ترتيب مفردات القرآن ، هو من هداية الله للأفهام ، بعد أن يسَّر الله ، بنعمه حاجاتِ الأجسام !

ولولا هذه الإجابةُ المسكتة ، لَفَرِحَ المنكرون والملحدون ، بجَدَلِهمْ ومِرَائهم ، وَلَجُّوا في عُتُوٍّ ونُفُورٍ ، وهم يظنون أن جَدَلَهُم بالباطل لِيدْحضُوا به الحق ، كدفاع المؤمنين عن الحق المُبين ، هذا كَلاَمٌ وهذا كَلاَمٌ !

إن بَذْرَ البذور في الأرض ، عَدالَةٌ يقتضيها النظامُ الإلهي ، مع انتظار الثمار ، والفَرَح بأيام الحصادِ !!

هذا نَمُوذَجٌ واحدٌ للعدل كما هو همزة وصل ، بين الشكل والموضوع ، والوحدة والتنوع ، والعمل ونتائجه .

والقرآن في أخلاقه ، يحقق لنا العدل في وحدته وتنوُّعه عَمَلاً ونظاما ، حيث نرى إحكام القرآن ، قائما على علْم الله بجملة مواضعه ، التي تخضع لها حاجاتنا البشرية من الدنيا إلى الآخرة ، وحيث نرى هذه المواضع مرتبطةً بعدالةٍ مطلقةٍ ، بين كل مفردة قرآنية ، وبين حقِّها في موضعها وعملها المتجدِّدِ أبدا ، وارتباطها بالقرآن كله ، في جملته الواحدة .

هذا هو العدل في الشكل القرآني ، أو البناء القرآني بكل إعجازه ورسوخه وثباته .

فإذا وجدْنَا العبارة السابقة ، التي يقول فيها الشيخ محمد عبدالله دراز « **إن القرآن يقوم على كمال مُزْدَوَجٍ أساسه لُطْفٌ في حَزْم ، وَتَقَدُّم في ثباتٍ . وتنوُّع**

في وحدة ، ذكرنا العدْلَ في بناء القرآن ، وعلمْنا أَن هذا الْعَدْلَ الْعَمَلِيَّ ، هو العمقَ البعيد ، لِلْعَدْلِ الذي جاءتنا به أوامر الله في معاني القرآن ومضامينه ! !

و الدكتور مصطفى محمود اغتنمت فرصة لقائي إياه في أثناء طباعة كتابي هذا ، وكان هو في زيارة للكويت ، وأفضت معه في حوار علمي عميق ، حول الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، راجيا أن يهتم هو بدوره بالكتابة عن هذا النوع من أنواع الإعجاز القرآني ،

ولقد سعدت حقا حين وجدت لهذا اللقاء الذي تم بيننا صداه الذي كنتُ أنتظره .

ذلك أنه بدأ في الكتابة عن هذا العلم القرآني وربط بينه وبين آيات الله الكونية ، فقرأت له مقالا عجيبا عن الارتباط القرآني * .

وقد نوه – مشكورا – بمحاولاتي في هذا السبيل ثم أضاف في مقاله هذا إلى المحاولات التاريخية الجادة في تفسير هذا الإعجاز قوله :

« إن الكلمة القرآنية نراها تتكرَّرُ في السياق مئات المرات ، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبدا ، رغم ذلك ، إذ هي في كل مرة تحمل مشهدا جديدا . . وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل ، وأنها تتفرَّع تفرُّعا عضويا – تماما – مثل البذرة التي تعطي جذرا وساقا ثم أغصانا ثم أوراقا ثم براعم ثم أزهارا ثم ثمارا وهي في كل مرة لا تخرج عن كونها نبات البرتقال مثلا ، أو غيره من أنواع النبات » .

وينتهي كلام « مصطفى محمود » لأقول إن هذا الكلام على روعته يحتاج إلى احتياط طالما ردَّدْتُهُ في كتابي هذا ، هو أن القرآن لا يشترك مع آيات الله الكونية ، في ما تتعرَّض له ، من صلاح أو فساد ، وإنما القرآن حقيقة خالصة ، ويقين تام نزله الله في حروفه وكلماته وجمله ، ليرينا في ارتباط هذه المفردات القرآنية ، مهما تتكرر مواضع عملها وارتباطها بالقرآن ، أن الذي نظنه تكرارا ليس بتكرار وإنما هو إحاطة الله المعجزة ، بكل يسير أو كثير من مواضع حاجتنا إلى الهداية الإلهية ، بآيات الله القرآنية ، ونحن مرتبطون بنعم الله في آياته الكونية ، وهذه الهداية الإلهية الواحدة ، تتقدم بنا ، وتسبق كل جديد من أفكارنا ، وألوان طموحنا إلى اكتشاف وجوه الحقيقة ، في فترات التاريخ جميعا ! ! يقول تعالى :

(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِين)

٩١ : الحجر

(وعضين) معناها أعضاء الكائنات الحية ، والقرآن مهيمن عليها وليس داخلا في حدودها !

وهذا الاحتياط لا يغض من قدْر الجهد الكبير ، الذي أنتظره ، وينتظره كل من يحب الدكتور مصطفى محمود ، ويسعد بكل ذكي ، لماح ، من كتاباته وتأملاته .

« والحمد لله رب العالمين » .

---

* هذا المقال نشره الدكتور مصطفى محمود بالعدد ١١٥٥ من أعداد مجلة « صباح الخير » المصرية .

الفصل الرابع

إحكام القرآن وتفصيله دستور الدعوة والدعاة

يجتهد خبراءُ الإعلام المعاصرون ، في الدعوة إلى ما يشاءون ، وفق مخططاتهم ومناهجهم الإعلامية ، من جهة ، ووفق القضايا التي يعملون لحسابها ، من جهة أخرى .

ولقد أخذوا يضعون المصطلحات الإعلامية ، ويستخلصونها من تجارب الماضي والحاضر ، آملين أن يكون لهذه المصطلحات التي يضعونها في حدود الأهداف المختلفة باختلاف اتجاهات الإعلام ، ومناهجه ، وغاياته ، القدرة على الثبات والاستمرار في عالم يشكو مر الشكوى من تمزق المصطلحات العلمية ، وتداعيها على نفسها !

ومن ذلك أن التاريخ الإنساني في مسيرته المتصلة من الدنيا إلى الآخرة ، يقدم لنا فصولا متصلة تقوم على ارتباط كل فرد بشعبه ، وكل شعب بأمته ، وكل أمة بالعالم الإنساني ، والكوني كله .

فكيف تتحكَّم في هذه الوحدة الواحدة ، من سلسلة الوجـود البشري ، مصطلحاتٌ إعلامية ممزقة الأوصال ، مختلفة الأحوال .

حتى لقد أصبح ثابتا بين المفاهيم الإعلامية ، أن « الدعاية » باعتبار كلمة الدعاية مصطلحا إعلاميا ، لا تدل على ضرورة التزام الصدق ، أو الأخلاق ، في ما يتصل بها من النشاط الإعلامي .

فكيف يمكننا أن نتصور ضحايا الدعاية – إذن – في عالم لا تتم فيه الحياة على حقيقتها إلا بالصدق وسائر الفضائل ! !

إن الكون الذي نعيش فيه ، يتكوَّن من فصول من الماء والهواء ومصادر الطاقة والمعادن ، إلى آخر هذه الفصول الكثيرة الأنواع ، ولكنها جميعا ترتبط بمنافعنا وحاجاتنا ارتباطا عادلا وصادقا وثابتا في شكلـه وموضوعه ، فكيف يكون الإعلام الذي يدير الحديث حول هذه النعمة الإلهية بعيدا عن الصدق ، عاريا من العدل ،

مختلفا باختلاف المطامع والأهواء ، فلا ثبات له ولا يقين معه ! *

ولقد رأينا أن في الوحدة والتنوع ، أو الإحكام والتفصيل ، إذا شئنا التعبير الدقيق ، مناطَ الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر .

إن كلام البشر ، لا يرتبط كله بالعقل الإنساني في مجال التذكُّر ، وبالأبصار في مجال الرؤية ، وبالأذنين في مجال السمع ، بمفردات ثابتة النفْع ، في تنمية معرفتنا ووجودنا – نحن البشر – كما يفعل ذلك القرآن بإحكامه وتفصيله ! !

١ – بين إحكام القرآن وتفصيله ومنهج الدعوة والدعاة .

الداعية المسلم ، في عالمنا الإنساني الحديث ، الذي يشتاق إلى اليقين الإلهي ، أكثر مما يشتاق الظمآن إلى الماء ، يستطيع أن يضع أكف الذين يدعوهم إلى الحق ، على الحدود الفاصلة بين الكلمة القرآنية وبين الكلمة البشرية ، ليُزلزل أركان الباطل في أنفسهم ، من أقرب طريق .

إن أي جملة قرآنية يتذكرها العقل أو تراها الأبصار أو تسمعها أذن واعية ، من شأنها أن تقدم للناس ، جميعا وفرادى وفي كل زمان ومكان ، المضمون الذي لا مثيل له ، في مضامين الكلام البشري .

يقول الله تعالى :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٧ : الأنعام

وننظر في هذا المضمون القرآني المعجز ، فنجده حكما قاطعا ثابتا في يقينه ، يبين للناس ، أن أي خبر يرونه عابرا ، في حياتهم اليومية ، لا بد له من شرطين !

الشرط الأول :

أن يكون أي نبإٍ ذا بداية ونهاية ، فلا يوجد في الحياة الإنسانية على اتصالها

* أنظر كتاب « الفيلسوف والعلم » ص ١٧ إلى ص ٢٧ للفيلسوف الأمريكي المعاصر جون جيمني وهو مساعد أينشتين وأحد فلاسفة العلم الكبار في العالم .
وفيه يقول إن جميع المصطلحات العلمية البشرية ممزقة ومختلفة وغير ثابتة فكيف يحق لها أن تحكم على الوجود الإنساني والكوني مع ارتباطه المحكم ، الذى تقوم عليه قوة الحياة وتماسكها .

من الدنيا إلى الآخرة ، نبأٌ واحد ، أو خبر عابر ، إلا كانت له بداية ، وكانت له نهاية .

فلماذا - إذن - تَدعى الفلسفات الإلحادية على اختلافها أن الكون المادي باق أبدا بلا بداية ولا نهاية ، مع أن حياتنا البشرية كلها مجموعة مترابطة من الأخبار والأنباء ، منها ما هو خارج عن حدودنا البشرية ، وهذا هو الوحي الإلهي ، ومنها ما هو داخل حدودنا البشرية ، في سائر وجوه نشاطنا الإنساني .

الشرط الثاني :

أن يكون كل نبأ صادقا وعادلا ، وهنا يكون مستقر أي نبأ صادق في حياة الناس هو انتفاعهم به ، أما إذا كان النبأ كاذبا وظالما فإن نهايته الحتمية هي السقوط والتلاشي ، فلا يثبت في حياة الناس إلا ما كان حقيقيا ونافعا .

إن آيات الله الكونية ، بما فيها الوعي البشري ، وقدرة الناس على تلقي الأخبار والأنباء ، لا ينْفصلُ فيها الشكلُ عن المضمون ، ولا المصطلحُ النظريُّ ، عن العمل الواقعي .

فالخبر الذي يُخبرنا بالصعود إلى القمر ، عليه أن يحمل معه التبرير العمليَّ ، الصادقَ في ارتباطه بالمصالح الحقيقية للناس ، بغير تعصُّب ولا تفرقة ، العادلَ بينهم في توزيع ثمرات هذا الصعود ، إن كانت له - حقا - ثمرات تفي بالجهود الإنسانية المبذولة فيه .

والخبر الذي يخبرنا - مثلا - بالإبادة التي توجه ضد المسلمين في الفلبين ، يكشف الكذب والظلم اللذين يقعان على هؤلاء الشهداء ، ويدفعنا إلى أن نعمل عملا جادا كل الجد ، في الدفاع عن جنود الحقيقة في هذا المكان من العالم .

إن الخبر الصادق ، مع العمل الصادق ، مع النية الصادقة ، هي دعوة الإسلام ، للحياة الصحيحة ، والوجود الإنساني ، المنطلق ، نحو آماله وأهدافه ! !

ولما كان القرآنُ ، يقدم لنا الصدق والعدل والثبات ، في شكله ومضمونه معا ، فإن العقلَ في تذكُّره ، والأبصارَ في رؤيتها ، والسَّمْعَ في استماعه ، يمكنها جميعا أن تصل إلى قوله تعالى : (**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) ، ولو لم نلمح غير حرف واحد أو كلمة واحدة أو جملة واحدة ، من هذه الكلمات القرآنية !

والطريق إلى ذلك واضح وهو النظر في المسار القرآني لأي مفردة من ذلك

أما صناعة الأنباء في حياتنا الإنسانية الحديثة ، فقد أصبحت قُوتاً يوميا يقوم على الكثير من الإعادة والتكرار ، اللذين يأخذان بتلابيب العقول والأفكار ، فينطلق الناس دون إرادة منهم وراء زخرف القول ، ولا تظهر بارقة أمل في نهاية واقعيَّةٍ ، لأي مشكلة من مشكلات العالم ! !

ذلك أن الأخبار الصادقة ، ترتبط دائما بوقائع محددة ذات بداية ونهاية .

أما الدعاية الخادعة فهي تَلْعَبُ بالكلام لعبة عجيبة أساسها ، الخبر من أجل الخبر ، والأنباء لمجرد نشر الأنباء ، فتكثر الأنباء البشرية ، وتختلف ولا نستطيع الرجوع إليها لمناقشتها الحساب ! !

ولو كانت كل مشكلة من مشكلات العالم ، لا يحدثنا عنها إلا الخبر الصادق ، لاستطعنا أن نعرف حدود كل مشكلة ، ونقف على أبعادها الحقيقية في الزمان والمكان ، وأصبح لكل مشكلة قدر يناسبها من الأقوال والأفعال ، لا أثر فيه لقول بلا عمل ، ولا عمل بلا صدق !

ولكن الأخبار الكاذبة ، تخدعنا عن حدود المشكلات ، فنظل نعيش في أبعادها المصطنعة ، دون أن نتبين للحديث عنها نهاية تكشف لنا الخطأ في الأفعال ، بالصدق في الأقوال ! !

بل إن كلمة الدعاية باعتبارها مصطلحا إعلاميا حديثا لتعني النشاط الدعائي لأي قضية من القضايا دون أن يشترط في ذلك الصدق أو التزام الأخلاق الفاضلة .

هكذا يعتمد كثير من أساتذة الإعلام في الكليات والمعاهد الإعلامية على بيان الفارق بين مصطلح الإعلام ومصطلح الدعاية ، فالإعلام يشترط فيه التطابق بين النشاط الإعلامي وبين الواقع الحقيقي ، بينما الدعاية لا يشترط فيها الصدق أو التطابق مع أي واقع خارجي ! !

وتزداد المفارقة وضوحا عندما ننظر إلى الواقع العملي للإعلام العالمي كله ، فنجد الدعاية للإلحاد والملحدين ، والدعاية لاغتصاب الحقوق ، والاعتداء على الأمم والشعوب ، تتسلل بالمفهوم السابق العاري من الأخلاق ، لتزيف كل حقيقة ، وتبيت للعقل الإنساني أسوأ أشكال الخداع ! !

والأمثال على ذلك كثيرة ، ومنها هذه الملحوظات :

١- إن أعداء الحقيقة من كل لون ، ينكرون « **الغيب** » مع أنهم يستمعون إلى الأنباء ، في المذياع ، ويقرأونها في الصحف ، ويشهدونها على شاشة التليفزيون وتتصل فصولها في وقائع حياتهم الإنسانية والكونية !

فكيف يكون إنكارهم للغيب ، إنكارا صادقا وعادلا ، وهم يفعلون ذلك ! ! وكيف يكون هجومُهم على دين الله ، بريئا من الكذب على الله وعلى الناس ، وهم متناقضون إلى هذا الحد ! !

ولا يخفى على أحد أن « **الغيب** » مرتبط بأي نشاط إعلامي لأن الناس لو كانوا يعلمون الغيب ما كانوا بحاجة إلى الإعلام !

إن على الداعية المسلم ، أن يتزوَّد بهذا النور المبين ، الذي يجلِّيه له إحكامُ القرآن وتفصيلُه ، حتى يبهرَ العقولَ التي تحجبها عن الحق وأهله ، ظلماتُ الإلحاد والملحدين !

إن قوله تعالى :

ذَلِكَ من أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، فيه الدلالة الناصعة ، على صدق الوحي ، لأن الغيب لا يعلمه أحد إلا الله ، فكيف يكون أي قول قرآني ، همزةَ نورٍ بين معرفتنا ووجودنا وبين هذه الزيادة المطردة ، في العلم ، إلا إذا كان القرآنُ هو كلامَ الله ، ربِّ العالمين !

٢ – ولقد دأب الملحدون ، على تأليه المادة ، والادعاء أنهم كشفوا من قوانينها ما يُغنيهم عن دين الله ، مثل قانون الزوجية الذي يسمونه قانون التناقض ، ومثل قانون الحركة وقانون التغير ، فكيف يمكنهم أن يكتشفوا هذه القوانين ، إلا إذا كان الله تعالى هو الذي وصل بين هذا التنوع العَظيم ، في آيات الله الكونية ، لنعلم أن ما جاء به القرآن من الإحكام والتفصيل ، هو الدليل الأكبر على أن القرآن

هو كلام الله ، كما أن الله تعالى هو رب العالمين !

٣- والعجيب حقا أن الإلحاد والملحدين أخذوا يُشيدون باكتشافهم قوانينَ الوحدة والتنوع في الكون ، ويمزقون أوصال الوحدة الجامعة لهذه القوانين ، بما يتفق مع إلحادهم ، مع أنهم لا يستطيعون أن ينكروا قانون الارتباط الذي رَبَطَ الله به بين منافعنا الإنسانية جميعا برباطه الوثيق .

٤- فماذا لو أن الدعاة إلى دين الله ، درسوا « **إحكام القرآن وتفْصيلَه** » ليرفعوا راية القرآن عاليةً عالية ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تكشف هذا الظلام وتبدِّدُ هذه الأوهام ! !

يقول الله تعالى :

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

٥١ : القصص

فإذا أخذنا ننظر في التذكر بالجملة القرآنية ، بعد أن رأينا كيف تتذكر العقول الحرف الواحد والكلمة الواحدة ، فيهدي النور إلى النور ، واليقين إلى اليقين ، ووقفنا على سبيل المثل ، أمام قوله تعالى : **(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)** لوجدناها تنطلق بالعقل الإنساني ، في فصول متصلة من الدنيا إلى الآخرة ، تبين لنا أن الأنباء لا ينبغي أن تكون فارغة من المحتوى العملي ، كما هو الشأن في كثير من المدلولات البشرية للأخبار والأنباء ، وكما هو واقع في حياتنا البشرية المعاصرة !

لنفترض أن أحد المستمعين إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

٥١ : القصص

قد نسي الآية بتمامها ، ولم يتذكَّرْ منها إلا هذه الجملة القرآنية **(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)** فماذا عسى أن تحقق له هذه الجملة القرآنية ، من وجوه العلم ، لو أنه تدبَّر كل مواضعها في القرآن كله ! !

١ - **(وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)** وتنطلق بنا هذه الآية حتى تنتهي بنا

إلى قوله تعالى : .

(أُولئكَ يَدْعُونَ إلى النّارِ واللهُ يَدْعُو إلى الجنة والْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتذَكَّرُونَ)

٢٢١ : البقرة

إن إحكام القرآن وتفصيله ، هو البناء السامقُ للعقل الإنساني ، ولذلك فالدعوة إلى **التَّذَكُّرَ** في القرآن تبدأ منذ اختيار كل مسلم الزوجة المؤمنة ، لأن الزوجة المشركة ، تمزق بشركها أواصر العقل الإنساني ، فلا علْمَ ولا خيرَ ولا عقلَ ولا تَذَكُّر .

هذه هي الخطوة الأولى ، في بناء العقل !!

وننطلق مع الجملة القرآنية (**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**) إلى أفقها الجديد .

٢ – **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابتٌ وَفَرْعُهَا في السَّمَاءِ)**

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتذَكَّرُونَ)

٢٤–٢٥ : إبراهيم

وياله من رباطٍ بين انتفاعنا بآيات الله الكونية وآياته القرآنية ، هذا الرباطُ الذي يصل بين منفعتنا بالشجرة الطيبة والكلمة الطيبة ، مع ضرورة وعينا دائما ، أن الدنيا برمتها فانية زائلة ، وأن كلام الله هو النور الباقي أبدا !!

(وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

هكذا يبني اللهُ عقولَنا بالغذاء ، والجمال ، في الشجرة الطيبة ، كما يؤيدنا باليقين بالكلمة الطيبة

وإلى أفق جديد ، في بناء العقل الإنساني مع قوله تعالى :

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) .

٣ – **(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)** . ٤٣ : القصص

وهنا نصل إلى أن الهداية الإلهية ، هي النورُ الباقي في الناس ، مهما تهلكْ منهم القرون ، وَيُعَفِّ الزمن على الأمم والشعوب .

وقوله تعالى : (**بَصَائِرَ للنَّاس**) يوضح لنا هذه الحقيقة .

وإلى أفق جديد في بناء العقل الإنساني ، بنور الهداية الإلهية .

ذلك أن الآيات في سورة القصص تتصل إلى قوله تعالى :

٤ - **(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً من رَّبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)**

٤٣-٤٦ : القصص

وَهُنا نعلم أن التاريخ كلَّهُ ، هو تاريخ الدعوةِ إلى الله ، والدعاةِ إلى الله .

فالبُعْدُ التاريخيُّ في العملية الإعلامية ، هذا البعدُ المقصود في الإعـلام باتجاهاته ومصطلحاته المختلفة في حدود الفكر البشري ، يبيِّنُ لنا ، **كلامُ الله** ، كيف تُبْنَى به عقولُنا مع تذكُّرِنا أنباءَ الرسل السابقين ، وأنباءَ أقوامهم !

وهنا نقف بين رسالة موسى ، وهي خاصة لبني إسرائيل ، ولكن هَلاكَ الأمم من قبل موسى ، جَعَلَهَا وَصْلاً للعقل الإنساني ، بنور الهداية ، بعد أن تمزّقَتْ بالناس أسبابُ الحياة المادية ، وبيْنَ رسالة خاتَم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي رسالةٌ عامَّةٌ للناس كافَّة ، ولكنها جاءت لقوم ما أتاهم من نذير ، قبلَ رسولنا صلى الله عليه وسلم ، لتكون تجربتُهم في الحرمان من النور قَبْلَ أن يأتِيَهُمْ ، خيْر دافع لهم ، إلى حُبِّ الحقِّ والدعوةِ إليه ! (**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

ومع أُفُقٍ جديد من هذه الآفاق

٥ - **(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُون أهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِن اللهِ إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ)** .

٥٠-٥١ : القصص

إن اتصال نور الهداية الإلهية في فترات التاريخ جميعا ، يقوم على الفهم العميق للوحدة والتنوع في الكون بما فيه ومن فيه ، وعلى الإحكام والتفصيل في كلمات

الله التامات ، حتى تكون المسئولية شاملةً للناس جميعا مهما تتعدَّدْ أحوالهم ، وحتى تكون الهدايةُ متحققةً لهم جميعا على سواء ! !

لذلك بيَّن الله لنا أن أهواء البشر ، تمزق أفكارَهُم وفلسفاتِهم ، فيكون في تعميمها على الناس ، ظلْمٌ أيُّ ظلم .

أما هدى الله فهو نور واحد تَمَّت فصوله واتصلت ، كما اتصلت أجسام الناس بأفهامهم بآيات الله الكونية جميعا وفرادى ، وبذلك يتحقق لهم الارتباط بآفاق الهداية الإلهية من كل لون ونوع ، ودون أي عائق يعوقهم عن ذلك .

ورجالُ الدعوة الإسلامية بحاجة إلى **إحكام القرآن وتَفْصيله** ، ليبيِّنُوا إعجازه من جهة ، ويعملوا بما في هذا الإعجاز من العلم ، الذي يجب أن يعمل به العاملون ، فلا يكون مجرَّدَ علم أو إعجازٍ يُعْجَبُ به المعْجَبُون ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل ! !

لذلك كله ، ولكثير غيره مما لا تحيط به تصوُّراتُ البشر مهما تتَّسعْ آفاقها ، يسطع نور هذه الجملة القرآنية « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » في سورة الزمر بين هذه الآيات

٦ - **(اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُم إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** .

٢٣ : الزمر

إن التشابه يكون في العقل الإنساني ، حين يتعدى العقل حدودَهُ ، فينظر إلى الكثرة من كلمات القرآن ، نظْرَةً عَجْلَى ، ويستخلص منها ما ليس فيها ، أو يغفلُ قلبهُ عما فيها من هُدَى الله .

ويأتي قوله تعالى (مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ) لتدلنا كلمة مثاني على أن الصلة الإلهية المحكمة بين كل مفردة قرآنية نحتاج إليها فإننا نهتدي بنورها سواء كانت حرفا أو كلمة أو جملة ، وسواء كانت ذات موضع واحد (فالمثاني) تربط بينها وبين موضعها من القرآن كله من باب واحد ، أو كانت ذات مواضع متعددة فالمثاني تربط بينها وبين القرآن كله ، من أبواب كثيرة ، علينا أن ندخلها بابا ، بعد باب ، حتى نملأ

أبصارنا وبصائرنا بهدي الله .

(ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَّشَاءُ)

فالله تعالى ليس له شريكٌ في مُلْكِهِ ، وليس هناك قدرةٌ ولا علمٌ يَعْزُبَان عن قدرته وعلمه ، فهو سبحانه يَهْدي من يشاء ، ونحن البشر عاجزون عن هداية من نشاء ، وانما نبذل وُسْعَنَا في فهم هذا الإحكام وهذا التفصيل ، والهداية على الله .

وتتصل الآيات حتى نصل إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاس في هَذَا الْقُرْآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون) .

٢٧ : الزمر

فإفراد كلمة (مَثَلٍ) هنا تؤكد لنا ضرورة التَّفْريد ، في تَدَبُّر القرآن حرفا بعد حرف ، وكلمةً بعد كلمة ، وجملة بعد جملة ، مع النظر في مواضع كلٍّ من ذلك ، فلا طاقة للبشر في أن يدخلوا أبواب القرآن في لمحة خاطفة ، تجمعها كلها في جملة واحدة ، ولو فعلوا ذلك ما دخلوها أبدا !

هكذا ينفع الإحكام والتفصيل ، في الدعوة إلى الله ، فالذين تُوَجَّهُ إليهم الدعوة ، يرون بعض الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، فيقبلُون على هدى الله ، بإذنه ، والدعاةُ يحملون هذا العلم ، نورا ساطعا ، بين أيديهم وبأيمانهم ، على بركة الله .

ونأتي إلى فصل الختام من هذه الفصول التي أَحْكَمَ الله ارتباطها بمواضعها من كتابه المنير ! !

٧ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون)

(فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)

٥٨-٥٩ : الدخان

إن الدعوة إلى الله ، تقوم على تذكر العقل ، تذكُّرا واعيا بفصول الحياة الدنيا ، وهي متصلة بالآخرة .

ولقد تم أمر الدعوة بلسان إمام الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى

يعلم الدعاة إلى الله ، أن القرآن ، وكل ما تحقق به في الواقع العملي من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله – وهذا هو دور السنة المطهرة – هو سبيل الدعوة إلى الله .

فالدعاة إلى الله عليهم أن يجعلوا من إحكام القرآن وتفصيله بيانا للحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، حتى ينقذوا أكبر قدر من الناس من ظلمات الإلحاد والكفر ، التي تسوي في الجدل والمراء ، بين كلام الله ، وكلام البشر ! ! !

والدعاةُ إلى الله ، عليهم أن يبيِّنوا للناس كافَّةً ، أن إحكام القرآن وتفصيله ، هو أبواب الرحمة المفتوحة إلى هدى الله ، وما كان لأحد أن يطيق الدخول في هذه الأبواب جميعا بكل شمولها ، وكثرتها ، واتساع آفاقها ، مع الصبر على إفراد كل منها بما هو أهله من التلاوة والتدبر ، إلا إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي وَصَلَ العلم بالعمل ، والقول بالفعل ، وبنى أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، وما الدعوة والدعاة ، إلا قبس من نور النبوة ، عليه أن يعود في منهجه وسبيله ، إلى نبعه الأصيل ، نبع القرآن والسنة ! !

وقوله تعالى : (فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)

٥٩ : الدخان

يقصد به ارتقاب أشراط يوم القيامة ، والدليل على ذلك أن قوله تعالى :

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)

١٠ : الدخان

قد هدانا إلى الربط بين الآيتين ، الآية العاشرة من سورة الدخان ، والآية التاسعة والخمسين من السورة ذاتها .

فارتقاب أشراط الساعة ، مع تيسير الذكر ، واتصال الدعوة والدعاة إلى يوم القيامة ، هو فصل الختام ، في بناء العقل الإنساني ، بإحكام القرآن وتفصيله .

ويا لها من سبعة آفاق عالية تمضي بعقولنا لنتذكرها

١ – لحظة اختيار الزوجة المؤمنة .

٢ – حسن الاستماع إلى الكلمة الطيبة والعمل بها .

٣ – بيان حقيقة التاريخ في حياة الدعوة والدعاة ، ومن تشملهم الدعوة بحجتها البالغة .
٤ – ثم يتبع ذلك دور أمتنا في هذه الدعوة ، من حيث حاجتُهم إليها ، ووجوب قيامهم على واجبات تبليغها إلى الناس كافة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .
٥ – ثم يأتي بعد ذلك بيان أن الله تعالى هو الذي وَصَّلَ الْقَوْلَ ،نورا هاديا للناس كافة ، في كل زمان ومكان .
٦ – ثم يأتي ذكر الأدب ، الذي أدبنا الله به ، حتى نُنْعِمَ النظر في إحكام القرآن وتفصيله ، فلا نقول في القرآن بالرأي ، أو نستكثر من أبوابه بغير اعتبار بالقدرة الإنسانية المحدودة ، التي لن تدخل أبواب القرآن ، إلا بابا بعد باب ، ولا يمكنها أن تدخلها كلها جملة واحدة .
٧ – وأخيرا نصل إلى أشراط الساعة ، وعلينا أن نرتقبها وندعو الناس إلى ارتقابها دائما ! !

والإلحاد والملحدون بمناهج إلحادهم لا يعترفون بالقيم التي جاء بها الإسلام ، ولكنهم يحتاجون إلى هذه القيم في واقعهم العملي .

إن الصدق وصْلٌ عملي بين معرفتنا الإنسانية ، وبين فترات التاريخ جميعا ، وهم يلفقون من فصول التاريخ ما يهيئ لهم أن يخرجوا على الناس بفلسفات ، يرقعونها كل يوم بجديد من الرقع ، يسترون ما فيها من خلل ، وهم في كل ذلك يذعنون للإيمان بالغيب ، ولكنهم ينكرونه ، ويذعنون لحاجتهم إلى الصدق ، ولكنهم يتكبرون على الحقيقة ، فلا يعترفون بأن الصدق والعدل والإيمان بالغيب وسائر القيم التي جاء بها القرآن ، وطبَّقَتْها السُّنَّةُ المطهرة ، قولا وعملا ، هي نور الهداية الإلهية ، فهم – إذن – يسرقون القيم ، وينكرونها ، مع أن الله يسَّرها لهم بما لا حاجة معه إلى الوقوع في جريمة السرقة ! !

ومع ذلك فقد كثرت المذاهب الإلحادية التي تحاول أن تنادي بأن القيم نسبية ، كما أن المعرفة الإنسانية نسبية .

والمعرفة الإنسانية نسبيَّةٌ ، ولكن أقل قدر من نور الهداية الإلهية ، إذا استنارت

به القلوب فقد اتصلت بالحقيقة على إطلاقها ولقد يسر الله الصدق كله ، والعدل كله ، والعلم كله ، والأخلاق الفاضله كلها في قول (لا إله إلا الله) فمن قالها وعمل بها لم تزل تنير قلبَهُ ، وتَهْدي عمله حتى يحوز الفضائل جميعا .

أما الأخلاق في ذاتها فهي النظام الذي وصل الله به التنوع بالوحدة الشاملة ، في أمور الناس جميعا على اتصال المسيرة من الدنيا إلى الآخرة .

إن الداعين إلى الإسلام ، يجتهدون في أن يبيِّنوا للعالم أمثال هذه الأخطاء الإلحادية .

والله يزودهم بالنور الذى يمحو ظلماتها بالفهم العميق ، لإحكام القرآن وتفصيله ، وكيف طبَّقَهُ الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، في سنته القولية والعملية .

٢ – حجة للدعوة والدعاة على بطلان نسبية القيم :

ولنَنْظُر كيف تصدَّى المفكر الإسلامي المعاصر الأستاذ سالم البهنساوي للفرية القائمة ، على ادعاء نسبية القيم ، فهو مَثَلٌ يحتذى به في هذا السبيل ! !

[إن المطالبة بتطوير الإسلام قضية كبرى حمل لواءها المبشرون المستشرقون لغرض لم يخفوه * .

لقد وضع جماعة من المستشرقين كتابا جمعه وعلق عليه أحدهم وهو (جب) الذي كان عضوا بمجمع اللغة العربية بمصر ! !

والكتاب هو (الى أين يتجه الإسلام)

وقد جاء فيه (أن مشكلة الإسلام بالقياس إلى الأوروبيين ، ليست مشكلة أكاديمية خالصة فحسب ، فإن لتعاليم الدين الإسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم ما يجعل لها مكانا بارزا في أي تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي) ثم يقول :

---

* السطور الواقعة بين القوسين من مقال للأستاذ سالم البهنساوي منشور بمجلة المجتمع وجريدة الرأي العام . الكويتيتين بتاريخ ١٣٩٤/٣/١ هـ – ١٩٧٤/٤/٢٣ م .

(الواقع أن التعاليم الدينية ومظاهرها عند أشد المسلمين محافظة على الدين ، وتمسكاً به ، قد أخذت في التحول ببطء خلال القرن الماضي . . . وإذا حدث هذا فإن معناه أن الموازين الدينية والتعاليم الأخلاقية في الاسلام ، آخذة في التحول وأن هذا التحول يتجه نحو تقريبه من الموازين الغربية في الأخلاق)

ثم يقول الأستاذ سالم البهنساوي في مقاله : *

« إن تطوير القيم تبناه اليهود فقد دفعوا بداروين ودوركايم وفرويد لترويج نظريات قيل إنها علمية تنتهي إلى أن الأخلاق نسبية وليست ثابتة وأن القيم يجب أن تتغير بتغير الزمان .

فهل جهل الذين نقلوا هذه الدعوات إلى المجتمع الإسلامي ، أن الإسلام لم يتدخل في الأمور التي تخضع للتطور والتغيير كالصناعة والمعمار وأحوال المدنية فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) رواه مسلم .

وهل جهلوا أن الإسلام يحكم السلوك في القول والمعاملات وهذه أخلاق ثابتة لا تخضع للتغيير والتطوير .

إن القيم الدينية في جميع الأديان لا تختلف ، باختلاف الزمان والمكان فالكذب ، ما كان رذيلة في عصر نوح ثم أصبح فضيلة في عصر ميكافيلي !! . والسرقة لن تكون فضيلة في المستقبل ، ولم تكن إلا رذيلة في الماضي . والفحش والدنس والانحراف الجنسي لم يكن رذيلة ثم أضحى محمودا .

إن نفس الإنسان لم تتغير منذ آدم ، إن الذي يتغير هو وسائل حياته ومعايشه وهذه تركها الإسلام للناس ينظمونها حسب علومهم وتجربتهم .

إن القول إن القيم الدينية تتغير أو تتطور مع الزمن يجعل الدين مرتبطا بسدنة وكبراء كل عصر ويجعل الناس عبيدا لهؤلاء السدنة والكبراء يتبعونهم ويقلدونهم .

ولقد جاء الإسلام ليحطم كل ذلك ويحرر الناس من هذه التبعية ، وأعد عذابا أليما للفريقين ، فقال تعالى يصف مواقف المقلدين وسادتهم (يَوْمَ تُقَلَّبُ

---

* الأستاذ سالم البهنساوي رجل قانون ومفكر إسلامي معاصر له دراسات كثيرة منها كتابه « الوجيز في العبادات » وكتابه « الحكم وقضية تكفير المسلم » .

وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعْنا الرسولا . وقالوا ربَّنا إنا أطعْنا سادَتَنا وكبراءَنَا فأضلُّونا السبيلا . ربنا آتهم ضِعْفَيْن من العذاب والعنْهم لعْنا كبيراً) .

٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ : الأحزاب

ثم قال الله مسجلا تبرؤ كل فريق (**إذ تبرَّأ الذين اتُّبعُوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسْبَابُ**) .

١٦٦ : البقرة

ان المناداة بتطوير القيم وربطها بعادات الناس وميولهم ، من شأنه أيضا أن يجعل الإسلام ماركسيا كما طالب (جارودي) ذات يوم ، أو مواليا للغرب كما طالب (جب) وأن يكون لدعاة الجنس واللذة إسلام يجعل ممارسة هذا اللون تسبيحا بقدرة الله واعترافا بجمال الخالق .

إنهم يودون لو تحطِّمُ هذه الأهواءُ عقيدة الإسلام ، وهذا ما أفصح عنه كرومر في كتابه (بريطانيا العظمى في مصر) حيث يقول (. . فإذا أمكن للمبادئ الإسلامية أن تتطور مع الزمن المتطور . . . عند ذلك سوف يتحرر ملايين البشر من هذه العقائد ! !) .

إنه لا فرق بين الدعـوة التي تبنَّاها كرومـر وجـب ، ودوركايم وفرويـد وجولدتسهير وبين تلك التي ينادي بها كل رأي منحرف ، وفكر ضالٌ .
فماذا بعد الحق إلا الضلال] .

وهكذا نجد في بيـان الأستاذ سالم البهنساوي لخطـل المنادين بنسبية القيـم ، ما يدلنا على أن القيم الصحيحة والأخلاق الفاضلة لا مصدر لها إلا الهداية الإلهية ، التي تتسع لفترات التاريخ جميعا ، وتجعل الإيمان بالغيب ، ضرورة لا غنى لأحد من الناس عنها ، لأن الإيمان بالغيب ، قيمة من القيم التي فرضها الله تعالى على الوجود الإنساني والمعرفة الإنسانية في كل مكان وزمان .

٣ - حجة للدعوة والدعاة على سقوط التفسير المادي للتاريخ :

إن التفسير المادي للتاريخ ينكر الغيب ، ليتوسل بهذه الأكذوبة المكشوفة إلى إنكار الإيمان بالله .

فكيف يمكن أن يكون ذلك صحيحا ، مع أنهم يعترفون أن لكل فترة من الفترات التي يحملون فيها مسيرة التاريخ ، طابعها المميز .

ذلك أن من حق الدعاة إلى الله ، أن يسألوهم عن تحقق المعرفة الإنسانية بهذه الفترات .

إن المشاعية البدائية ، فترة يدعي أصحاب التفسير المادي للتاريخ أنها آتية في المستقبل الذي لم يأت أوانه بعد ! !

فكيف أمكنهم - إذن - أن يعرفوا هذا الغيب ! مع أنهم يقولون إنهم لا يؤمنون بالغيب ! !

وإذا قالوا إنها فترة سبقت من قبل ، وهي آتية في المستقبل كذلك ؟!

فكيف علموا بأمر كان في الماضي دون أن يكون صدْق القائلين ، ضرورة ، وتصديقهم بالصدق ، ضرورة كذلك ، والغيب هو همزة الوصل بين هؤلاء وهؤلاء ! !

وإذا كان علْمُنا بفترة واحدة لم تأت بعد ، مع أن تصور قدومها خطأٌ أصلا ، إذا كان هذا العلْمُ يفرضُ علينا ضرورةَ الإيمان بالغيب ، فكيف - إذن - يفسِّر الملحدون ، التاريخَ هذا التفسير ، ليصلوا إلى تلفيق رفضهم أن يؤمنوا بالغيب ! !

وماذا يكون الأمر في الفترات الماضية جميعا . أليس وجودها في الواقع العملي مع تعدد أنواعها دليلا على حتمية الإيمان بالغيب .

إن إحكام القرآن وتفصيلَهُ ، قائم على ظهور المواضع في حاجاتنا الإنسانية إلى الحقيقة ، حتى لا ننسى الحقيقة ، أو نعصي الله ، أو نخرج من هداية القيم التي جاءت بها كلمات الله التامات .

أما كلمات الله التامات ، فهي بإحكامها وتفصيلها ، تقوم على ظهور الإلزام الإلهي للناس جميعا ، وفي كل زمان ومكان ، بعدالة تامة في هذا الإلزام ، كما هو

ظاهر في القرآن مبنى ومعنى ، وبعدالة تامة وصدق تام في تيسير القرآن للذكر مهما تتنوع قدرة كل منهم على تلاوة القرآن وتدبره ، واتباعه واتباع كل ما حققه به رسول الله صلى الله عليه وسلم في القول والعمل .

ومن الدعاة الذين تصدَّوْا لهذه الناحية في أوهام الإلحاد كاتبٌ إسلامي معاصر هو الأستاذ عبد الحليم عويس *

وقد صدر هذا الكاتب الإسلامي عن فكر إسلامي عظيم ، حين حلّل مواطن التقدم في حياة الأمم ، وردَّها جميعا إلى اتباع هدى الله ، كما حلل مواطن التأخر والسقوط ، وردها جميعا إلى الانحراف عن طريق الهداية الإلهية ! !

ولا شك في أن الداعين إلى الله جميعا ، يَصْدُرون من هذا الفكر ، وينادون به بوجه عـام .

ولكن انطلاق هذا الفكر ، من الوعي التام بمواضع الكلمات القرآنية ، كما هي ظاهرة في إحكام القرآن وتفصيله ، فيه تفصيل عظيم ، لأبْعَاد الحقيقة ، وفيه ما يرمي الجاحدين والملحدين بالمُسْكِتَة * ، وبذلك يعمل الدعاة وفق منهج راسخ الأصول ، ظاهر الفروع ، يسير فيه طلاب الحقيقة ومحبُّوها فَيُنَجِّيهم الله ، من المناهج البشرية الجاحدة ، التي ترفع من الشعارات المختلفة المتناقضة ، ما يمزق الحياة الإنسانية ، ويُسْلِمُ زمام مسيرتها للإلحاد والتعصب والجمود ! !

إن الدعـوة الإسلامية ، حين تقوم على منهج وثيق الصلة بإحكام القرآن وتفصيله ، تضيف إلى جملة المعاني الشاملة ، التي ينطلق من خلالها الدعاة ، كما يبذلون في ذلك جهودهم المشكورة ، **بُعداً جديداً** ، هو هذا المدد الذى يقدم لنا من القرآن ، في مبناه ومعناه ، وفي شكله ومضمونه ، معانيَ كثيرة ، وتطبيقات عظيمة ، لا يمكن أن يأتي بها العقل البشرى ، في حدود قدرته على التصور ،

---

* الكاتب الإسلامي عبد الحليم عويس محاضر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

وقد حلل الأستاذ عبد الحليم عويس أسباب السقوط في فترات معينة من تاريخ الشعوب الإسلامية حين غفلت بعضها عن إقامة حدود الله .

وذلك في كتابه القيم ، الصفحات الأخيرة من حضارتنا الذي صدر ضمن سلسلة « المختار الإسلامي سنة ١٣٩٥ هـ » .

مهما يُخْلص الدعـاة له ، ويعقدوا العزم ، على استخلاص المعاني العامة التي تقوم عليها دعوتهم إلى الله .

ولا شك في أن الدعاة يستخلصون المعاني العامة ، التي يواجهون بها الإلحاد والملحدين ، من نور القرآن ، كما رأينا هذا النموذج الذى سبق عن القيم الإسلامية

ولكننا حين نثير – معا – قضية الرجوع إلى إحكام القرآن وتفصيله في منهج الدعوة والدعاة ، فإنما نقصد بذلك إثراء هذا المنهج بما لا يقع في حدود العلم البشرى أو القدرة البشرية .

وهذ أمر لا يطيقه الأفراد مهما تجردوا للدعوة وأخلصوا لها نياتهم ، وإنما تستطيع ذلك ، الجامعات الإسلامية ويتمكن منه رجالها المخلصون ، وهـم يضعون الأسس العامة والخاصة ، لمناهج الدعوة والدعاة .

إننا لا نزال حتى الآن ندعو إلى النور المبين ، الذى جاء به الإسلام ، من خلال معان نستخلصها نحن في حدود قدرة كل منا على استخلاص هذه المعاني من كتاب الله وسنة رسوله ، وفي هذا خير عميم ، لا ريب فيه ولكن الزيادة في الخير ، خير

وهذا الإحكام والتفصيل ، كما رأينا طوال هذه الصفحات ، يدعونا إلى أن ندرس مفردات القرآن من حيث نصوصها ، ثم من حيث مواضعها

ثم ننشط في تلخيص المعاجم التي تقوم على بيان عدد مواضع كل مفرد ة قرآنية ، حتى إذا صدرت ترجمات للقرآن في لغات غير عربية ، تبيَّن للأمم جميعا والشعوب جميعا ، ولا سيما أهل الفكر فيها ، أن هذا القرآن لا ينبغي أن يكون من عند أحد إلا الله وحده لا شريك له * .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة ، أحد كبار المفَسِّرين ، وهو الفخر الرازى ، فقال ما موجزه إن « **علم المناسبة** » . وهكذا يسمى إحكام القرآن وتفصيله ، هو أعلى آفاق الإعجاز جميعاً ، لأن فيه الحد الفاصل بين كلام الله ، وكلام البشر *

ونقول – معا – بدورنا إن الحد الفاصل بين كلام الله وكلام البشر ، هذا

---

* ارجع إلى تفسير الفخر الرازي وفيه ثروة كبيرة من الإشارات إلى الإحكام والتفصيل .

الحد يظهر في إحكام القرآن وتفصيله ، بالشكل والمضمون جميعا ، فلذلك يكون من أهميته الكبرى في منهج الدعوة والدعاة ، أنه يقدم لهم إعجازا مُحَسًّا مرئيا ، يراه الذين توجه اليهم الدعوة بأبصارهم ، ويلمسونه بأيديهم ! ! .

وقد اهتمت جامعات كثيرة في عالمنا الإسلامي ، ولا سيما في المملكة العربية السعودية بإقامة المؤتمرات العالمية ، التي تدرس فيها القضايا الإسلامية الكبرى ، على أوسع مدى من التخصص ، وعمق البحث .

ومن ذلك مؤتمر التعليم الإسلامي ، الذى عقدته جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .

وفي هذا المؤتمر أُلقِيَتْ بحوث قيمة كثيرة منها بحث عن كتابة العلوم من وجهة النظر الإسلامية للدكتور زغلول النجار * .

وقد حدَّدَ الدكتور زغلول النجار ثمانية أسس لإعادة كتابة العلوم بالأسلوب الإسلامي .

أولها : أن يكون الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إطارا هاما لكتابة العلوم .

ثانيها : التأكيد على قيمة العلم في الإسلام وأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ثالثها : بيان انعدام الاحتمالات الرياضية التي ترد وجود الكون المادى إلى أى مصادفة ، وإظهار أن للكون خالقا ومدبرا هو الله وحده .

رابعها : التأكيد أن هـذا الكون المتناهي في الاتساع مبنى على نفس

---

* المؤتمر العالمي للتعليم الإسلامي عقدته بمكة المكرمة جامعة الملك عبد العزيز في الفترة من ١٢ إلى ٢٠ من ربيع الثاني سنة ١٣٩٧ هـ الموفق ٢١ إلى ٢٨ إبريل سنة ١٩٧٧ م .

وقد نشر البحث المذكور بعدد من المجلات من أهمها مجلة « الدعوة » التي تصدر بالقاهرة « العدد العاشر السنة السادسة والعشرون » وبعض الأعداد التالية

والدكتور زغلول راغب النجار أحد أعلام الفكر والعلم المعاصريـن ويعمـل الآن أستـاذا للجيولوجيا بالجامعات الأمريكية .

النظام من الذرة الى الخلية الحية ، إلى المجموعة الشمسية وأن مكوناته على تباينها يمكن ردها الى لبنات أربع : هي المادة والطاقة (في مختلف صورها بما في ذلك الجاذبية والزمان والمكان) وقد توصل العلم إلى أن المادة على اختلاف صورها ترد في أصلها الى غاز الهيدروجين (أخف العناصر المعروفة) وأن الطاقة بمختلف أنواعها والجاذبية لا بد أن يلتقيا في شكل واحد للطاقة . وبأن الطاقة والمادة شئ سواء ، وبأن الزمان والمكان شئ متواصل ، وبذلك تتحلل مركبات الكون المعلومة لنا إلى شئ واحد لا نعرف كنهه ، ولكنه يمثل الوحدة العظمى التي تجرى في هذا الكون كله ، وان دل ذلك على شئ فانما يدل على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى ، وأنه ليس كمثله شئ .

خامسها : إن هذا الكون ليس أزليا فقد كانت له في الأصل بداية ، وأنه لا يمكن أن يكون أبديا لأنه لا بد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية ، والعلم بمختلف تخصصاته يؤكد ذلك ، ولا بد من الاشارة إلى هذا المعنى في معرض المناقشات العلمية كلما لزم الأمر بلا تكلف أو افتعال .

سادسها : التأكيد على أن الوحى ليس مستحيلا من الناحية العلمية في حدود المفاهيم العلمية البشرية ، فما بالنا بقدرة الله تعالى .

سابعها : « إبراز إضافات المسلمين للعلوم في مختلف العصور ، وكيف أنهم قد كتبوا في ذلك كتابات أصيلة انطلاقا من إيمانهم وأنهم كانوا فيما كتبوا مثلا يقتدى به في أمانة النقل ودقة التعبير وحسن السند مما يؤكد أن الإسلام كان دائما حافزا على البحث العلمي والمعرفة الإنسانية لدرجة أنه يجعل العلماء ورثة الأنبياء .

ولا يمكن أن ينكر ما استفاده الغرب من المكتبات الإسلامية في كل من أسبانيا ، والمغرب العربي ومصر وسوريا والعراق

منذ مطلع عصر النهضة ، وتكفى الإشارة إلى أنه قد كان يشترط لدارسي العلوم البحتة والتطبيقية في كثير من الجامعات الأوروبية أن يكونوا على معرفة باللغة العربية تمكنهم من قراءة هذا التراث الإسلامى وفهمه .

ثامنها : التأكيد أن القرآن يقدر مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله ، ويأمر باستخدامها في البحث عن المعرفة ، وهو ينهى عن الغفلة ، ويحارب الجمود على الآراء الخاطئة الموروثة ، ويحرم الحكم بالظن والهوى ، وهو ينشر العلم اليقيني ، ولذلك يطالب دوما بالبرهان ، ويأمر بتأسيس الأحكام على الدليل العقلى الذى لا يقبل النقض . وهو في ذلك واضع المنهج العلمي التجريبي ومؤسس أخلاق العلم . »

إن هذا العالم الجليل يستخلص هذه الأسس الثمانية ، من مقاصد القرآن ومعانيه ومضامينه ، فهى حق لا ريب فيه !!

ولقد سبق طوال صفحاتنا هذه أن تبيَّن لنا أن نَظْمَ القرآن وبناءه والعلاقات بين مواضع مفرداته ، هذه الناحية الشكلية ، تَصِلُنا بمضامين القرآن من جهة ، وتكشف لنا من جهة أخرى عن جانب لا يُرَدُّ من جوانب الإعجاز القرآني ، هو بيان أن كل مفردة قرآنية ، ترتبط بها عقولنا ، فهي مصباح يصلنا نوره ، بنور المفردات التي تحيط به ، في كل موضع من مواضعه ، فنستخلص مقصدا جديدا من كل موضع جديد ، لكل مفردة نحتاج إلى البحث في آفاقها بالقرآن كله . .

وبذلك فنحن حين نرْبِطُ بين الإعجاز في مواضع مفردات القرآن ، وبين الإعجاز في مقاصده ومعانيه ، نستكمل الإعجاز من وجهيه ، وهما المبْني والمعنى معا .

لقد استَوْفى الدكتور زغلول النجار ، غايته ببيان المعاني والمقاصد ، فإذا أضيفت إلى ذلك قضية الإحكام والتفصيل ظهرت بها حجة كبرى ، تَدُلُّ بالمبنى المعجز ، على المعنى المعجز !

ويؤكِّدُ ذلك أن الأساس الثامن ، من الأسس التي استخلصها الدكتور زغلول النجار في بحثه . يُظْهِرُ لنا جميعا ، الحجة على الإلحاد والملحدين .

هذه الحجة الدامغة تأتي من حيث أنهم يتفقون جميعا ، على اختلاف مناهجهم وفلسفاتهم على إنكار الدين لقيامه على الأخلاق والقيم المعنوية ، وإخباره عن أمور وراء الغيب ، وهم جميعا لا يؤمنون بغير التجربة العلمية .

فلننظر في الأخلاق الدينية وأهمها الصدق والعدل .

هل تكون للعلم البشرى قدرة على الوجود بغير الصدق !

إن الصدق راسخ الوجود في التكوين المادى في الكون والحياة ، وله في جميع الحاجات البشرية ، أساس راسخ ، لأن غياب الصدق يعني غياب النظام ، وغياب التكوين الذى يبين لنا بأوجز عبارة أن أى شئ يأبى أن يكون غير نفسه .

كما أن الصدق ضرورى لمعرفة العلم ، وبيانه للناس .

فكيف يتحقق العلم بغير بيانه ، والصدق في هذا البيان .

أما العدل فيكفي ما تبيَّنَّاهُ من قبل ، أن العدل ظاهر ، في إحكام القرآن وتفصيله ، من حيث توزيع مواضع الكلمات على سواء في القرآن كله ، لتشرق كل مفردة بنورها في مواضعها من القرآن كله ، فترى مشاهد العلم ومقاصده ، على كثرتها وتنوعها وثباتها ويقينها ! !

إن العلم والأخلاق – معا – وجهان لعملة واحدة ، هي الحيـاة الإنسانية في أجمل أحوالها ، وأعلى آفاقها ! !

إن إنكار الأخلاق الدينية باسم العلم ، زور وبهتان .

إن الملحدين الذين يعلنون إيمانهم بالمادة وحدها ، يجهلون كل شئ عـن المادة ، طالما هم محجوبون عن الإيمان بنظامها وترتيبها ومواضعها ، التي تدلنا عليها مواضع الكلمات في القرآن العظيم ، مع أن القرآن فوق المادة ، وليس داخلا في حدودها .

وهكذا يسقط الإلحاد والملحدون ، « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .

خاتمة موجزة
للحقيقة الأساسية في الصفحات السابقة

العقلُ الإنسانيُّ ، يحيا بين آيات الله الكونية ، وآيات الله القرآنية ، حياةً يَحْكُمُها نظام واحد ، جعله الله أساساً لهداية الناس جميعا وفرادى ، في كل زمان ومكان .

ويظهر هذا النظـام الواحدُ ، لهداية الله تعالى ، بآياته الكونية وآياته القرآنية ، إذا علمنـا أن الله جَعَلَ قُدْرَةَ كل إنسان من الناس ، على رؤية أي وجه من وجوه الحقيقة ، قُدْرَة عامَّةً بين كل أحد منهم ، وَهُوَ مرتَبِطٌ بمجتمعه الإنساني والكوني !

إن القرآن يقدم لنا بكل آية من آياته ، رباطا وثيقا من المفردات التي تجتمع في الآية الواحدة ، حتى إذا قرأها الناس قراءة متصلة ، اتفقوا جميعا وفرادى على مقصدهـا الذي لا تبديل له مهما يتصل الزمان والمكان من الدنيا إلى الآخرة ، وهذا مما تظهر به قدرة الله على التعميم الذي لا يقدر على مثله البشر .

ثم إن كل آية قرآنية تحتوي بعدد ما فيها من حرف أو كلمة أو جملة على قوة كامنة ، يتجدَّدُ ، العملُ بها في آيات أخرى ، كلما كانت مفردةٌ من هذه المفردات ، متعدِّدَةَ المواضع في القرآن كله ، فإذا كل موضع جديد ، لأي مفردة منها ، قد خصَّهُ الله في سياقه من القرآن ، بحكم نهائي قاطع ، فلا يختلف ، باختلاف آراء البشر وظنونهم ، ولا يتبدل مع ما يتبدل من كلامهم ومصطلحات علومهم ، ولا يزيد أو ينقص ما قدر الله من صيغته اللغوية أو عدد مواضعه ، وهذا من التخصيص الإلهي الذي لا يقدر على مثله البشر .

فإذا نظرنا في آيات الله الكونية ، وجدنا النظام ذاته ، مهيمنا على تجمُّع الذرات في الشمس أو القمر ، فكأن الشموس جميعا سوَر كونية ، تتجدَّد بمواضعها الكثيرة في الشموس الكثيرة آفاق العمل ، مع تنوُّع المقاصد. واتصال المسيرة وكذلك الأمر في الأقمار جميعا ، والناس جميعا ، والبحار والأنهار ، والشجر والثمار على اختلاف أنواعها ، ومواضع ثمرها !

وهكذا ندرك كيف يهيمن كلام الله على معرفتنا ووجودنا ونحن نعيش في صميم الكون والحياة !

إن « الشمس والقمر » آيتان من آيات الله في الكون ، ولكن الناس جميعا وفرادى ، لا يختلفون في معرفة كل منهما ، والانتفاع بهما في حدود ما خصَّ الله به كلا من الشمس والقمر بوجوه أدائه لعمله في الحياة . (**أنظر ص ٥٠ في صفحاتنا السابقة**) .

فإذا نظرْنا إلى « **الشمس** » وجدناها نجما واحدا قائما بذاته بين النجوم الكثيرة ، التي لا يعلم عددَها يقينا أحدٌ إلا الله وحده لا شريك له .

وإذا نظرنا إلى « **القمر** » وجدناه كوكبا واحدا قائما بذاته بين الكواكب الكثيرة ، التي لا يعلم عددها يقينا أحد إلا الله وحده لا شريك له .

وعلْم الله بجملة النجوم ، وبينها الشمس ، وكذلك علمُهُ بجملة الكواكب وبينها القمر ، علم فيه تخصيص لكل شيْ بموضعه الخاص به بين مواضع مخلوقاته جميعا

وعلْمُ اللهِ فيه تعميم معجز ، لأنه يعلم جملة كل شيْ من مخلوقاته ، وكُلُّ شيْ منها ، مرتبطٌ بكل موضع من مواضع عمله ، في مجتمعه الخاصِّ ، الذي يَرْبِطُهُ بأفراد جنسه ، كما يعلم سبحانَهُ جملةَ مخلوقاته في وحْدَتِهم الشاملة ، التي تتألَّفُ منها الأكوانُ كلُّها ! !

وقد كثر في القرآن قوله تعالى (**واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ**) لترتفع عقولنا من التخصيص إلى التعميم ، فالله لا يَعْزُبُ عن علمه قليل ولا كثير ، والبشر لا يقدرون على التخصيص الصحيح ، ولا على التعميم الصحيح إلا في نسب محدودة .

فإذا عُدْنا إلى فكرة بسيطة ، أساسها أن كل شيْ من مخلوقات الله ، تَتَعَدَّدُ مواضع عمله في الكون كله ، بينما ذاتُ كل مخلوق من مخلوقات الله ، ذات واحدة لا تتعدَّد ، انتهينا إلى حقيقتين :

أولاهما : هي الإِحْكَامُ

وثانيتهما : هي التَّشَابُه

و « **الإحكام** » هو تخصيص كل شيْ من مخلوقات الله بموضع واحد ، كما نجد الشمس بموضعها الواحد الخاص بها ، بين مواضع النجوم الأخرى جميعا ، وكما نجد القمر بموضعه الواحد الخاص به ، بين مواضع الأقمار الأخرى جميعا ، وكذلك كل فرد من أفراد الناس ، بين البشر جميعا .

فإذا نظر أي فرد من أفراد الناس ، إلى أي شيْ بذاته ، فهو داخل بمعرفته ووجوده في إحكام الله لمخلوقاته.

وكذلك الأمر لو أن أي إنسان نظر إلى أي مفردة قرآنية بذاتها ، بين ما يحيط بها من المفردات القرآنية الأخرى ، فحينئذ يكون هذا الإنسان داخلا بمعرفته ووجوده ، في إحكام الله لكلماته .

ومن التشابه ما هو تعدُّدٌ لمواضع العمل لأي شيْ من مخلوقات الله ، كما يمشي الإنسان ألوف الخطوات ، فخطواته متشابهةٌ في جملتها . وإن كانت كلُّ خُطْوَةٍ منها خطوةً متفرِّدَةً في ذاتها ، وفي موضعها الخاص بها بين خُطُواته جميعا . (**انظر ص ٢٠ ، ٣٨ من صفحاتنا السابقة**)

وقس على ذلك ما تشاءُ من تعدُّد مواضع العمل ، لكل شيْ من مخلوقات الله !

١ – وهكذاً يجد الإنسان الإحكام في التشابه ، إذا خص شيئا بذاته بنظرة خاصة به .

٢ – وهكذا يجد الإنسان التشابه في الإحكام إذا نظر إلى كثير من المفردات نظرة شاملة .

أما الذي يرتبط من التشابه بكلام الله ، فهو ما نجده من تعدُّد مواضع أي مفردة واحدةٍ ، سواء كانت

هذه المفردة حرفا أو كلمة أو جملة متعددِّدَةَ المواضع ، كما نجد كلمة « الله » في ٩٨٠ موضعا بالقرآن كله ، وكلمة « الله » كلمةٌ واحدةٌ في ذاتها ، ولكنَّ لها بكل موضع جديد ، عملاً جديدا ، فضلا عن أن الموضع الجديد نفسه ، موضعٌ متفرِّدٌ بين مواضعها جميعا !

وهناك أيضا « التشابُهُ » الذي ينشأ في معرفتنا الإنسانية ، حين ننظر إلى الكثرة من المفردات ، نظرة واحدة شاملة ، دون أن نَخُصَّ كلَّ مفردة بتفرُّدها في ذاتها ، أو تفرُّد كل موضع من مواضعها ، بما يخصُّه من العمل ، ومن الهدف ، فضْلاً عن كونه – هو ذاتُه – ، موضعا متفرِّداً بين المواضع جميعاً !

وهكذا يمكننا أن نقول : إن الخلية الواحدة ، بين جميع الخلايا ، أشبه ما تكون بالحرف الواحد في اللغـــة .

ولكن أيُّ خلية وأيُّ حرف ! !

الخلايا تتنوَّعُ بأنواعها ، والحروف تَتَنَوَّعُ بأنواعها ، وكل من الخلايا واحد في ذاته ، واحد في كل موضع جديد من مواضع عمله ، وكذلك الحروف جميعا وفرادى !

وكذلك الأمر في الذرة الواحدة بين الذرات بأنواعها الكثيرة .

وكل ما في المسافة بين الاعجاز في خلق الله وكلامه ، وبين العجز في أعمال البشر وكلامهم ، أن البشر عاجزون عن تخصيص كل شئ بما يخصه تماما في عمل أو قول !

ثم نجد الإنسان الواحد بين الناس جميعا ، كما نجدُ أيَّ حيوان واحد بين الأحياء جميعا ، وكلٌّ منهما أشبه ما يكون بالكلمة الواحدة بين الكلام !

ثم نجد الجملة المتعدِّدَةَ المواضع بين آيات القرآن ، وننظر في أى أسرة بشرية ، أو شعب أو أمة ، فنجد كل مجتمع بشرى واحد ، يعمل عملا جماعيا في محيط المجتمع الإنساني والكوني ، ومهما تتعدَّدْ أنماط العمل ، فكل مجتمع بشرى ، له إيقاعه المتفرِّدُ ، في الحضارات الإنسانية في وحدتها وتنوعهـــا ، والله وحَّدَ نظام الهداية في آياته الكونية وآياته القرآنية ، حتى تظهر الحدود الفاصلة بين الإعجاز في علم الله ، والعجز في علوم البشر !

ولقد رأينا أن مفردات القرآن التي استطعنا أن نستخلصها من القرآن هي سبع مفردات .

أولها : الآية ذات الموضع الواحد

ثانيها : الآية المتعددة المواضع

ثالثها : الجملة المتعددة المواضع

وقلنا معا من قبل إن القرآن كله جملة واحدة ، ولذلك جعل الله الجملة القرآنية المتعددة المواضع ، ظاهرةً بحكم تعدُّد مواضعها بالقرآن كله ، في جملته الواحدة .

رابعها : الكلمة ذات الموضع الواحد

خامسها : الكلمة المتعدِّدَةُ المواضع

سادسها : الحرف ذو الموضع الواحد

سابعها : الحرف ذو المواضع المتعدِّدَة .

وهذه المفردات القرآنية . تُدَرِّبُنا تدْريباً متواصلاً على النظر في إحكام الكون والحياة وتشابههما !

وفي الإحكام والتَّشَابُه ، يكمن كل ما في الكون والحياة من علم ، وما فيهما من وجودٍ إنساني ، عظيمٍ في وعيه ، واعٍ بوجوده ! !

وما أعظم العلامة « ابن القيِّم » إذ جعل التَّخْصِيصَ ، كما ذكره في كتابه (زاد المعاد في هدى خير العباد) هو الدليل الأكبر ، على وجود الله تعالى ، ووحدانيته . * (ارجع إلى ص ٢٢ ، ٩٠ من الصفحات السابقة) .

فالتخصيص هو إحاطة الله بالكثير والقليل من مخلوقاته ، ليتَّفِقَ الكثيرُ والقليلُ من الناس ، على كل وجه من وجوه الحقيقة ، تفصيلا ، وعلى كل ما يطيقون معرفته ، من الحقائق الكثيرة إجمالاً .

فإذا كنا قد حاولنا – معا – من قبل ، تفسير إحكام القرآن وتفصيله ، بهذه العبارة التي اعتادتها الألسُنُ وهي (الوحدة والتنوُّع) فلعلَّنا – بحمد الله – نكون قد اهتدينا إلى الصواب !

ذلك أن « الوحدة والتنوع » مصطلح يجمع بين التعميم والتخصيص في القرآن كله بجملته الواحدة ، ثم في أى موضع متفرد لأى حرف أو كلمة أو جملة نحتاج إلى النظر في ارتباط أى منها بالقرآن كله ! وكذلك الأمر في آيات الله الكونية والقرآن مهيمن . بإذن الله علينا وعليها !

ونحن نجد أى موضع لأى حرف أو كلمة أو جملة في القرآن موضعا متفرِّداً ، لأن الله جعل من هذا التفرُّد ، مناطا لحصولنا على حُكمٍ نهائيٍّ ، كلما احتجنا إلى استخلاص أى وجه من وجوه العلم ، الذي تصلنا به أى مفردة قرآنية وهى مرتبطة بسياقها ، فور احتياجنا إلى ذلك .

فنحن حين نحتاج – مثلا – إلى دراسة « **التَّشَابُه** » في الكون وفي الحياة ، **نلجأ إلى الكلمات** الخاصة بالتشابه في القرآن كله ، لنجد لمواضعها خطَّ ارتباط ، يصلنا مع كل مفردة من مفرداته ، بحكم نهائيٍ من الأحكام التي نحتاج إليها ، في هذا الوجه من وجوه العلم ! .

ولننظر – مثلا – إلى قوله تعالى :

١ – (**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**) ٧٠ : البقرة

وهنا نجد كلمة « تَشَابَهَ » تصلنا في سياقها بحكم نهائي من الأحكام القرآنية الخاصة بالتَّشابُه .

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نحيط بآفاق هذا الحكم القرآني إلا أننا يمكننا أن نفهم منه ، أن المعرفة الإنسانية عاجزة في حدودنا البشرية ، عن تخصيص كل شيْ ، بما يخصه ، إذا تعرضنا للحكم على الكثرة من أشياء الحياة جملةً واحدة !

ثم ننظر في موضع جديد من مواضع المفردات الدالة على التشابه :

٢ - **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** .

١٥٧ : النساء

وهنا نستطيع أن ندرك من هذا الحكم القرآني الذي تصلنا به كلمة **شُبِّهَ** كما هي بموضعها القرآني السابق ، أن الظنون البشرية إذا كَثُرَتْ ، وهي كثيرة بطبيعتها ، فإن المعرفة البشرية عاجزة عن إصدار الأحكام إلا إذا نظرنا في كل ظن على حدة ، لنستخلص منه الحقيقة الخاصة به ، على الوجه المتفق معه من وجوه الحقيقة !

ونواصل هذه الرحلة مع بعض المواضع القرآنية التي نجد بكل منها مفردة من المفردات الدالة على التشابه !

٣ - **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** .

٧ : آل عمران

إننا نركز اهتمامنا - أولا - على كلمة **متشابهات** لأننا بحاجة إلى استخلاص حكم نهائي من الأحكام الخاصة بالتشابه في القرآن ، وهي إحدى المفردات الدالة على **التَّشَابُه** .

ثم ننظر - ثانيا - فيما تصلنا به من المقاصد ، التي نحصل عليها من ارتباطها بسياقها الخاص بموضعها من القــرآن .

والنتيجة أننا نحصل هنا على حُكْمٍ قرآني نهائي ، لأنه حُكْمٌ متفرِّد في القرآن كله .

هذا **الْحُكْمُ** هو أن الله تعالى يعلم أن قدرة أي أحد من الناس ، لا تستطيع أن تنظر في آيات القرآن كلها ، جملة واحدة ! !

لذلك قال تعالى :

١ - (**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**) .

والمقصود بهذه الآيات ، هو الآيات غير المتعدِّدة المواضع بالقرآن كله !

وقد جاء ذكر هذا النوع من أنواع المفردات القرآنية في أول كلامنا - منذ قليل - عن المفردات القرآنية السبع .

وكذلك عَلِمَ الله تعالى أن حَالَةَ أي قارئ للقرآن ، مع اتصاله بالإحكام الظاهر حيث نقرأ الآيات التي

نجد كلا منها بموضع واحد في القرآن كله ، لَيْسَتْ كحالة هذا القارئ وهو يقرأ آية متعدِّدَة المواضع مثل قوله تعالى :

(**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**) أو ما في حكمها ، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ آيتين من النوعين السابقين في وقت واحد !

لذلك قال الله تعالى :

(وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)

أي وهناك آيات أخر متشابهات ، لأن مواضعها كثيرة في القرآن !

هكذا نعلم أن الله لم يُصْدِرِ الْحُكْمَ على الإحكام والتشابه ، وقراءُ القرآن منفصلون عنه ، وإنما أَصْدَرَ هذا الحكم وهم مرتبطون بقراءته !

وقُرَّاءُ القرآن لا يستطيعون أن يجمعوا بين قراءة الآيات المفردة المواضع والآيات المتعدِّدَةِ المواضع في حالة واحدة من أحوال قراءتهم ، أو في وقت واحد !!

لذلك قال تعالى :

(**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**) .

٧ : آل عمران

وهكذا يظهر لنا أنه لا تعارض إطلاقا بين الآية السابقة وقوله تعالى :

(**آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**)

١ : هود

ذلك أن الإحكامَ والتَّفْصِيلَ في أول سورة هود ، يشمل الإحكـامَ والتَّشَابُه ، في سورة آل عمـران ، وإنما خصَّ الله كلَّ نوع من أنواع حاجاتنا إلى البحث في مواضع المفردات القرآنية ، بالوجه المتفرِّد الخاصِّ به من وجوه العلم !!

والقرآن كله هو القرآن ، بما فيه من « **إحْكَامٍ وتَفْصيل أو إحكام وتَشَابُهٍ** » !

ولكنَّ الله ، جعل لكل كلمة دالة على الإحكام ، أو التفصيل ، أو التشابه ، مقصدَها الخاصَّ بها حيث ثَبَّتَ عددَ مواضعها في القرآن كله ، بلا زيادة ولا نقصان ، وربَطَها من خلال سياقها بكل موضع نجدها به ، بوجه ثابت ومتفرِّدٍ ، من وجوه العلم في القرآن كله !!

ولقد سبَق طَوال الصفحات السابقة جميعا ، أن علمْنا أن الله قد ثَبَّتَ جملةَ المفردات التي يقوم عليهـا القرآن كلُّه ، بلا زيادة ولا نُقْصان .

كما ثَبَّت اللهُ ، جُمْلَةَ المواضع التي خَصَّ بها كل مفردة قرآنية بذاتها ، فلا يزيدُ عدَدُ مواضع أي مفردة ، ولا ينقُص عمَّا ثبته الله عليه !

وكذلك ثَبَّتَ الله الصيغة اللغوية لكل مفردة قرآنية ، فلا تبديل لها ! !

وقلنا معا إن أي مفردة قرآنية سواء كانت حرفا أو كلمة أو جملة ، لها عملها الوصْفيُّ اللغوي ، كما أن لها عَمَلَهَا الحسابي !

ذلك أن كل مفردة في القرآن كله تعمل من خلال تقدير إلهي لثبات خصائصها اللغوية ، وثبات كل موضع من مواضعها بين جملة المواضع ، التي قدَّرها الله لها في القرآن كله .

وهكذا تحمل كل مفردة بارتباطها بسياقها في كل موضع لها في القرآن كله ، الفارقَ بينَها ، و بين مواضع المفردات القرآنية جميعا .

هذه طائفةٌ من الحدود الفاصلة ، بين كلام الله وكلام البشر ، تبيِّن لنا أن مصطلحات العلوم البشرية ، عليها أن تخضع للقرآن ، حتى تقتبس من نوره ، هذا التعميم والتخصيص ، اللذين لا يقدر على مثلهما البشر !

فإذا سأل سائل : فكيف تَقْتَبِسُ المصطلحاتُ العلميةُ البشرية ، هذا النظامَ القرآنيَّ المعجز ، في التخصيص والتعميم ، الناتجين من تقدير جملة المفردات والمواضع القرآنية ، حتى يكون القرآنُ في كثيره ويسيره مقياساً واحدا لليقين ، مع أن البشر لا يقدرون على مثل ذلك !

فالجوابُ هو أن الله جعل « الْقِيَمَ » التي جاءت بها شريعتُه ، وقامت عليها سنَّةُ رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، مثْلَ « الإيمان » و « الإسلام » و « الصِّدق » و « الصَّبْر » و « التَّقْوَى » ، هي همزةَ النور التي تصل من كلام البشر ما انقطع ، وتوحِّدُ من مسار مصطلحاتهم العلمية ما اختلف وتمزَّق ، ودبَّ فيه التَّفَاوُتُ ، والعجْزُ عن الوفاء بالحقوق والحاجات !

إن ادعاء « **الملحدين** » على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ، أنهم يقدرون على التعميم والتخصيص ، بلا حدود ، هو القاسم المشترك لكل أكذوبة ، وكل وهم ، وكل سراب خادع في الفكر البشري !

ألا نرى إلى الملحدين وهم ينكرون دين الله ، ويكفرون بالله ، لأنهم يظنون أن الإيمان بالغيب ، دعوة لا تستقيم في عقولهم السقيمة .

فهذا من التعميم الخاطئْ إذا نظرنا إلى تعميمهم الشهادة على الغيب ، إذْ هم يعترفون بالشهادة وينكرون الغيب ، مع أنهم لا يشهدون شيئا إلا وقد غاب عنهم أكثر منه !

وهذا نفسه من التخصيص الخاطئْ إذا نظرنا إلى ربطهم بين الإيمان وبين علومهم التجريبية ، بينما علومهم التجريبية ، لا تصلهم برؤية أي واقع مشهود إلا إذا كان هناك واقع آخر هو الغيب الذي لا يرونه !

لذلك فإن الله خصَّ كل آية من آيات القرآن ، بتعميم وتخصيص معا ، لا يقدر على مثلهما البشر ، ولو اجتمع لذلك من مات منهم مع من لم يولد ! *

---

* معنى ذلك أن كل آية قرآنية ، تستجيب لحاجتنا إلى ما فيها من تعميم إذا قرأنا مفرداتها وهي متصلة في جملتها الواحدة ، كما تستجيب لحاجتنا إلى ما فيها من تخصيص إذا احتجنا إلى أي مفردة من مفرداتها حيث ندرس عدد مواضعها في القرآن كله ، ونرى كل مقصد تختص به مع اتصالها بسياقها من كل موضع .

ولقد سبق أن ذكرنا معا – منذ قليل – أن الآية ٧ : آل عمران في عموم مقاصدها ، ونحن نتلوها تلاوة متصلة ، تحدثنا عن أحوال قُرّاء القرآن ، وهم مرتبطون بتلاوته .

والقراءة تكون بالتَّتابُع ، فالناس يقرأون حرفاً بعد حرف ، وكلمةً بعد كلمة ، وآية بعد آية !

لذلك قال الله تعالى : (**مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**) لأننا لن نقرأ الآيات المحكمة ، التي تكون بموضع واحد ، أو الآياتِ المتشابهةَ التي هي ذات مواضع كثيرة ، إلا بالتَّتابُع في فترات من الوقت متتابعة ، ولكل لَحْظَةٍ من لحظَاتها ما يخصُّها من أجزاء الآيات ، ومن الآيات !

ولقد جاء ذكرُ الآيات بصفةٍ خاصَّة عند الكلام عن الإحكام والتَّفْصيل ، ثم عن الإحكام والتَّشَابُه لأنَّ الآيات ، هي أدوات الربط التي تَرْبِطُ كلَّ سورة بذاتها ، ثم تربط كل سورة ، مع ذلك ، بسُوَر القرآن كله .

ذلك أن آيات القرآن ، إنما هي مراكز تجمُّع للحروف والكلمات والجمل ، التي نراها مجتمعة في كل آية حال قراءتنا لها ، بينما كل آية تعمل – أيضا – في تنسيق شامل مع آيات أخرى كثيرة ، في سور كثيرة ، من حيث تجدُّد مواضع حروف بذاتها في كلمات بذاتها وجمل بذاتها ، ولكل منها ارتباطه بجديد من وجوه العلم ، مع اتصال قراءتنا للقرآن وتدبرنا إياه . (**انظر ص ١١١ من الصفحات السابقة**) .

هذا مما نقدر معا على بيانه من « **التعميم** » القرآني المعجز .

أما التخصيص القرآني المعجز فإننا نستطيع أن نعرف شيئا عنه ، ونحن نحاول أن نتبين – معا – الدليل على صدق ما سبق بيانه ، من أن الآية السابقة من سورة آل عمران ، خاصةً ببيان أحوال الناس ، وهم يقرأون القرآن ، بدليل ما جاء بهذه الآية ، من تصنيف أحوال التلقِّي للمعاني .

وكذلك بدليل ما جاء في هذه الآية ذاتها ، من الإشارة إلى التَّذَكُّر الذي يتَّفِقُ مع حالة التتابع الزمني ، في أثناء القراءة . . **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَاب**] .

ذلك أننا حين نريد أن نبحث في مواضع أي مفردة من مفردات كل آية قرآنية ، سواء بحثنا في المواضع المتعدِّدَة لمفردة بذاتها ، أو بحثنا في اشتقاقات هذه المفردة ، فإننا ننطلق من آية إلى أخرى ، ومن سورة إلى أخرى ، فنصل إلى آفاق كثيرة ، نَتَنَقَّلُ معها من التعميم إلى التخصيص ، كلما احتجنا إلى أي منهما !

فلننطلق الآن من كلمة (**مُحْكَمَاتٌ**) بالآية السابعة من سورة آل عمران ، إلى أقرب كلمة دالة على الإحكام ، بأقرب آية بأقرب سورة .

(**آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**) .

١ : هـود

إننا حين نَخْضَعُ للتعميم القرآني المعجز ، نقرأ هذه الآية قراءةً متصلة ، فنعلمُ مما يمكننا أن نعلم من علومها ، ثلاثة أمور :

أولها : التطبيق العملي لعلم الإحكام والتفصيل ، كما تشير إلى ذلك فاتحة السورة (آلر) .

ثانيها : اسمُ العِلْم ذاته ، ووصْفُ آيات القرآن جميعا بأنها « **أُحْكِمَتْ ثُمَّ فُصِّلَتْ** » أي احتوت على التعميم ثم على التخصيص .

ثالثها : مَصْدَر هذا العلم وهذا الإعجاز ، كما نجده في قوله تعالى : « **من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** » .

وهذا هو الخضوع للتعميم ، أي قراءة كل آية قرآنية قراءة متصلة لنحصل على معناها العام ، بقدر ما نطيق أن نقتبس من نوره .

وبذلك ندرك أن خضوعنا للتعميم ، هو أقرب فِعْلٍ يقرِّبُنا لفهم حقيقة « **الإحكام** » !

فما التَّخصِيصُ ! !

« **التخصيص** » في حدود قدرتنا على البيان ، هو أن نخضع لأي حاجة من حاجاتنا إلى كل موضع نجد به أيَّ مفردة قرآنية ، أو نجدُ به اشتقاقاً من اشتقاقاتها ، وكلٌّ من ذلك مُتَّصِلٌ بسياقه القرآني !

وهكذا تتعدَّدُ اختصاصاتُ كل آية بعدد مفرداتها .

فإذا كانت الآية الأولى من سورة هود ، قد أَمَدَّتْنا ونحن ننظر إليها من خلال قوله تعالى « **أُحْكِمَتْ** » بهذه العلوم جميعا ، فإننا نعلم من ذلك أيضا ، أن هذه العلوم كلها جاءت – هنا – في مجال ، الدلالة على القرآن في ذاته .

وبذلك ندرك الفارق بين الآية الأولى من سورة هود ، والآية السابعة من سورة آل عمران ، فيؤكد لنا ذلك ، صِدْقَ ما سَبَقَ أن اتَّفَقْنَا عليه وهو أن آية آل عمران خاصَّةٌ بأحوال قراءتنا للقرآن وتدبُّرنا له ، فلا تعارض – إذن – بين إحكام القرآن كله كما هو ظاهر بأول سورة هود ، وبين إحكام آيات منه ، وتشَابُه آيات أخر ، إذا تتابعت قراءتنا لما تتعدَّد مواضعه أوْ ما لا تتعدَّد مواضعه من آيات القرآن .

ويؤكد ذلك أيضا أن كلمة (**مُحْكَمَةٌ**) عندما جاءت بسورة « **محمد** » قد وصلتنا بمعلومات عن الإحكام ، من حيث عملُهُ في كل سورة من سور القرآن ، بينما كان الإحكام في الآيتين السابقتين خاصا بالآيات .

فلماذا كان ذلك ! !

يقول الله تعالى :

[**فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ**]

[**طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ**] محمد : ٢٠-٢١

ونُمعن في النظر بذلك فنرى أننا أمام آيتين تعملان معا ، على وصْل المعنى العامِّ الذي نستخلصه من تلاوتنا للآية (٢٠) والآية (٢١) من سورة محمد .

ذلك أن ذكر الإحكام إذ هو خاصٌّ بالسورة ، يبيِّن لنا أن استخْلاص أوامر الله ونواهيه من آياته البينات ، يقتضي منا الإخلاص في التلاوة واستقصاء ، الغايات والمقاصد ، من مواضعها في القرآن ، دون أن نعمِّمَ حيث يجب علينا أن نحصل على خاصٍّ ، أو نخصَّ حيث يجب علينا أن نحصل على عـامٍّ .

والنص هنا على الإحكام ، فيما يخص كل سورة من سور القرآن ، دليل على ذلك .

فلما كانت الآيات تتعدَّدُ مواضعُها ، أو لا تتعدَّدُ .

فإن فَهْمَ « الإحكام » على أنه هو تعميم التلاوة ، بأي قدْرٍ من القرآن ، مع الفهْم السديد لارتباطه المحكم ، الذي يقدِّمُ لنا في سياقه بابا متفرِّداً من مقاصد القرآن ، يحملُ معه الفارق بينه وبين غيره من المقاصد ، مما نرجو الله أن يزيدنا به قربا من الصواب !

فإذا تعدَّدَت مواضع آية أو مفرداتها ، لمن طلب البحث في ذلك ، وكان أهلا له ، فهذا هو التَّشَابُه ، * .

الإحكام والتفصيل والتشابه ، مصطلحات قرآنية ، تُبِّنُ لنا أحوال نظرنا إلى القرآن ، كأن ننظر إلى كل مفردة بكل موضع بين ما يخصها من وجوه العلم بمواضعها الأخرى ، فهنا تكون داخلين في التفصيل ، أو أن ننظر إلى ما يتفرد به من وجوه العلم ، أي موضع لكل آية أو مفردة من مفرداتها حين نحتاج إليها بموضع بعينه ، فنحن حينئذ نكون داخلين في الإحكام .

والفارق بين التفصيل والتشابه أن التفصيل يشمل جميع مواضع الآيات ومفرداتها بما يدخل في ذلك من الآيات التي تتعدَّد مواضعها أو مواضع مفردة من مفرداتها ، وكذلك الآيات التي لا تتعدَّد مواضعها وكذلك ما لا تتعدَّدُ مواضعه من مفرداتها .

ويظهر ذلك كلما كنا بحاجة إلى البحث في نوع من هذه الأنواع .

أما التشابه فهو فرع للتفصيل بمعنى أنه يختص فقط ، بالآيات التي تتعدَّدُ مواضعها ، كما يختص بكل ما تتعدَّدُ مواضعه من المفردات عموما ، ولو نظرنا إلى موضع مفردة بذاتها باعتبارها مفردةً بين مفردات آيات القرآن كله .

ويظهر ذلك كلما كنا بحاجة إليه .

لذلك كان أحسن آراء العلماء في التشابه أنه هو ما تتعدَّدُ مواضعه من الآيات أو مفرداتها ، بينما الإحكام هو ما لاتتعدَّدُ مواضعه من ذلك ، أما التفصيل فهو يشمل كل الحدود التي يكون فيها فصل ووصل بين كل آية وغيرها أو مفردة وغيرها سواء ما تتعدَّدُ مواضعه من ذلك أو ما لا تتعدَّدُ مواضعه .

انظر الإتقان للسيوطي ، ص ٢ ، جـ ٢ ، ط . البابي الحلبي بمصر .

وبقي أمامنا الآن أن نلحظ ملحوظة جديدة في الآيتين السابقتين ، من سورة « **محمد** » صلى الله عليه وسلم .

هذه الملحوظة هي أن هاتين الآيتين ، قد ارتبط معناهما العامُّ ، بوجوب العمل بالقرآن كله ، لأنه محكم هذا الإحكام المعجز ، فهو كلام الله الذي لا يختلط به ما ليس منه ، ولا يُقْتَطَعُ منه ما هو منه ! !

وقد سبق أن رأينا ارتباط الإحكام بقراءة القرآن ، ثم في بيان الإحكام والتفصيل ، حتى انتهينا هنا إلى ما يرتبط بالإحكام من وجوب العمل بالقرآن كله ، في تعميمه وتخصيصه جميعـا .

وهكذا يتبين لنا أن « **التَّعْمِيمَ** » القرآني المعجز ، مرتبط بمعنى « **الإحكام** » هذا الارتباط الوثيق .

أما « **التَّخْصِيصُ** » فهو يكون في كل آية بعدَدِ مفرداتها ، وعدَدِ مواضع هذه المفردات ، في سائر الآيات والسُّور ، ولنا مع كل موضع لكل مفردة ، حكمٌ قاطع ، ومقصِدٌ مُتَفَرِّدٌ ، لا تكثُرُ معه الظنُونُ ، ولا تختَلِفُ الأهواء !

وذلك كأنْ ننظر في قوله تعالى (**ثُمَّ فُصِّلَتْ**) بالآية الأولى من سورة هود ثم ننطلق مع كلمة ((**فُصِّلَتْ**) إلى موضع قرآني آخر ، نجدها به ، أو نطلب مقصدها الجديد فيه ، فإذا نحن مع قوله تعالى :

(**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبياً لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

٣ : فصلت

فهنا نعلم أن العلم اليقيني ، للصفوة من الناس ، يكون بفهمهم للتعميم والتخصيص في كلام الله ، ولا يقدر البشر على مثل هذا التخصيص والتعميم ، إذ كل عثراتِ فكرهم ، وانقطاع أمرهم ، إنما هو بمحاولتهم أن يتعدَّوا حدودهم في التعميم والتخصيص !

وهذا مقصد جديد ، تصلنا به كلمة فصلت بموضعها الجديد .

ومن الآفاق العالية في الإعجاز القرآني القائم على إحكام القرآن وتفصيله ، أن لغة العرب في حدودها اللغوية الموروثة ، قد وَصَفَتْ لنا التَّشَابُهَ بأنه هو التماثل ، لا كما يَظُنُّ بعض الناس أن التَّشَابُه هو التَّضَادُّ أو الاختلاف !

ولكن القرآن في إحكامه وتفصيله ، قد بيَّن لنا درجات التماثل في نوره ، وهو كله نورٌ سَوَاءٌ ، لا سبيل معه إلى الظلمات والأهواء والظنون !

وانظر كذلك « أحكام القرآن » للجَصَّاص ، ص ٢٨٠ وما بعدها ، ج ٢ ، ط . دار المصحف بمصر .

والجَصَّاصُ هو أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ، كان صانعا للجص ثم نبغ في العلم وقد ولد بنيسابور سنة ٣٠٥ هـ وتوفي سنة ٣٧٠ هـ ، وكان إمام الأحناف بعصره .

أما السيوطي فقد سبقت ترجمته بالصفحة ١٣٦ من الصفحات السابقة ..

فالإحكامُ هو الوحدة الشاملة ، التي تجمع آفاق النور القرآني جميعا ، وأسراره العميقة كلها .

والتفصيل هو أنواع النور كلها ، مهما تتنوع إيقاعاته ، بين أن تتعدَّدَ المواضع بالآيات ومفرداتِها ، أو لا تتعدَّدُ ، وكلٌّ منها مُفْرَدٌ في يقينه ، إذا أمعنَّا في النظر بما يخص كلَّ موضع بذاته ، من وجوه العلم .

أما التَّشَابُه فهو تَفصِيلُ التَّفْصيل ، إذ هو فَرْعٌ للتَّفْصيل .

ذلك أن خير آراء العلماء القدامى ، في « التَّشابُه » هو ما جاء على أن التَّشَابُه هو ما تتعدَّدُ ، مواضع مفرداته ، من القرآن كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

فالتفصيل يشمل مواضع المفردات القرآنية جميعا ، سواء منها الآية التي تتعدَّدُ مواضعها أو التي لا تتعدَّدُ بها المواضع !

والتَّشابُه هو ما تكثُرُ مواضعُهُ ، سواء في ذلك الآياتُ أو مُفْرداتُ كل آية منها .

لذلك وَصَفَ الله القرآن كُلَّهُ بالتَّشَابُه حيث أرْشَدَنَا سبحانه ، إلى مثانيه ، التي تجمع لكل مفردة قرآنية ، عملين :

أحدهما : داخل في التعميم .

وثانيهما : داخل في التخصيص (**ارجع إلى ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١١٩ ، ١٦٢ من صفحاتنا السابقة**) .

أرأينا إلى مجموعة من الجنود ، لكل منهم شخصه المتفرِّدُ ، حين يدعوه قائدُه باسمه فيخرج من الصَّفِّ ويكلمه ، ثم يعود بعد ذلك إلى مكانه بين الجنود جميعا !

فماذا يكون الأمر بعد أن يسمع كل جندي النداء الخاص به ، ثم يعود إلى موضعه بين الجنود !

إن كل جندي حينئذ ، يكون قد فَعَلَ فعْلين ، وظهرت له مُهِمَّتَان :

أولاهما : خاصَّةٌ بتفرده بذاته .

وثانيتهما : خاصَّةٌ بارتباطه بمجتمعه .

فهكذا وَحَّدَ الله طريق الهداية في أنفسنا .

وفي آيات كتابه العزيز ، حتى يكون منهج الهداية القرآنية ، أقرب إلى واقعنا العملي ، من كل إنسان منا إلى ذاته ، ومجتمعه الإنساني والكوني .

يقول الله تعالى :

(اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ)

٢٣ : الزمر

إن قوله تعالى : (**مُتَشَابِهاً**) كما هو بهذه الآية بالذات ، يرصد لنا حالة ارتباطنا بأي مفردة قرآنية ، وهي في سياقها من أي موضع بذاته ، بين المواضع الخاصة بالمفردات القرآنية جميعا .

لذلك وصف الله القرآن كله هنا بقوله (**مُتَشَابِهاً مَثَانِي**) ، **فَعَمَّمَ التَّشَابُه** على القرآن كله من هذا الوجه من وجوه تلاوتنا للقرآن وتدبرنا لمواضع مفرداته ، حتى يستغرق التشابه ما هو محكم ومفصل جميعا ، وكل مفردة قرآنية « نور » قائم بذاته « على نور » هو القرآن كله في جملته الواحدة (ارجع الى ص ١١١ من صفحاتنا السابقة)

لقد بين الله لنا بالشكل والمضمون في آيات القرآن ، بالمصطلح العلمي والتطبيق العملي معا ، حدودَ قدرتنا على التعميم والتخصيص .

ولننظر إلى قوله تعالى **مُتَشَابِهاً** بهذا الموضع الجديد ، من مواضعه الثلاثة في القرآن كله .

[والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ]

١٤١ : الأنعـام

إن الزيتون والرمان يتشابهان معا في أن كلا منهما ، « **نبات** » .

وهذا من التعميم في صفات الخلق .

ثم إنهما لا يتشابهان في أن الزيتون لا يتشابه مع الرمان في شكله وطعمه والغاية من التغذِّي به ، وهذا من التخصيص في صفات الخلق ، ولا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ، وحده لا شريك له .

فالتشابه – إذن – يأخذ مكانه في إطار إحكام القرآن وتفصيله ، ليرصد لنا **أُفُقاً** جديداً من آفاق الارتباط ، بين كل أحد من الناس ، وأي نعمة بذاتها من نعم الله ، حيث جعل الله نعمه جميعا وفرادى ، مناط اتفاق جامع ، للمعرفة الإنسانية ، ومنفعة شاملة للناس جميعا وفرادى ، بكل زمان ومكان ، بصدق وعدل وثبات لا يقدر عليها إلا الله وحده لا شريك له .

وهكذا نعلم أن عبارة (الوحدة والتنوع) كما تَدُلُّنا على الإحكام والتَّفْصِيل ، إنما هي عبارة تبيِّنُ لنا أن القرآن في جملته وتفصيله ، كتاب لا ينبغي لنا – نحن البشر – أن نزيد عليه ما ليس منه ، ، أو أن نَنْقُصَ منه أي مفردة من مفرداته !

ولعلنا نذكر هنا أن الله تعالى قد خصَّ **الآيات** بالذكر عند كلامه عن الإحكام والتفصيل ، ثم عند كلامه عن الإحكام والتشابه ، **لأن الآيات** هي التي تحتوي على أنواع المفردات الأخرى من حرف وكلمة وجملة ، وبذلك يصدق حكم كل آية على مفرداتها كذلك .

هكذا تزيدنا هذه الخاتمة الميسرة علْماً ببعض الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، فندرك منها أن كلام الله – فضلا عن كونه ثابتا – بلا زيادة ولا نقصان عما ثَبَّتَ الله عليه كلمات كتابه ، إنما هو يقدِّمُ لنا نصاً نتلوه تلاوة متصلة إذا احتجنا إلى ذلك ، كما يقدم لنا موسوعة للأحكام المطلقة كلما احتجنا إلى نوع من أنواع العلم كما رأينا – منذ قليل – في المفردات الخاصة بالتشابه !

والموسوعات البشرية تزيد وتنقص لأنها تخطئ وتصيب ! !

وربما دفعت هذه الخاتمة قراءها إلى إعادة قراءة الصفحات السابقة لمن شاء ذلك .

والله أسأل أن يزيدنا علما كلما ازددنا للقرآن فهما ، وأن يزيدنا منه قربا كلما ازددنا للقرآن حبا ، إنه نعم المولى ونعم النصـير .

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على إمام المرسلين محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

محمد العفيفي

الكويت في رمضـــان ١٣٩٧ هـ
أغسطس ١٩٧٧ م

موضوعات الكتاب



كتب للمؤلف

أولا : ثمانية دواوين ومسرحيات شعرية بين سنة ١٩٦٠ م ، سنة ١٩٧٠ م (نفدت) .

ثانيا : (معجزات الرسول) مجلد في ثلاثين مسرحية شعرية ذات فصل واحد (تحت الطبع) .

ثالثا : مقالات عن فلسفة القيم في القرآن الكريم نشرت بمجلة منبر الإسلام بين سنة ١٩٧٠ م ، سنة ١٩٧٥ م .

رابعا : القرآن تفسير الكون والحياة سنة ١٩٧٥ م .

خامسا : القرآن دعوة الحق سنة ١٩٧٦ م .

سادسا : مقدمة في التخلف والتقدم
نشر مؤسسة دار العلوم
طبعة أولى سنة ١٩٧٦
طبعة ثانية سنة ١٩٧٧

سابعا : القرآن القول الفصل بين كلام الله وكلام البشر سنة ١٩٧٨ .

ثامنا : المصحف المفصل (تحت الطبع)

هذا الكتاب

القرآنُ له جملةٌ ثابتةٌ من المفردات ، لا تزيدُ ولا تنقُصُ ، لأن الله ثَبَّتَ كلمات كتابه لهداية البشرِ في كل زمان ومكان،والدليل على ذلك أن كل حرف أو كلمة أو جملة في القرآن ، لا تَبْدِيلَ لنصِّها مهما تتعدَّدْ مواضعُها بين مواضع المفردات القرآنية ، في جملتها الواحدة .

فكلمة « تَبْدِيلَ » – مثلا – ثابتةٌ على نَصِّها القرآني ، بينما البشر في كلامهم يغيِّرون الكلمة من كلماتهم ، إلى أى مرادف لها دون أن يؤثر ذلك في كلامهم !

ومما يؤكد هذا الإعجاز القرآني أننا لو نظرنا إلى عدد مواضع أى مفردة قرآنية ، وجدناه عدداً ثابتا لا زيادة عليه ، ولا نقصان منه !

ونُطَبِّق ذلك على كلمة « تَبْدِيلَ » فنجد لهذه الكلمة القرآنية موضعين اثنين .

الموضع الأول	لا تبديل لكلمات الله	٦٤ : يونس
الموضع الثاني	لا تبديل لخلق الله	٣٠ : الروم

لقد وصلتنا كلمة تبديل في سياقها من موضعها الأول بنفى التبديل عن كلمات الله .

ثم وصلتنا الكلمة ذاتها في سياقها من موضعها الثاني بنفى التبديل عن خلق الله .

وهكذا يتضح لنا لماذا كان عدد مواضع كل مفردة قرآنية ، عدداً ثابتا ، بلا زيادة ولا نقصان .

ذلك أن القرآن يقدِّم لنا التعميم الإلهيَّ المعجز ، حين نتلوه تلاوة متصلة ، ليسع نُوره الناس جميعاً على سواء .

ثم إنه إذا احتاج أى إنسان بأى زمان ومكان ، أن يبحث في مواضع أي حرف أو كلمة أو جملة في القرآن ، قدَّمت لنا أي مفردة قرآنية ، ما فيها من تخصيص إلهيٍّ معجز ، حيث تصلنا في كل موضع من مواضعها ، بمقصد جديد فيه الحكم النهائيّ المتفرِّد ، بين مقاصد القرآن جميعا في جملتها الواحدة ، التي ثبتها الله لهداية البشر جميعا وفرادى على سواء . وبذلك تجمع الكلمة القرآنية بين خصائص اللغة وخصائص الحساب .

فماذا عسانا نفعل بالفلسفات البشرية ، التي هي ممزقة شكلا ومضمونا ،وفي أيدينا كلام الله .

هذا أحد الحدود الفاصلة بين كلام الله وكلام البشر ، كما يقدمها لنا هذا الكتاب .

م أحمد الكفيفي

تصميم وتنفيذ/حمدي الكيال
المطبعة العصرية / الكويت

